الحافظ أبو طاهر السِّلَفي

(٤٧٥ - ٥٧٦ هـ)

حافظ الإسلام وأعلى أهل الأرض
إسنادًا في الحديث والقراءات
مع الدين والثقة والعلم .

ابن الجزري

تأليف
الدكتور حسن عبد الحميد صالح

المكتب الإسلامي

الحافظ أبو طاهر السِّلفي

(٤٧٥ - ٥٧٦ هـ)

تأليف

الدكتور حسن عبد الحميد صالح

حافظ الإسلام وأعلى أهل الأرض
إسنادًا في الحديث والقراءات
مع الدين والثقة والعلم .

ابن الجزري

الطبعة الأولى

ابتدأ طبع الكتاب عام ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ وارسلت التجارب للمؤلف واجرى عليها التصحيحات الاخيرة . ثم كانت حوادث لبنان الاليمة وتلف المطبوع منـه ، وسرقت الحروف المعدة لطبع الباقي ، الامر الذي اضطررنا معه لاعادة سبك الكتاب وتصحيحه وطبعه مجددا . ثم علمنا بحـادث التصـادم المؤسف الذي تعرض له المؤلف وأدى بحياته ، أثناء قيامه بالعمرة في مكة المكرمة في ٢٨ رمضان ١٣٩٦ الموافق ١٩٧٦/٩/٢٢ تغمده الله بواسع رحمته وأحسن مثوبته . وانتهى الطبع عام ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ .

المكتب الاسلامي

بيروت ص.ب ١١٣٧٧١ هاتف ٤٥٠٦٣٨ برقيا : اسلاميا
دمشق ص.ب ٨٠٠ هاتف ١١١٦٣٧ برقيا : اسلامي

هذا الكتاب

مقدمـــة الرسالة التي نال بها المؤلف درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج بانجلترا في أيار (مايو) ١٩٧٢ .

الإهداء

إلى من أفنى عمره المديد عالماً ومعلماً ...

إلى من حفظ للعلم قيمته ومكانته، فأكبر السلاطين شخصه، وأعظموا شأنه.

إلى من كان أعلى أهل الأرض إسناداً للحديث والقراءات ...

إلى الشيخ المتقن الورع عالم الإسكندرية ومحدثها الكبير ..

الحافظ الجليل :

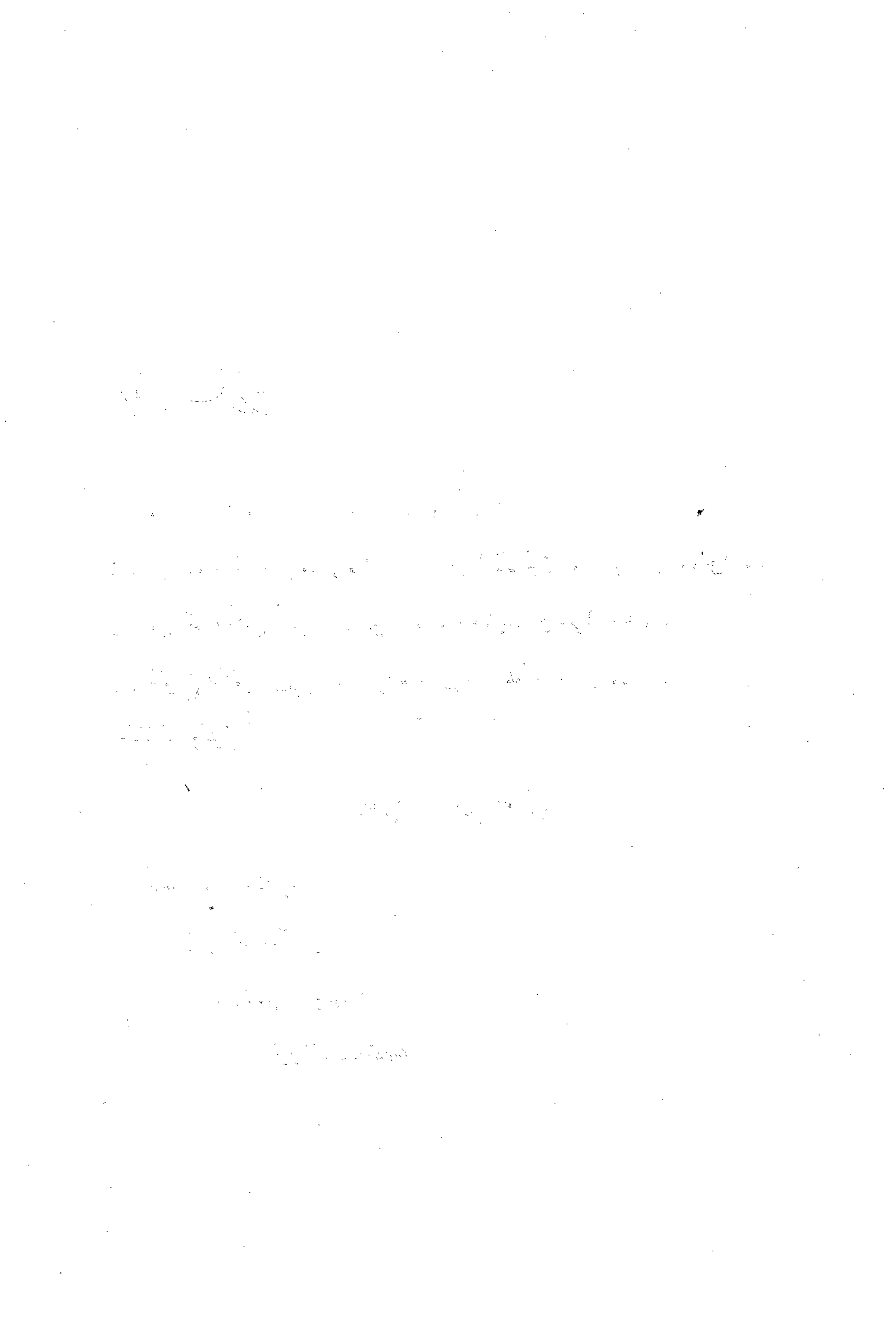
« أبـي الطاهر السِّلَفي »

أقدم هذا الكتاب

إحيـاء لذكـراه

وتقديراً لجهده

ووفاء لشخصه .



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أحمد الله تعالى حمداً يكافىء فضله ، ويليق بجلال قدره وعظيم سلطانه ، وأصلي وأسلم على نبينا وحبيبنا المصطفى خير خلق الله وخاتم رسله ، وعلى آله وصحابته والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين :

أما بعد ،

فلا يزال كثير من علمائنا ورجال الفكر والأدب في تراثنا العربي والإسلامي مغمورين أو منسيين لم يلتفت إليهم الباحثون ، ولم يعن بهم الدارسون ، فلم تقم حولهم دراسات موضوعية شاملة توضح معالم شخصياتهم الفكرية ، وتحدد ما كان لهم من دور إيجابي مؤثر في الفترة التي عاشوها ، وتعرض نتاجهم الفكري عرضاً علمياً صحيحاً ، يقوم على الدقة والتمحيص ، ويعتمد على الجدية والتعمق والأمانة .

لقد كان بعض أولئك العلماء المنسيين علماء مشهورين في ميدان تخصصاتهم ، أفنوا أعمارهم المديدة في مجال البحث والدراسة المتعمقة ، لم يدّخروا وسعاً في خدمة العلم وتحصيله أو حراسته وتقديمه لطالبيه ،

مضحّين في سبيل ذلك بكل ما يملكون من جهد وصحة ووقت ومال . فكانوا – بحق – مشاعل وضاءة للفكر والثقافة ، أضاءت لمن بعدهم مسارب الدروب ومجاهل العلوم .

فجدير بنا – ونحن نقتفي آثار أولئك السلف ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم – أن نكون أوفياء معهم فنقدرهم حق قدرهم ، ونحيي بالدراسة ذكراهم ، ونكشف نقاب النسيان عنهم ، ونعرف الأجيال بنتاجهم ومكانتهم .

ومن بين أولئك الأعلام المنسيين أو المهملين شيخ المحدثين في القرن السادس الهجري الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم السِّلفي الأصبهاني ، الذي شهد له علماء عصره ومن جاء بعدهم بعلو مكانته ، ورسوخ قدمه في ميدان علم الحديث ومصطلحه ، ذلكم الحافظ الثقة الذي امتد به عمره حتى أصبح أعـلى أهل الأرض اسناداً في روايته ، مما جعله قبلة أنظار طلاب الحديث ، ومحط رحالهم ، يتوافدون عليه من أماكن قاصية ، ويرحلون اليه من أقطار وبلدان عديدة .

ولكنه على الرغم مما كان يتمتع به من شهرة واسعة في حياته وبعد مماته ، وعلى الرغم من تلك الأعداد الغفيرة التي تتلمذت عليه أو سمعت منه فقد أُهمل إهمالا شديداً من قبل الباحثين والدارسين عـلى السواء . فهو رحمه الله لم يحظ – قبل هذه الدراسة – بترجمة وافية تؤرخ لحياته ، وتوضح دوره ومعالم شخصيته ، بل لم تكتب عنه دراسة موضوعية – كما كتب عمّن هم دونه – يقوّم بها نتاجه الفكري والأدبي في تلك الفترة التي عاشها في مدينة الاسكندرية .

وأذكر أنني عندما اقترحت على أستاذي المشرف البرفسور R ,B, Seargent

أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج – والأستاذ الزائر البرفسور محمد عبد المعين خان – مدير الادارة العثمانية بحيدر آباد – أن يكون القسم الأول من رسالتي للدكتوراه دراسة شاملة عن حياة « السِّلفي » ، ترددت قليلا خشية أن تكون حياة « السِّلفي » وما يدور حولها لا ترقى إلى مستوى أطروحة جامعية للحصول على درجة الدكتوراه ، ولكن الاستاذين الفاضلين شجعاني على البحث فيه ، فانطلقت في مكتبة كامبردج العامرة ، وأخذت أبحث وأنقب ، وإذا بي أقف في كل يوم على جديد يفضي إلى جديد ، وما كاد ينقضي علي شهران في البحث حتّى وجدت نفسي أمام شخصية كبيرة تستحق الدراسة والتقدير . عندئذ قابلت الاستاذين الفاضلين ، وحدثتهما بما توصلت اليه ، وقصصت عليهما من أمر « السلفي » مـــا عرفت ، فأقرا البحث ، وشجعاني على المضي فيه .

لقد تبين لي من خلال رحلتي الطويلة في كتب المشارقة والأندلسيين المعتمدة أن كل ما كتب عن حياة « السِّلفي » هو إما إشارات عابرة وأخبار قصيرة متناثرة ذكرت عرضاً أثناء ترجمة بعض الأشخاص الذين أخذوا عنه ، او التقوا به ، أو كانت لهم منه إجازة ، وإما ترجمات موجزة ركّز الضوء فيها على شيوخه الذين أخذ عنهم ، أو على تلاميذه المشهورين الذين تتلمذوا عليه . وبعد استعراض شامل لتلك المصادر ، تبين لي أنها جميعها تنقل مادتّها من أصول خمسة ، هي : « سيَـر أعلام النبلاء » و « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و « تاريخ الشام » لابن عساكر ، و « ألف باء » ليوسف البلوي .

ومع إقراري بأهمية ودقة المعلومات الواردة في هذه الكتب الخمسة – التي أفدت منها كثيراً – إلا أنها غير كافية ولا وافية ، ولا يستطيع باحث

أن يعتمد عليها وحدها في تقديم دراسة شاملة لحياة الحافظ «السِّلفي» وتقويم اعماله وتآليفه .

وتجدر الاشارة هنا إلى تلك المحاولات الثلاث التي ظهرت حديثاً للتعريف بصاحب هذه الدراسة ، وللتنويه بأهمية كتابه « معجم السفر » . قام بالمحاولة الأولى الدكتور أمبرتو ريزيتانو الايطالي سنة ١٩٥٥ م في مقال له بعنوان « أخبار عن مسلمي صقلية » (١) ، ثم كتب المحاولة الثانية صديقنا وأستاذنا الدكتور إحسان عباس سنة ١٩٦٣ ، في مقدمة كتابه « أخبار وتراجم أندلسية » (٢) ، ثم قدّم المحاولة الثالثة بصورة أوسع — بالنسبة لسابقتَيه — الدكتور جمال الدين الشيال في مقال له عن « السِّلفي » ضمن كتابه « أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي » (٣) .

ولكن تلك المحاولات الثلاث لم تكن المقصود منها تقديم دراسة شاملة لحياة « السِّلفي» وأعماله ، وإنما كان المقصود منها إعطاء فكرة موجزة ومركزة عن صاحب كتاب « معجم السفر » الذي اختاروا منه مادة كتبهم وموضوعاتهم ، ولذا لم تخرج — في جملتها — عن جمع وعرض للمعلومات الموجودة في بطون المصادر التي تقدم ذكرها .

لهذا فكرت في سد هذه الثغرة ، وشرعت في تقديم دراسة شاملة لحياة هذا العالم الجليل أبرز فيها معالم شخصيته كمحدث ، وأوضح ما كان له من دور فعال في ابقاء جذوة العقيدة السنية حية في العهد الفاطمي ، وما كان لمدرسته « العادلية » من خدمات جلى لطلاب الحديث والفقه ،

---

(١) نشر هذا المقال في « حوليات كلية الآداب » بجامعة عين شمس بالقاهرة ، في المجلد الثالث ، عدد يناير ١٩٥٥ .

(٢) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عن دار الثقافة ببيروت ، سنة ١٩٦٣ م .

(٣) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عن دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٥ م .

جعلت من الاسكندرية مركزاً مرموقاً في العالم الاسلامي يعيد للأذهان ما كانت عليه من مكانة علمية في عصور ما قبل الاسلام . ولكنني ما كدت أمضي قليلا حتى وجدت نفسي مضطراً للبحث في كتب الأدب والتاريخ والطبقات والتراجم – الشرقية منها والأندلسية – وإلى السؤال والتنقيب عن كتب « السِّلفي » نفسه – وهي كلها لا تزال مخطوطات متناثرة في مكتبات عدة ، لم تر نور المطبعة بعد – لألتقط منها ما يمكن الاستعانة به أو الاستفادة منه .

وقد تمكنت – بتوفيق الله تعالى – أن أحصل على إشارات مفيدة ، وحكايات نادرة ، ونتف صغيرة من معلومات متناثرة هنا وهناك ، أخذت أضم بعضها إلى بعض في صبر وأناة ، محاولا أن أنسج منها صورة حية متكاملة ، فكان نتيجة ذلك كله هذه الدراسة التي كانت محل تقدير واستحسان من لجنة الممتحنين الذين ناقشوها وأجازوها في جامعة كامبردج بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٧٢ م ، وهي التي أقدمها اليوم للقارىء العربي بكل تواضع وثقة .

فهذه الدراسة إذن ترجمة للقسم الأول من أطروحتي [١] التي حصلت بها على درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج ببريطانيا ، أدخلت عليها تغييرات طفيفة اقتضتها صياغة الاسلوب العربي من تقديم أو تأخير ، ومن حذف أو إضافة .

ختاماً ، أرى من واجبي أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير لأستاذي

---

(١) اسم الأطروحة هو :
The life and Works of al-Hafiz Abū Tahir al-Silafi. accompa— nied by critical edition of the author's « Mu 'jam al - Safar ».

البرفسور R. B. Seargent أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج لما بذل معي من جهد ، والأستاذ البرفسور محمد عبد المعين خان الذي أفدت من توجيهاته القيمة في بداية هذه الدراسة ، والاستاذ الدكتور إحسان عباس أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية ببيروت ، الذي غمرني بفضله وأدبه وحسن توجيهه ، والأستاذ المحدث المحقق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني لملاحظاته القيمة وإشاراته النافعة .

أما أخي الأستاذ زهير الشاويش العالم المحقق المدقق – صاحب المكتب الاسلامي – فله مني خالص الشكر وعظيم الامتنان ، لما بذل من جهد صادق في دفع هذا الكتاب إلى المطبعة ، وفي إخراجه على هذه الصورة الأنيقة المتقنة .(١)

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، كما أرجوه سبحانه أن أكون قد وفقت فيما أردت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الرياض ١٧ شعبان ١٣٩٤ .
٣١ آب (أغسطس) ١٩٧٤ .

المؤلف

حسن عبد الحميد صالح

---

(١) كان بودي مراجعة أخي المؤلف لحذف هذه الفقرة غير أن انتقاله لرحمة الله حال بيني وبين ذلك . وعملا بالامانة العلمية أبقيتها والله أسأل ان يحسن مثوبته على حسن ظنه باخوانه .
الناشر

مَوضوعَات الكتاب

١ – أبو الطاهر السِّلفي ونشأته .

٢ – رحلاته العلمية .

٣ – الاسكندرية في القرن السادس الهجري .

٤ – « السِّلفي » في الاسكندرية .

٥ – أخلاقه ، مميزات شخصيته ، وعلاقاته الاجتماعية .

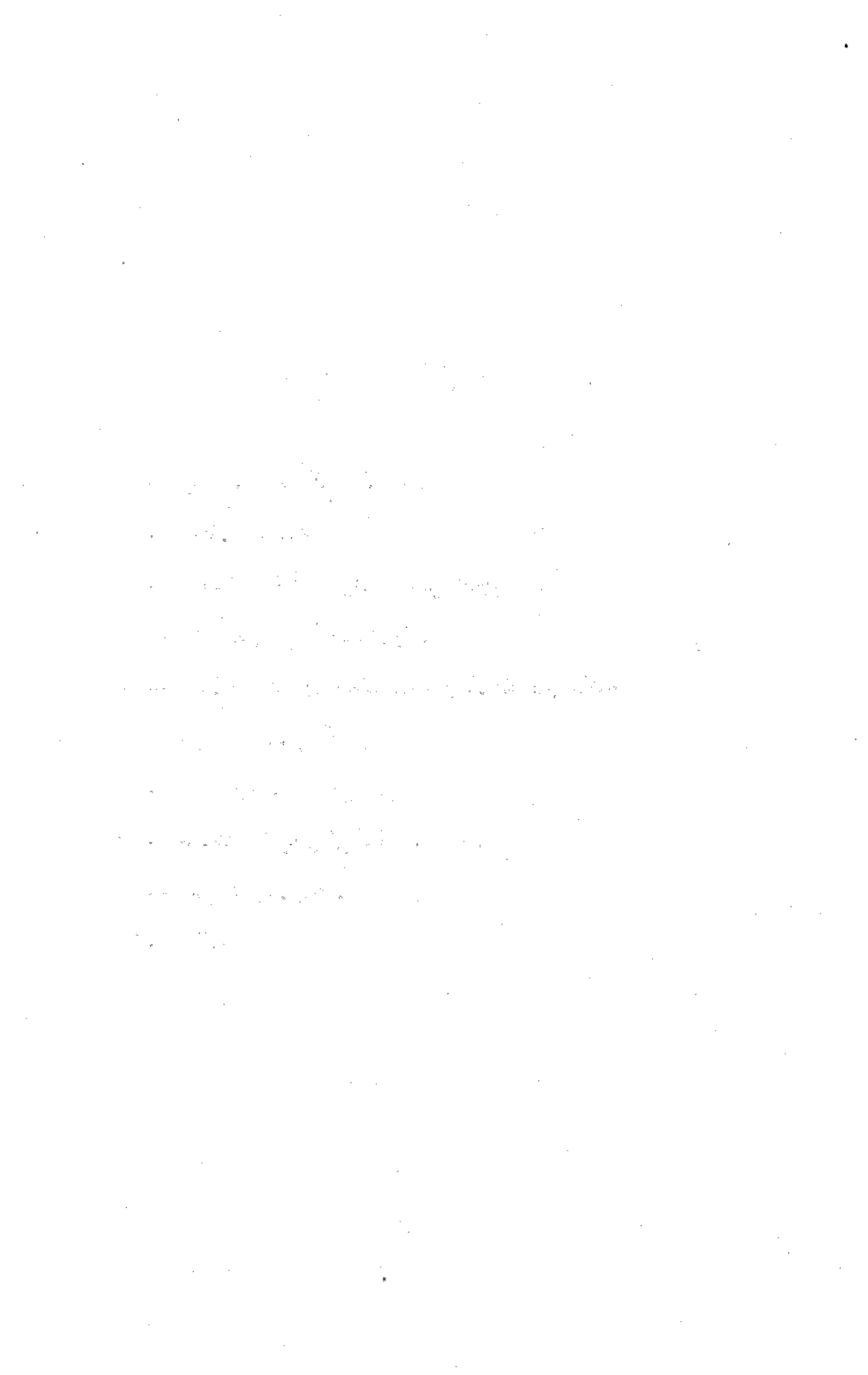
٦ – مواهبه الفكرية الأخرى .

٧ – كتبه وأعماله الأدبية .

٨ – مكانته العلمية وأقوال العلماء فيه .

٩ – شيوخه وتلاميذه .

١٠ – وفاته .



الفصْل الأوّل

الحافظ أبو الطاهر «السِّلفي» ونشأته :

١ – اسمه

٢ – تاريخ ميلاده

٣ – أسرتـــه

٤ – نشأته في بلده

١ — اسمه :

هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابراهيم السِّلفي الأصبهاني الجُرْوَاءاني [١] ، نسبة إلى محلة « جُرْوَاءان » التي كان يسكنها أهله بأصبهان .

ويعرف بالحافظ « السِّلفي » (بكسر السين وفتح اللام وكسر الفاء) نسبة إلى جد جده ابراهيم [٢] — على أرجح الأقوال [٣] — الذي كان يطلق عليه « سِلفَة » .

---

(١) هكذا ضبطها السمعاني في كتابه « الأنساب» (بضم الجيم وسكون الراء والألفين الممدودتين بعد الواو وفي آخرها نون) ، وقد تابعه على هذا الضبط الحافظ الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٩٨ ، واما السبكي في «طبقات الشافعية» : ٤ / ٤٣ فقد ضبطها « الجرواني » نسبة إلى « جروان » محلة بأصبهان ، وضبطها ابن العماد في « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٢٥ « الحرواني » نسبة إلى « حروان » ، وتابعه في ذلك عمر كحالة في كتابه « معجم المؤلفين » : ٢ / ٧٥ ، أما صلاح الدين المنجد فقد ضبطها في تحقيقه لكتاب « العبر » : ٤ / ٢٢٧ : « الجروآني » .

وهؤلاء جميعاً — عدا السمعاني والذهبي — قد حرفوا في ضبطها .

(٢) رجح هذا الرأي ابن خلكان « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢٥ ، وابن كثير « البداية والنهاية » : ١٢ / ٣٠٧ .

(٣) وذكر الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ / ١٢٩٨ ، وسبط ابن الجوزي في « مرآة الزمان » (٨ / ٣٦١) أن « السلفي » هو لقب جده « أحمد » . وأرجح ان تكون كلمة (جد) الثانية قد سقطت من ناسخي كتابيهما .

وقد اختُلف في أصل نسبة « سِلَفَة » فقيل : هي الغليظ الشفة [1] ، وقيل : هي لفظ أعجمي مُعَرَّب أصله « سي لِبَه » ومعناه في العربية ثلاث شفاه ، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية ، والأصل فيه « سِلَبَة » بالباء ، ثم أُبدلت الباء بالفاء [2] ، وقيل : هي نسبة إلى بطن من قبيلة حِمْيَر يقال لهم « بنو السِّلَفة » ، وهذا الرأي ـ الأخير ـ لم نجده إلا عند أصحاب المعاجم اللغوية فقط ، ذكروه أثناء حديثهم على مادة « سلف » [3] .

أما لقبه الذي يُصَدَّر به اسمه ، فقد ذكرت المصادر له لقبين مختلفين ، أحدهما « صدر الدين » وهو ما ذكره ابن خلكان وخليل الصَّفدي والمَقّري والشاعر ابن قلاقس [4] . وثانيهما « عماد الدين » وقد ذكره الحافظ الذهبي ، وتابعه في ذلك عبد الرحمن السيوطي [5] .

ويكنى « بأبي طاهر » ، وبعض المراجع تضيف « أل » التعريف إلى « طاهر » فتكتبها « أبا الطاهر » ، وهذه الكنية مجمع عليها ، إذ لم نجد له كنية سواها .

وقد اشتهر لقب صاحبنا « السِّلفي » (بكسر السين وفتح اللام) ، وأصبح علماً عليه وحده ، لا يشاركه في لفظه أحد من العلماء .

---

(١) انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٩٨ « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٢٥ .

(٢) انظر « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢٥ ، « شرح ديباجة البخاري » للكرماني : ١ / ١٠ ، « تاج العروس » مادة « سلف » ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥١ ، « طبقات الشافعية » (الأسنوي) مخطوط كامبردج الورقة ٩٩ آ ، «البداية والنهاية » أحداث ٥٧٦هـ .

(٣) انظر « تاج العروس » و « قاموس المحيط » .

(٤) انظر « وفيات الأعيان » : ١ / ٢١٩ ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٢هـ . ازهار الرياض » : ٣ / ١٦٧ ، « ديوان ابن قلاقس » القصيدة ٨٥ .

(٥) انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٩٨ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٢٠٠ .

٢ — تاريخ ميلاده :

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاده اختلافاً واضحاً ، وذلك لأن «السِّلفي» نفسه لم يكن يحرر عام مولده على وجه الدقة والتحديد ، وإنما كان يذكر — إذا سُئل — تاريخاً تقريبياً أو تخمينياً لا ينفي شكاً ولا يصل إلى يقين . وقد تأرجح هذا الاختلاف في حدود ثمان سنوات ، أي بين سنة ٤٧٠ هـ وبين سنة ٤٧٨ هـ .

وسوف أعرض هذه الاختلافات المتباينة كما سجلها أصحابها ، ثم أناقشها وأنقدها بعد ذلك ثم أرجح في النهاية الرأي الذي أرتضيه لكونه أكثر دقة وأقرب إلى المعقول .

١ — ذكر سبط ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان » أن السِّلفي «ولد سنة ٤٧٠ هـ » [١] ، ووافقه على هذا الرأي أبو المحاسن تغري بردي في كتابه « النجوم الزاهرة » [٢] .

٢ — وقال ابن خلكان في « وفيات الأعيان» : « وكانت ولادته سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة تقريباً بأصبهان» [٣] ، ثم أعقب ذلك بقوله : « ووجدت العلماء المحدِّثين بالديار المصرية — من جملتهم الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، محدث مصر في زمانه — يقولون في مولد الحافظ « السِّلفي » هذه المقالة » [٤] . وقد أخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين وكتاب التراجم منهم : الإسنوي في كتابه « طبقات

---

(١) انظر « مرآة الزمان » احداث ٥٧٦ هـ .

(٢) انظر « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٨٧ .

(٣) « وفيات الأعيان» : ١ / ٢٢٢ .

(٤) نفس المصدر : ١ / ٢٢٣ .

الشافعية »[1] ، وابن كثير في كتابه « البداية والنهاية »[2] ، والمحدِّث الأندلسي محمد بن عبدالرحمن بن علي التجيبي الذي عزا الحافظ الذهبي إليه أنه قال : « سمعت على (السِّلفي) ووجدت بخطه مقيداً : مولدي بأصبهان سنة ٤٧٢ هـ تخميناً لا يقيناً »[3] . والمقَّري في كتابه « أزهار الرياض » ، وقد عقَّب على ما قاله ابن خلكان بقوله : « ولا يخلو ما ذكره من بحث ، لأن السِّلفي قال : « أنا أذكر قتل نظام الملك وأنا في حدود العشر سنين » ، وبحث ابن خلكان يقتضي أنه ابن ست سنين ونحوها ، بل قد يقال : « إن قول (السِّلفي) في حدود عشر سنين لا ينافي قول الآخرين ، لما جرت العادة به بين العلماء من إلغاء الكسر الزائد »[4] .

ويبدو أن ابن خلكان لم يقتنع برأي المصريين المحدِّثين ، فراح يبحث في بطون الكتب لعله يجد رأياً آخر أكثر دقة وتحديداً ، وأخيراً وجد عبد الرحمن الصفراوي – أحد تلاميذ السِّلفي – يقول : « إن ميلاد (السِّلفي) كان في سنة ٤٧٨ هـ » ، فأمسك بهذا الرأي ومال اليه ، وأخذ يجمع له من الأدلة ما يقويه ويرجحه ، يقول : « ثم وجدت في كتاب « زَهْر الرياض المفصح عن المقاصد والأغراض » للشيخ جمال الدين أبي القاسم عبد الرحمن الصفراوي الإسكندري ، أن الحافظ « السِّلفي » المذكور – وهو شيخه – كان يقول : « مولدي – بالتخمين لا باليقين – سنة ثمان وسبعين وأربعمائة » ، فيكون مبلغ عمره على مقتضى ذلك ثمانياً

---

(١) مخطوط مكتبة كامبردج ، الورقة ٩٩ آ .

(٢) « البداية والنهاية » : ١٢ / ٣٠٧ .

(٣) أنظر « سير أعلام النبلاء » مخطوط المكتبة « الظاهرية » بدمشق المجلد ١٣ ، الورقة ٩ ب .

(٤) « أزهار الرياض » : ٣ / ١٧٠ .

وتسعين سنة »[1] . ثم يتابع أيضاً ويقول : « ورأيت في تاريخ الحافظ محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي ما يدل على صحة ما قاله الصفراوي ، فإنه قال : قال عبد الغني المقدسي : سألت الحافظ « السِّلفي » عن مولده فقال : « أنا أذكر قتل نظام الملك في سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان لي من العمر في حدود عشر سنين »[2] .

لم يكتف ابن خلكان بعرض ما وجده دون مناقشة أو تحليل ، وإنما أخذ يناقش وينقد ويبين الأسباب والأدلة التي اعتمد عليها في ترجيح رأي الصفراوي واستبعاد رأي المحدثين المصريين . قال : « ولو كان مولده على ما يقوله أهل مصر في سنة ٤٧٢ هـ ما كان يقول : (أذكر قتل نظام الملك في سنة ٤٨٥ هـ) ، فإنه على ما يقولون قد كان عمره ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، ولم تجر العادة أن من يكون في مثل هذه السن يقول : (أنا أذكر القضية الفلانية) ، وإنما يقول ذلك من يكون عمره تقديراً أربع أو خمس سنين أو ستاً . فقد ظهر بهذا أن قول الصفراوي أقرب إلى الصحة ، وهو تلميذه ، وقد سمع منه أنه قال : « مولدي في سنة ٤٧٨ هـ » ، وليس الصفراوي ممن يشك في قوله أو يرتاب في صحته ، مع أننا ما علمنا أن أحداً منذ ثلاثمائة سنة إلى الآن بلغ المائة فضلا عن أنه زاد عليها سوى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري ، فإنه عاش مائة سنة »[3] .

وقد أخذ بهذا الرأي من الكتاب المعاصرين الدكتور إحسان عباس في مقدمة كتابه « أخبار وتراجم أندلسية »[4] .

---

(١) « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢٣ . (٢) نفس المصدر : ١ / ٢٢٤

(٣) نفس المصدر : ١ / ٢٢٤ .

(٤) انظر المقدمة : ٦ .

٣ ــ أما الحافظ الذهبي فيقول : « ولد الحافظ أبو طاهر « السِّلفي » سنة خمس وسبعين أو قبلها بسنة ، وهذا مطابق لما رواه أبو الحسن محمد بن أحمد القطيعي في تاريخه ، حيث قال : « سمعت الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بعد عودته من عند « السِّلفي » يقول : « أنا أذكر قتل نظام الملك »[١] ــ يعني الوزير الذي وقف المدرسة النظامية ببغداد ــ وكان عمري نحو عشر سنوات ، وقد كتب عني بأصبهان أول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وأنا ابن سبع عشرة سنة أو أكثر أو أقل بقليل ، وما في وجهي شعرة ، كالبخاري ــ رحمه الله ــ يعني لما كتبوا عنه »[٢] .

وبعد أن قرر الحافظ الذهبي أن « السِّلفي » ولد في سنة ٤٧٥ هـ أو قبلها بسنة ، انتقل لمناقشة ابن خلكان فاستبعد رأيه الذي رجحه ــ وهو سنة ٤٧٨ هـ ــ كما استبعد أيضاً الرأي الذي أخذ به المحدثون المصريون ومن شايعهم فيه ، وهو سنة ٤٧٢ هـ : قال : « أرى أن القولين بعيدان ، وهما سنة اثنتين وسبعين ، وثمان وسبعين ، فانه حدّث في سنة اثنتين وتسعين في أولها ، وأنه كان ابن سبع عشرة أو أكثر أو أقل بقليل ، فلو كان مولده سنة ٤٧٢ هـ لكان ابن عشرين سنة تامة ، ولو كان على ما قاله الصفراوي لكان كتبوا عنه وهو ابن أربع عشرة ، وهذا بعيد جداً ، فتعين أن مولده على هذا يكون في سنة أربع أو خمس وسبعين ، وأنه جاوز المائة بلا تردد »[٣] .

---

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي الوزير السلجوقي ، كان من جلة الوزراء المهتمين بالحديث ، والعلماء والقراء ، أنشأ عدة مدارس عرفت كلها « بالنظامية » نسبة اليه ، وكان أهمها نظامية بغداد . قتله شاب من الباطنية سنة ٤٨٥ هـ . انظر ترجمته في : « العبر » : ٣ / ٣٠٧ ، « الكامل في التاريخ » ١٠ / ٧٠ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٣٧٣ وغيرها .

(٢) أنظر « سير أعلام النبلاء » (مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق) المجلد ١٣ ، الورقة ٢ آ .

(٣) نفس المصدر : الورقة ٩ ب .

وقد أخذ برأي الذهبي ، هذا الشيخ «السبكي» صاحب كتاب « طبقات الشافعية » فذكر في ترجمته للحافظ « السِّلفي » هذه العبارة : « قيل مولده سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة تخميناً لا يقيناً ، وقيل سنة خمس وسبعين ، وقيل سنة ثمان وسبعين وهو قول ساقط ، فإن « السِّلفي » جاوز المائة بلا ريب »[1] .

وقد نقل الدكتور جمال الدين الشيّال — حديثاً — هذا التاريخ عن السبكي دون مناقشة أو ابداء وجهة نظر[2] .

هذه هي مجمل الآراء التي قيلت حول تاريخ ميلاد الحافظ « السِّلفي » ، وهي آراء متباينة تحتاج إلى وقفة تأمل ونقد . ولكي يكون لي منها موقف محدد واضح أرى لزاماً علي أن أناقشها وأقابل بعضها ببعض لأخلص من بينها إلى ترجيح تاريخ يكون معقولا وقريباً من الصواب .

إن الرأي الذي يقول بمولد « السِّلفي » في سنة ٤٧٠ هـ رأي مستبعد لأنه بعيد عن المعقول ، إذ لو أخذ به لكان عمر الحافظ « السِّلفي » حين كتبوا عنه الحديث في بلده أصبهان سنة ٤٩٢ هـ حوالي اثنتين وعشرين عاماً . وهذا يناقض ما ذكره « السِّلفي » عن نفسه من أنه كان حينذاك شاباً عمره سبعة عشر عاماً ، لم يكن قد نبت الشعر في وجهه تماماً كما كان عمر الإمام البخاري حين كتبوا عنه . ولو أخذنا بهذا التاريخ أيضاً لكان

---

(١) انظر « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٣ .

(٢) انظر « اعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي » : ١٣٢ . لم يشر الدكتور الشيال صراحة أنه اعتمد على ما ذكره «السبكي» ، وإنما نقل أدلته ونسبها إلى نفسه ، ولم يدر أن « السبكي » نقل أدلته عن شيخه الحافظ الذهبي . ويبدو أن الدكتور الشيال لم يطلع على مخطوط « سير اعلام النبلاء » .

عمر الحافظ « السِّلفي » حين قتل الوزير نظام الملك خمسة عشر عاماً ، وهذا لا يتفق مع ما قاله « السِّلفي » أيضاً عن نفسه : « أذكر قتل نظام الملك وكان عمري في حدود عشر سنين » .

وأما الرأي القائل بأن ميلاد « السِّلفي » كان في سنة ٤٧٢ هـ فإنه كذلك رأي لا نرجحه ولا نأخذ به كما لم يأخذ به الذهبي وابن خلكان ومن جاء بعدهما . ذلك أننا لو أخذنا به لتعارض ذلك أولا مع ما قاله « السلفي » عن عمره حين قتل الوزير نظام الملك في سنة ٤٨٥هـ ، لأن عمره سيكون حين رووا عنه الحديث سنة ٤٩٢ هـ حوالي عشرين عاماً وليس سبعة عشر عاماً كما ذكر هو عن نفسه .

وأما الرأي الذي أخذ به ابن خلكان وهو عام ٤٧٨ هـ ، فهو أيضاً رأي لا نرجحه لأن عمر « السِّلفي » عند وفاته سيكون ٩٨ عاماً ، وهذا يتناقض مع آراء « السبكي » وشيخه الحافظ الذهبي ، وأيضاً مع السيوطي [1] ، أولئك الذين يجزمون بأن « السِّلفي » قد جاوز المائة بلا ريب ولا تردد .

وقد ناقش الحافظ « الذهبي » ما ذكره ابن خلكان من حجج — ورد على ما قاله من أنه « لا يعلم — من ثلاثمائة سنة — شخصاً بلغ المائة — فضلا عن أنه زاد عليها — سوى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري » ، بأنه — أي الحافظ الذهبي — ألف جزءاً كبيراً فيمن جاوز المائة من المشايخ[2] ولست أظن أن ابن خلكان كان مصيباً حين اعتمد على ما أورده عبد الرحمن الصفراوي حيث قال : « والصفراوي تلميذه ، وليس ممن يشك في قوله أو يرتاب في صحته » لأن عمر « السِّلفي » سيكون عام ٤٩٢ هـ وهو العام

(١) انظر « تدريب الراوي » : ٢ / ١٢٨ .

(٢) أنظر « سير أعلام النبلاء » (مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق) المجلد ١٣ ، الورقة ١٧—١٨ .

الذي جلس فيه مجالس المحدثين وكتب الناس عنه الحديث ، أربعة عشر عاماً ، وهو أمر غير مألوف عند رجال الحديث .

وأما الرأي الذي ارتآه « الذهبي » وتابعه فيه تلميذه « السبكي » وهو عام ٤٧٥ هـ فهو عندي أقرب الآراء إلى الحقيقة ، وذلك لأن عمر الحافظ « السِّلفي » — بناء عليه — سيكون يوم قتل نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ عشرة أعوام ، وهذا يتفق مع عبارة « السِّلفي » : « أنا أذكر قتل نظام الملك ... وكان عمري نحو عشر سنين » ، وسيكون عمره أيضاً حين كتبوا عنه الحديث سبعة عشر عاماً ، وهذا مطابق لقوله : « وقد كتبوا عني في أول سنة اثنتين وتسعين وأنا ابن سبع عشرة سنة أو أقل أو أكثر » . وسيكون عمره أيضاً عند وفاته سنة ٥٧٦ هـ قد جاوز المائة عام ، وهو ما يجزم به عدد من المؤرخين وكتاب التراجم .

لهذا سأعتمد عام ٤٧٥ هـ تاريخاً لميلاد الحافظ « السِّلفي » لأنه يبدو لي معقولا وأقرب الآراء إلى الصواب ، والله أعلم .

* * *

٣ — أسرته :

لم يذكر « السِّلفي » ولا المصادر التي أرخت لحياته شيئاً عن طفولته الأولى ، ولا عن حال أسرته الاجتماعي أو المالي ، ولذلك لا نعرف هل كان « أحمد » وحيد والديه أم كان له إخوة وأخوات ، وهل كان يتيماً محروماً من حنان الأم وعطفها أم أنه ترعرع في حجر أمومة رحيمة حانية فنال منها ما ينال الصبية من عطف وحب وحنان . بل أكثر من هذا أننا لا نكاد نتحقق إن كان ينتمي إلى أسرة كبيرة ذات مجد وتاريخ وثراء

أو أنه ينحدر من أسرة صغيرة فقيرة لا حظَّ لها من علم أو جاه، هذا فضلاً عن أن المعلومات التي بين أيدينا لا تشير من قريب أو بعيد إن كان أبوه « محمد » صاحب حرفة أو مهنة أو وظيفة أو لا .

إن كل ما استطعنا معرفته من إشارات بسيطة أوردها « السِّلفي » في كتبه أنه نشأ حياته الأولى في بيت إسلامي « سني » متدين ، يغلب عليه الطابع الصوفي . فجده « أحمد » كان رجلا صوفياً ، صحب الشيخ الصوفي عبد الواحد بن عمر المديني ، وكان أيضاً مريداً لأبي هاشم السيد الزاهد شيخ الصوفية في زمنه . وقد ذكر « السِّلفي » هذه الظاهرة فقال : « وكان (أبو عمر المديني) يحبني لمكانة أبي ولصحبته بجدي ، إذ كان جدي أيضاً مريداً لأبي هاشم السيد الزاهد »[1] . وأما والده « محمد » فقد كان أيضاً رجلا صوفياً ذا حظوة وتقدير عند رجال الصوفية ، فهو قد صحبهم وخالطهم وتأثر بهم ، وكان يخرج للطواف بالبلدان وينزل « الرُّبُط » على طريقتهم آنذاك ، وكان رفيقاً لآخي الزنجاني ، وقد ذكر « السِّلفي » رفقة والده لآخي فقال : « وآخي الزنجاني من رفقاء والدي ، ولما رآني بكى والتفت إلى الجماعة وقال : هو ابن أخي رحم الله والده »[2] . وكان والده أيضاً من أصحاب الشيخ الصوفي جعفر الأبهري أحد أجلاء شيوخ قهستان ، ونزل في رباطه قديماً[3] . وقد سجل « السِّلفي » لوالده في كتابه « معجم السفر » عبارة تشبه إلى حد كبير كلام الصوفية في الحب والبغض ، فهو عندما نقل عبارة أبي الفتح نصر المقدسي الفقيه بمدينة صور قوله : كم من إنسان هو معي وكأنه في أقصى بلد بالمشرق ، وآخر هو

---

(١) « معجم السفر » (مخطوط بيتي) : الورقة ٨٧ آ .

(٢) نفس المصدر : ١٥٧ آ .

(٣) « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » (مخطوط) : الورقة ١٨ آ .

هناك وكأنه معي » ، علق عليها بقوله : « وقد كنت اسمع ابي باصبهان يقول مثل هذا الكلام ، ونص قوله : « كم من إنسان بأقصى الأرض وكأنه قاعد معي على سجادتي ، وآخر قاعد عندي وبيننا بعد المشرقين »[1].

ويبدو أن والده لم يكن صوفياً سلبياً بمعنى أنه كان يحصر نفسه في زاوية من زوايا الصوفية دون أن يخالط أصحاب العلوم الدينية الأخرى ، بل وجدنا في كتابات « السِّلفي » ما يشير إلى أنه كان يخالط رجال الحديث ويرحل إليهم للسماع منهم ، فهو قد استمع إلى المحدث البغدادي المشهور أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة النعالي[2] ، وأنه كان كثيراً ما يستمع إلى ابنه « السِّلفي » وهو يقرأ عليه بعض تخريجاته التي كان يخرجها لبعض المحدثين .

وعندما شب صاحبنا « السِّلفي » ورحل إلى بغداد طلباً في لقاء المحدثين فيها — حيث كانت آنذاك بلد العلم والعلماء — ومكث فيها قرابة أربع سنوات ، تشوق إليه والده ، فتوجه لزيارته والاطمئنان عليه ، وكان ذلك في سنة ٤٩٧ هـ . وفي تلك الزيارة اطمأن الوالد على حسن سير ولده ، وسر لما رأى من توفيقه واجتهاده وإقباله على حلقات الدرس والتحصيل برغبة صادقة وعزيمة قوية .

ولكن تلك الزيارة لم تطل كثيراً ، إذ ما كادت أيام الحج تقترب حتى توجه الوالد وولده إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ، وبعد أداء الفريضة عاد الوالد إلى بلده أصبهان ، وعاد الولد متوجهاً إلى الكوفة ، ثم إلى بغداد ،

---

(١) « معجم السفر » (مخطوط بيتي) : ٢٧ آ .
(٢) أنظر « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » (مخطوط) : ٦ آ .

وبعد ذلك الفراق لم نعرف عن والده شيئاً إذ لم يرد عنه في كتب «السِّلفي» أو غيره أي خبر أو إشارة.

وبعد أن فارق «السِّلفي» أباه في الحجاز مدة تقارب أربعة عشر عاماً، استقر به المقام في مدينة الإسكندرية فمكث فيها معززاً مكرماً من أهلها، حتى إذا ما تقدمت به سنه، وتجاوزت به مرحلة الكهولة، وانحدرت به إلى منعطفات الشيخوخة[1] تزوج امرأة اسكندرانية، وصفها ابن عساكر[2] بأنها كانت امرأة غنية فأطلقت يده في مالها فحصلت له ثروة بعد فقر وتصوف. وقد ذكر «السِّلفي» في كتابه «معجم السفر» أن زوجته هذه كانت تدعى «ست الأهل» وأنها كانت امرأة صالحة تقية كأبيها، وأن أخاها «عيسى» هو الذي تولى تزويجها له بعد وفاة أبيه. قال أثناء ترجمته لترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازي: «... وكانت امرأة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الخولاني، الذي تزوجت — أنا — بعد موته بابنته «ست الأهل» المرأة الصالحة الدينة»[3]. وقال في مكان آخر أثناء ترجمته لأبي الميمون همّام بن أحمد بن بربري الأزدي: «... أبو عبد الله هذا الذي ذكره لي همام لم أره، وتزوجت بابنته بعد موته، وماتت وهي في عصمتي — رحمها الله — وكانت كأبيها من الصالحات وبيتهم بيت جليل..

(١) قال الحافظ «الذهبي»: تزوج وقد أسن بعد سنة خمسين وخمسمائة. أنظر «سير أعلام النبلاء» (مخطوط مكتبة الظاهرية) المجلد ١٣، الورقة ١٠ — وهذا قول يبدو لي أنه مبالغ فيه، والأرجح أنه تزوج في حدود سنة ٥٣٤ هـ أو بعدها بقليل، لأن السلفي يقول في ترجمته لترفه: «قرأنا عليها سنة أربع وثلاثين. وتوفيت بعدها بمدة قريبة — رحمها الله —. وكانت إمرأة أبي عبدالله الخولاني الذي تزوجت أنا بعد موته بابنته (ست الأهل) المرأة الصالحة».

(٢) أنظر «تهذيب تاريخ ابن عساكر»: ١ / ٤٤٩، وانظر أيضاً «البداية والنهاية»: ١٢ / ٣٠٧.

(٣) «معجم السفر» (مخطوط بيتي): ١٠ آ.

وتولى تزويجها لي أخوها أبو البركات عيسى »[1] .

وقد رزق « السِّلفي» من زوجته « ست الأهل » بمولودة وحيدة أسمياها « خديجة »[2] شاء الله لها أن تكبر وأن تكون محدثة يستجيزها المحدثون ، وقد حصل على إجازة منها المحدث المشهور عبد العظيم المنذري ، وكانت وفاتها سنة خمسمائة وثمان وتسعين[3] وهي أم جمال الدين عبد الرحمن بن مكي بن عبد الرحمن الطرابلسي الإسكندراني المحدث الذي انتهى اليه علو الإسناد في الديار المصرية والمتوفى سنة ٦٥١ هـ[4] والذي عرف بسبط « السِّلفي » اعتزازاً منه وافتخاراً بالنسبة لجده .

٤ ـ نشأته وتعليمه في أصبهان :

ولد « السِّلفي » في محلة باب القصر[5] بمدينة أصبهان التي كانت يومئذ عاصمة ملك السلطان السلجوقي ملك شاه . وأصبهان (بكسر الهمزة وهي بالفتح أشهر كما يقول ياقوت الحموي) مدينة قديمة عظيمة ذات تاريخ وأحداث ، ولها شهرة واسعة في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف ، لما كان لها من صلات قديمة بالحياة العربية الإسلامية منذ فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ويذكر ياقوت الحموي[6] أنها كانت تتكون من بلدتين هما : (جيّ)

---

(١) نفس المصدر : ٢٢٣ آ . (٢) « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » : ٢ / ٧٣٨ .

(٣) أنظر « تكملة وفيات النقلة » الترجمة ٦٨٤ (تحقيق بشار معروف) .

(٤) أنظر « حسن المحاضرة » : ١ / ٢١٤ ، « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » صفة ٦٥١ ، « العبر » : ٥ / ٢٠٨ « النجوم الزاهرة » : ٧ / ٣١ .

(٥) أنظر « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » : ٥ آ .

(٦) « معجم البلدان » : ١ / ٢٦٩ .

و (اليهودية) نسبة إلى أسرى اليهود الذين نقلهم إليها القائد الفارسي نبوخذنصر ، ثم اتصلت البلدتان وأصبحتا مدينة أطلق عليها أصبهان ، التي اشتق معناها من كلمتين (أصبه) ومعناها البلد ، و (هان) ومعناها الفرَس فهي إذن بلد الفرسان الشجعان .

وتقع هذه المدينة إلى الجنوب من بلاد إيران (فارس) ، وتتمتع بهواء طيب يغلب عليه الجفاف ، وتربتها صالحة للزراعة ، يستقي أهلها من الآبار الارتوازية وبعض العيون النابعة من الجبال القريبة منها . وكان أهلها يعملون في الزراعة والتجارة وبعض الصناعات اليدوية البسيطة . وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، وجه إليها أمير الكوفة أبو موسى الأشعري جيشاً بقيادة عبد الله بن بديل بن الأحنف بن قيس سنة ١٩ هـ وقيل سنة ٢٣ هـ ففتحها واستقرت بها بعض القبائل والأسر العربية التي تنتسب إلى ثقيف وخزاعة وبني عبد القيس وبني حنيفة ، كما انتقلت إليها بعد ذلك بعض البطون والأفخاذ العربية التي كانت تسكن الكوفة والبصرة . ومنذ ذلك الحين أصبح سكان المدينة خليطاً من الفرس الأعاجم — وهم الكثرة الغالبة — ومن بقايا اليهود المنفيين ومن العرب المسلمين .

وبعد أن استقر الإسلام في أصبهان أخذ المسلمون — وكلهم من أهل السنة والجماعة — يقبلون على حفظ القرآن الكريم وتفسيره ودراسة الحديث الشريف وعلومه ، وتعلم اللغة العربية وآدابها حتى أصبح جامعها — كما يقول المقدسي — أعمر بالجماعة من أي جامع آخر في سائر الأمصار بعد جامع مصر .

وقد شهدت أصبهان في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري — وهي

الفترة التي كان فيها « السِّلفي » ــ أحداثاً سياسية خطيرة ، وفتناً وقلاقل ومجازر رهيبة كانت تثيرها تلك الطوائف الإسلامية الكثيرة ضد بعضها باسم الدين ، فتزهق فيها أرواح كثير من العلماء الأبرياء . ومن بين تلك الطوائف : أهل السنة المعتدلون ، والمشبهة ، والمعتزلة ، والشيعة ، وفرق الباطنية الذين قتلوا نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ ، ودعاة للخلافة العباسية في بغداد ، وآخرون دعاة للفاطميين في مصر ، ودعاة للاسماعيلية النزارية .

ولعل خير وصف لتلك الطوائف ما ورد على لسان عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة آنذاك حين دخل على نظام الملك في مجلسه وكان حوله بعض العلماء فقال له : « أيها الصدر قد اجتمع عندك اليوم رؤوس أهل النار . فقال له نظام الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال : أنا معتزلي ، وهذا مشبه ، وذاك أشعري ، وبعضنا يكفر بعضاً . فضحك الوزير » .

وقد بلغ أمر الخصومات بين تلك الطوائف حداً لا مصالحة عنده « فكانت كلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إلّ ولا ذمة » [1] .

ولكن وعلى الرغم من تلك الفتن والقلاقل ، والأحداث السياسية المتقلبة فقد كانت أصبهان مركز صراع فكري خصب ، فقد ظهر فيها العلماء الأعلام ، ونسب إليها من المشهورين والنابهين أعداد غفيرة قل أن ينسب مثلهم إلى مدينة أخرى ، كلهم عرف بالأصبهاني ، « وخرج منها من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن » [2] . ولقد حظيت في فترة حكم السلاطين السلاجقة العظام (٤٢٩ هـ ـــ ٥٥٢ هـ) بعناية كبيرة

---

(١) « معجم البلدان » : ١ / ٢٧٠ .
(٢) نفس المصدر : ١ / ٢٦٩ .

وخاصة في زمن السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) ، حيث كانت المكان المفضل لإقامته ، فاتخذها مقراً لمملكته ، وزينها بالحدائق الواسعة والبنايات الجميلة »[١] ، ولم يبخل بمال أو جهد في رفع شأنها ونشر سمعتها في العالم الإسلامي آنذاك ، فشجع العلماء على القدوم إليها ، وأكرمهم بالعطاء والتقدير ، وحثهم على العلم ونشر الحضارة ، وأطلق لوزيره نظام الملك يد التصرف في بناء المدارس فيها وفي غيرها من مدن مملكته فبنى منها العديد. ولعل السلطان ملكشاه كان يريد لها أن تنافس في سمعتها وجمالها مدينة بغداد مركز الخلافة العباسية الضعيفة وقتذاك ، وان تبز مدينة القاهرة مركز الخلافة الفاطمية الشيعية التي أنهكتها الفتن والمؤامرات ، وأضعف مركزها ما تتالى عليها من الحروب التي قام بها بعض الوزراء ضد الخلفاء ، أو التي شنها الوزراء على بعضهم من أجل السلطة وبسط النفوذ .

وقد أشار إلى مكانة تلك النهضة العلمية الكبيرة التي كانت تتمتع بها مدينة أصبهان آنذاك الدكتور حسن إبراهيم في كتابه « تاريخ الإسلام السياسي » فقال : « ... وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقي وجه همته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه ، فانه شجع العلم ونشر الحضارة ... كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك »[٢] .

وكانت دراسة الحديث وعلومه وما يتبعهما من فروع في مقدمة الموضوعات التي كان يعنى بها أهل أصبهان في تلك الفترة ، حيث كان لهم عناية وافرة

---

(١) Browne : Literary History of Persia : II, P. 184.

(٢) أنظر « تاريخ الإسلام السياسي » : ٤ / ٢٧ .

لسماعه ، فكثر بها الحفاظ والمحدثون كثرة بالغة ، أشار إليها ياقوت الحموي فقال : « وبها من الحفاظ خلق لا يحصون »[1] . وذاعت شهرة أصبهان وعنايتها بدراسة الحديث في العالم الإسلامي آنذاك فيمّم شطرها طلاب الحديث ورحلوا إليها من كل فج عميق ، ليستمعوا إلى أولئك الحفاظ المعمرين وليرووا عنهم ، إما لعلو إسنادهم ، وإما لسعة علمهم وعلو مكانتهم.

ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن أهم أسباب ازدهار النهضة في علم الحديث بالذات — فضلا عن عناية أهل أصبهان « السنيين » بهذا النوع من الدراسة ، وفضلا عن الدوافع السياسية التي تكمن وراء بناء المدارس النظامية ، يرجع إلى رعاية وإشراف الوزير نظام الملك نفسه ، فقد كان رجلا عالماً له مجلس عامر يؤمه العلماء والفقهاء ، وأئمة العلوم الإسلامية ، وكان محدثاً يحب الحديث ويرويه ، وقد أثر عنه عند زيارته لبغداد بصحبة السلطان ملكشاه سنة ٤٧٩ هـ (١١٨٧ م) أنه زار المدرسة « النظامية » ، وجلس في خزانة كتبها ، وطالع بعض الكتب ، ثم توجه بعد ذلك إلى الطلاب فألقى عليهم درساً في الحديث ، وأملى عليهم جزءاً آخر »[2] .

في هذه البيئة العلمية الدينية الواضحة ، وفي رحاب تلك الأسرة السنية المتدينة التي مر ذكرها ، نشأ الحافظ « السِّلفي » وتلقى علومه الأولى ، حيث عهد به أبوه إلى أحد الشيوخ في البلدة ليعلمه كما يعلم أترابه آنذاك ، فلما قارب الثالثة عشر من عمره ، اتجه لدراسة الحديث والاستماع إلى علمائه ، وربما كان ذلك بتوجيه من والده الرجل الذي وصفناه بالتدين قبل قليل . وكان أول مجلس حديث يحضره على الشيوخ الكبار هو مجلس

---

(١) « معجم البلدان » : ١ / ٢٦٩ .

(٢) أنظر « الكامل » لابن الأثير : ١٠ / ٥٤ ، « تاريخ الإسلام السياسي » : ٤ /٥٢٨

أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الفقيه الحنبلي [1] رسول الخليفة العباسي المستظهر بالله أحمد (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) إلى السلطان السلجوقي بركيا روق بن ملكشاه (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) ، وقد سجل « الحافظ السلفي » في بعض كتبه حضوره ذاك المجلس فقال : « قدم أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي — شيخ الحنابلة ورئيسهم — أصبهان ، رسولا من قبل الخليفة إلى السلطان — وأنا إذ ذاك صغير — وشاهدته يوم دخوله إلى البلد ووصوله ، وكان يوماً مشهوداً كالعيد بل أبلغ في المزيد ، وأنزل « بباب القصر » — محلتنا — في دار السلطان ، وحضرت في الجامع « الجورجيري » — الذي بالقرب من « باب القصر » — محلتنا — مجلسه بنفسي ، لا بمحضر من الكبار بل متفرجاً كعادة الصغار » [2] .

أما أول من سمع « السِّلفي » منه الحديث ، وكتب عنه ، فهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن المديني [3] وقيل هو الرئيس أبو عبد الله القاسم بن المفضل الثقفي وكان ذلك في سنة ٤٨٨ هـ [4] . ثم أخذ بعد ذلك يتنقل بين حلقات الشيوخ والحفاظ بهمة ونشاط ، ورغبة تامة وإقبال شديد ، فسمع كثيراً من الرئيس أبي عبد الله القاسم بن المفضل الثقفي مسند أصبهان آنذاك ، ومن شيوخ الحديث فيها آنذاك أمثال : عبد الرحمن بن محمد بن

---

(١) كان شيخ الحنابلة في بغداد ، وكان فقيهاً عارفاً بعلوم كثيرة ، ومقرباً من الخلفاء والسلاطين السلاجقة . توفي سنة ٤٨٨ هـ وهي نفس السنة التي وفد فيها من الخليفة المستظهر بالله على السلطان بركياروق في اصفهان ، انظر ترجمته : « العبر » : ٣ / ٣٢٠ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٣٨٤ .

(٢) « كتاب الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » : الورقة ٥ ب . وقد أورد هذه العبارة الحافظ الذهبي في كتابه : « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٢ ب .

(٣) « سير أعلام النبلاء » المجلد ١٣ : الورقة ٢ ب .

(٤) أنظر « طبقات الشافعية » للسبكي : ٤ / ٤٣ . و « المعجم » لابن الأبار : ٥٠ .

يوسف السمسار [1] ، وسعيد بن محمد الجوهري [2] ومكي بن منصور الكرجي السلار [3] . وأبي مطيع الصحاف [4] وأبي العباس بن أشته [5] ، واسماعيل بن علي السيلفي [6] ، والحافظ احمد بن محمد مردويه [7] ، والحافظ أحمد بن محمد بن بشرويه [8] وخلائق كثيرين غيرهم . كما سمع أيضاً عدد من النساء وروى عنهن [9] ، وقرأ القرآن الكريم على عدد من المشهورين في علم القراءات أمثال : أبي سعيد نصر بن محمد الشيرازي ، وأبي سعد محمد بن محمد المطرز ، وأبي القاسم عبد الله بن أحمد بن بليزة الحرقي وغيرهم ، واستمر « السلفي » في قراءة القرآن الكريم ودراسة الحديث وسماعه وروايته عن الشيوخ الكثيرين في بلده أصبهان بعزيمة قوية ونفسية مقبلة متفتحة لطلب المزيد حتى تمكن في خلال سنتين من أن يكتب الأجزاء ، وأن يقرأ بالروايات [10].

ولما أنهى السنة الرابعة من دراسته للحديث تقريباً — وكان قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً — آنس من نفسه القدرة على تدريس الحديث وروايته، فاتخذ لنفسه في سنة ٤٩٢ هـ مجلساً في أحد المساجد ، وأخذ يحدث الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما يحدث غيره . وقد ذكر الحافظ الذهبي وغيره أن « السلفي » ذكر بنفسه تاريخ ابتداء جلوسه للتحديث فقال معتزاً ومفتخراً : « وقد كتبوا عني بأصبهان في أول سنة ٤٩٢ هـ ، وأنا ابن سبع عشرة أو نحوها ، ليس في وجهي شعرة كالبخاري حين كتبوا عنه » [11] .

(١ — ٨) انظر التعريف بهؤلاء الشيوخ في فصل « شيوخه » .
(٩— ١٠) انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ الورقة ٣ آ .
(١١) « تذكرة الحفاظ » ٤ — ١٢٩٨ ، « طبقات الشافعية » للسبكي ٤ — ٤٣ .

ولكن « السِّلفي » ــ رحمه الله ــ لم يكتف بما عرف من الحديث على أيدي علماء بلده ، ولم يقنع بأن أصبح محدثاً يستمع الناس اليه ، وإنما أخذت نفسه تتطلع إلى المزيد والتعمق في دراسة هذا العلم ، الذي أصبح يجد في دراسته كل راحة ومتعة ، وراح يتمنى لو تتاح له فرصة السفر ولقاء أساتذة هذا العلم وشيوخه الكبار في العالم الإسلامي كله . ولكن أنى له ذلك والأمر يحتاج إلى سفر طويل ورحلة شاقة ، وهو لا يزال فتى غض الإهاب ، قد لا يقوى على مشقة السفر وتحمل تبعاته ! ولكن نفسه الطموحة ، وعزيمته القوية أقنعتاه أنه لا بد من الرحلة لأنها الوسيلة الوحيدة للقاء الشيوخ الكبار أصحاب العلو في الإسناد ، ولقناعته بأن طالب الحديث لا يمكن أن يبلغ مبلغ العلماء المحدثين المشهورين إلا إذا سار على نهجهم في هذا الميدان ، فسافر وطاف بالبلاد والتقى بالعلماء واستمع إليهم ، ونقل عنهم ، وحصل على إجازات منهم لرواية مسموعاتهم وكتبهم .

إن الرحلة في طلب الحديث كانت أشبه بتقليد متبع عند مشاهير المحدثين ، فرواة الحديث لم يكونوا يقنعون بأخذ العلم عن أهل بلدهم . ولا بأخذه من إقليم أو من مدينة معينة سواء أ كانت بعيدة عن مصرهم أم قريبة منه ، اعتقاداً منهم كما يقول ابن خلدون من أن « حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً » [1] . وحتى بعد أن جمعت الأحاديث وصنفت فيها الكتب لم تغن عن الرحلة ، بل وجدنا طلاب الحديث يتوقون إلى الرحلة ويتشوقون إليها ، ويعتبرون أن تصنيف

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » : ٥٤١ .

الكتب إنما وضع لتيسير التحصيل ، يكتفي به المتساهلون وأصحاب الهمم العاجزة . يقول الدكتور صبحي الصالح : « وحتى بعد أن صنفت كتب الحديث لم تغن عن الرحلة في طلب الحديث ، فلقد كانت الكتب لتيسير التحصيل على المتساهل ، أما الذي كان يلتمس شرف العلم وكرامته فلم يكن ليرضى بما يقرأه في الكتب ، بل ظل أشهى أمانيه الرحلة في طلب الحديث »[1] .

عزم « السلفي » على الرحلة بعد أن استشار أباه وشيوخه فوافقوه ، ولكن قبل أن يبدأ رحلته ، رأى من واجبه أن يضع تاريخاً لشيوخ بلده أصبهان ، جرياً على عادة العلماء الذين يؤرخون لشيوخهم ، فصنف معجماً حافلا ذكر فيه كل من تتلمذ عليه ، أو روى عنه ، أو قرأ عليه من شيوخ وشيخات بلده أصبهان ، أسماه « معجم أصبهان » ، وهو معجم كبير ، قيل إنه حوى بين دفتيه أزيد من ستمائة شيخ »[2] .

***

(١) « علوم الحديث ومصطلحه » : ٦٢ .

(٢) انظر « تذكرة الحفاظ» ٤ / ١٢٩٩ « طبقات الشافعية » للسبكي ٤/٤٣ « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ٢٣٧ ، « الوافي بالوفيات » ٧ / ٣٥٢ ، « معجم المؤلفين » لكحالة ٢ / ٧٥ .

الفصل الثاني

رحلاتـــه العلمية :

١ ـ رحلته إلى بغداد
٢ ـ رحلته إلى الحجاز
٣ ـ زيارته إلى الكوفة
٤ ـ رحلته إلى البصرة
٥ ـ رحلته إلى الشرق الإسلامي
٦ ـ رحلته إلى دمشق
٧ ـ رحلته إلى الاسكندرية
٨ ـ رحلته إلى القاهرة .

١ – رحلته إلى بغداد

في رمضان المبارك سنة ٤٩٣ هـ ابتدأ « السِّلفي » رحلته في طلب الحديث ، فتوجه أول ما توجه إلى « بغداد » حاضرة الخلافة العباسية ومركز العلم والعلماء آنذاك ، فوصلها بعد شهر ، أي في شوال من نفس السنة [١] .
ويبدو أن رحلته تلك كانت بداية صعبة على نفسه ، فقد مرض أثناء السفر وظهرت في إلْيَته دمامل مؤلمة جعلته لا يستطيع أن يعتدل في جلسته متربعاً على الأرض ، ولايقدر أن يستوي راكباً على الدابة . ولكن تلك الدمامل المبرحة ، وما صاحبها من آلام شديدة لم تقعده عن طلب الحديث الذي رحل من أجله ، إذ ما كادت تطأ قدماه ، مدينة بغداد حتى توجه من فوره إلى مقابلة الشيخ أبي الخطاب نصر بن البَطِر [٢] مسند المدينة وشيخها المسن ، الذي كان يرحل إليه طلاب الحديث من أماكن بعيدة لعلو إسناده . فأدركه وأطلعه على رغبته في السماع منه ، والقراءة عليه ، فأذن له ابن البطر أن يقرأ فقرأ عليه في ذلك اللقاء سبعة عشر حديثاً ، ثم تردد عليه بعد ذلك وقرأ عليه نحو خمسة وعشرين جزءاً حديثياً . وقد سجل « السِّلفي » ذاك اللقاء الأول بينه وبين ابن البطر ، ووصفه بأنه كان مقابلة سيئة مهينة

---

(١) انظر كتاب « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » : الورقة ٦ ب . وقد ذكر سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان : ٨ / ٣٦١) أن « السلفي » وصل بغداد سنة ٥٠٠ هـ ، وهذا خطأ واضح .

(٢) هو أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر ، مسند بغداد وشيخ رواة الحديث فيها . كانت إليه الرحلة لعلو إسناده ، ولد سنة ٣٩٨ هـ ، وتوفي سنة ٤٩٤ هـ .
انظر ترجمته في : « العبر » : ٣ / ٣٤٠ ، « الكامل في التاريخ » : ١٢ / ١١٤ .

لم يكن يتوقعها ، والسبب في ذلك أن « السِّلفي » حين جلس يقرأ على ابن البطر الحديث لم يجلس معتدلا مراعياً آداب الجلوس التي يجب أن يراعيها ويتقيد بها الطالب مع شيخه أثناء القراءة عليه ، أو السماع منه ، وإنما جلس متكئاً بسبب الدمامل التي حالت دون اعتداله في جلسته ، فلما رآه ابن البطر على تلك الجلسة التي لا تنم عن تقدير للشيخ ، ولا تدل على إجلال واحترام للعلم وبّخه وأهانه ، ووجه اليه كلاماً جارحاً أبكاه . يقول « السلفي » : دخلت بغداد في شوال سنة ٤٩٣ هـ ، ولم يكن لي هم ساعة دخولها إلا ابن البطر ، فذهبت إليه ، وكان شيخاً عسراً ، فقلت : قد جئت من أصبهان لأجلك ، فقال اقرأ ــ وجعل الراء غيناً ــ فقرأت عليه وأنا متكىء من دمامل بي ، فقال أبصر ذا الكلب . فاعتذرت اليه بالدمامل ، وبكيت من قوله ، وقرأت سبعة عشر حديثاً وخرجت ، ثم قرأت عليه نحواً من خمسة وعشرين جزءاً ، ولم يكن بذاك »[1] . وهناك في بغداد وجد « السِّلفي » نفسه وسط مدينة علمية متحضرة مزدهرة ، تزخر بأنواع عديدة من المعارف والعلوم والفنون والآداب فقد استقطبت المدرسة « النظامية » كبار العلماء في الحديث والتفسير والقراءات وعلوم الفقه واللغة ، والتصوف والفلسفة وغيرها . ورأى الطلاب والعلماء يتوافدون عليها من كل أقطار العالم الإسلامي ، بعضهم يعرض علماً ، وبعضهم يقصد أن يتعلم علماً افتقده ، وشاهد حماس الطلاب وهم يتنقلون بكل همة ونشاط بين حلقات الدروس لتحصيل ما يريدون من العلوم كأنهم جماعات نحل تطير من روض إلى روض لتجني الرحيق من هنا وهناك ،

---

(١) « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٣ ، « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ /٤٣ - ٤٤ ، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة آ .

ووجد نفسه أيضاً في مدينة تبدو على محياها آثار الحرائق والخرائب التي خلفتها تلك الفتن والحروب ، تلك التي كانت تنشب بين الشيعة وأهل السنة حيناً ، وتقع بين جيوش سلاطين السلاجقة — الذين كانوا في صراع مستمر في سبيل السيطرة عليها — حيناً آخر . ورأى بعينه الخليفة « المستظهر بالله » الذي تولى الخلافة منذ سنة ٤٨٧ هـ وما آل إليه حاله من ضعف وهوان ، وكيف أصبح لا حول له ولا قوة ، حتى الدعاء له على منابر حاضرة ملكه قد سلبه السلاجقة منه ، فأصبح لا يقدر على دفع ضر أصابه أو رد عدوان وقع عليه . يقض مضجعه دعاة الفاطميين بما يثيرون عليه من قلاقل وفتن ، فلا يستطيع أن يفعل ضدهم شيئاً ، ويحتل الصليبيون ديار المسلمين في بلاد الشام بلداً بلداً فلا يحرك ساكناً ، بل ويحاصر سلاطين السلاجقة بغداد ضد بعضهم فيكست وكأن الأمر لا يعنيه .

رأى « السلفي » ذلك الجو السياسي المضطرب فتفهمه وأدرك أبعاده ومغبة الاقتراب منه ، فابتعد عنه وانصرف بكليته إلى الهدف الذي جاء من أجله ، وهو تحصيل العلم ولقاء الشيوخ . فانتهز فرصة وجوده في ذلك الجو العلمي المتفاعل ، فاندمج فيه ، ولم يقصر اتصاله على ابن البطر فحسب ، بل لم يكتف بطلب الحديث وحده ، وإنما أخذ يتردد على حلقات كثير من الشيوخ والعلماء ، وأخذ يتصل بكل من يفيده علماً أو يستفيد منه خبراً ، فسمع الحديث على كبار المحدثين أمثال أبي بكر الطريثيثي ، وأبي عبد الله البسري ، وثابت بن بندار ، وعلي بن الحسين الرَّبْعي ، وجعفر بن أحمد السراج ، والمبارك بن عبد الجبار بن الطيوري ، ومحمد بن محمد بن الصباغ ، والحافظ فارس بن شجاع الذهلي ، والحافظ المؤتمن بن أحمد الساجي ، والحافظ أبي علي البرَداني ، وخلق كثير غيرهم

من بينهم ثماني شيخات فقط [1] . وتفقه على شيخ فقهاء الشافعية ببغداد آنذاك ألكيا أبي الحسن الهراس ، وعلى فخر الإسلام أبي بكر الشاشي ، ويوسف بن علي الزنجاني . ودرس الأدب واللغة على أبي زكريا يحيى ابن علي التبريزي ، وأبي الكرم ابن فاخر ، وعلي بن محمد الفصيحي . وأخذ حروف القراءات عن أبي طاهر بن سوار ، وأبي منصور الخياط ، وأبي الخطاب بن الجراح [2] .

أمضى « السلفي » على تلك الحال أربع سنوات جادة مثمرة ، كان فيها دائم التنقل بين حلقات الدروس ، تحدوه في ذلك عزيمة قوية وهمة نشطة ، شهد له بها الحافظ البغدادي ابن ناصر [3] بقوله : « كان « السلفي » ببغداد كأنه شعلة من نار في تحصيل الحديث » [4] .

وفي نهاية تلك السنوات الأربع تقريباً ، أي في سنة ٤٩٧ هـ ، كان « السلفي » قد انتهى من تصنيف كتابه « المشيخة البغدادية » التي ترجم فيها لجميع شيوخه في بغداد ، وذكر فيها كثيراً من معالم المدينة وأسماء الأماكن والشوارع فيها مثل باب المراتب وباب البصرة ، والحرم الطاهري ، وخان الخليفة وخزانة البيمارستان النصرية ، ودرب حبيب ، ودرب شوك ، ودرب العضدي ، وسوق البقاء ، وسوق الصيارفة ، وسوق عطر

---

(١) أنظر : « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٣ آ – ب .
(٢) سيرد التعريف بهؤلاء الشيوخ في فصل « شيوخ السلفي » .
(٣) هو الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي محدث بغداد ، كان مقدم أصحاب الحديث في وقته ، توفي سنة ٥٥٠ هـ . أنظر ترجمته : « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٨٩ ، « العبر ٤ / ١٤٠ ، « شذرات الذهب » ٤ /١٥٥ ، « اللباب» ٥٨٣/١، و«الأنساب» : الورقة ٣٢٠ آ ، وغيرها .
(٤) أنظر : « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ آ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ .

وغيرها . وعندئذ شعر بأنه قد أتى على ما عند شيوخ تلك المدينة من علوم فعاوده التفكير في الرحلة إلى بلاد أخرى .

ولكنه قبل أن يترك بغداد في تلك السنة ، قدم والده لزيارته من أصبهان ، فالتقى به على شوق ، وكان لقاؤهما عاطفياً حاراً شأن كل والد يلقى ولده بعد غياب طويل . وأقام الوالد عند ولده فاطلع على تحصيله واطمأن على تقدمه واجتهاده ، وسر كثيراً لما سمع من شيوخ بغداد من عبارات الثناء عليه والمديح له .

ولكن إقامة الوالد ببغداد لم تطل ، إذ كان عازماً على التوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في ذلك العام .

٢ — رحلته إلى الحجاز :

صحب « السِّلفي » والده إلى الحجاز ، ليؤديا معاً فريضة الحج ، وقد رافقهما في تلك الرحلة الحافظ أبو بكر محمد بن أبي المظفر السمعاني الد الحافظ أبي سعد عبد الكريم السمعاني ، صاحب كتاب « الأنساب » ، وهناك في الحجاز انتهز « السلفي » فرصة وجوده في موسم الحج ، فالتقى بكثير من علماء الحديث الوافدين من العالم الإسلامي لأداء الفريضة ، كما التقى أيضاً بعلماء الحديث المقيمين في الحجاز ، فسمع بمكة من المحدث الفقيه الحسين بن علي الطبري [1] ، ومن أبي شاكر العثماني صاحب أبي

---

(١) صاحب كتاب « العدة » الموضوعة شرحاً على « إبانة الفوراني » . درس في « نظامية بغداد » بعد ابي القاسم الدبوسي ، ثم عزل ثم أعيد بعد أن ترك ابو حامد الغزالي تدريسها في سنة ٤٨٩ هـ . توفي سنة ٤٩٥ هـ . أنظر ترجمته : « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٣٤٩ — ٣٥٦ ، « العبر » : ٣/٣٥٠ ، « شذرات الذهب » : ٣/٤٠٨ ، « تبيين كذب المفتري » : ٢٨٧ .

ذر الحافظ [١] ، وسمع بالمدينة من أبي الفرج القزويني [٢] وعبيد الله بن إبراهيم بن عبد الوهاب الحسيني وغيرهما [٣] .

ولم تطل إقامة « السلفي » في الحجاز ، وإنما غادرها بعد بضعة شهور عائداً إلى بغداد ، وربما كان رجوعه إليها مرة ثانية رغبة منه في المزيد من دراسة اللغة والفقه ، وليهيء نفسه ، ويرتب كتبه ، استعداداً لسفر طويل .

٣ – زيارته إلى الكوفة وعودته إلى بغداد :

وأثناء عودته من الحجاز إلى بغداد عرج على الكوفة ليلتقي بمن فيها من علماء الحديث ورواته ، وفعلا سمع فيها من أبي البقاء المعمر بن محمد الحبال ، وروى عن قاضي الكوفة أبي البركات محمد بن أحمد بن حمزة الثقفي ، وعن ابنه أبي منصور يحيى ، وعن أخويه علي وسعيد ، وعن أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي السري البكائي وغيرهم [٤] .

ولعل من المفيد أن نقف قليلا عند هذه الزيارة القصيرة للكوفة ، لأن بعض المؤرخين الذين ذكروها اختلفوا في تحديد الوقت الذي تمت فيه . فالسبكي صاحب « طبقات الشافعية » أورد كلاماً يفهم منه أنها تمت بعد

---

(١) هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الانصاري الهروي الفقيه الحافظ ، نزيل مكة توفي سنة ٤٣٤ هـ .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ آ . وأبو الفرج القزويني هو محمد بن محمود بن حسن الانصاري ، فقيه صالح استملى عليه « السلفي » مجلساً مشهوراً . توفي سنة ٥٠١ هـ . انظر ترجمته « العبر » : ٤ / ٢ .

(٣) انظر « معجم السفر » : الورقة ١١٩ آ .

(٤) انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦أ ، و « معجم السفر » : الورقة ٢٣٣ أ ، ٢٣١ ب ، ١٥٠ أ .

الحج أثناء عودته إلى بغداد ، ونص عبارته هو : « ... ثم حج وسمع في طريقه بالكوفه » [1] ، أما الدكتور جمال الدين الشيال فيذكر أن تلك الزيارة قد تمت قبل الحج أثناء توجه « السِّلفي » إلى الحجاز ، يقول : « ثم غادرها — يعني بغداد — إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج ، ولكنه عرج في طريقه على الكوفة وسمع بها » [2] .

وعندي أن تلك الزيارة قد تمت فعلا بعد عودته من الحجاز أثناء توجهه إلى بغداد ، ذلك لأن « السلفي » ذكر مراراً [3] أنه كان في الكوفة سنة ٤٩٨ هـ ، ولم يذكر مرة واحدة أنه كان في الكوفة سنة ٤٩٧ هـ ، وهي السنة التي كان فيها متوجهاً مع والده إلى الحجاز ، ويكفي كمثال على صحة ما نقول ما أورده « السلفي » نفسه في ترجمته لأبي منصور يحيى بن محمد أحمد بن حمزة الثقفي حيث قال : « أبو منصور من بيت القضاء والرئاسة ، كتبنا عنه وعن أخويه علي وسعيد بالكوفة سنة ٤٩٨» [4] ، وقول « السلفي » في ترجمته لأبي منصور يحي بن محمد بن أبي طالب الريحاني : « سألته عن مولده سنة ٤٩٨ هـ فقال : أنا ابن سبعين سنة » [5] .

عاد « السِّلفي» إلى بغداد ، واستأنف دراسته التوسعية للغة العربية والفقه الشافعي ، وأخذ بجانب ذلك يكثر من الكتابة والنسخ والمطالعة ، ولقاء العلماء والاختيار من انتخاباتهم ومؤلفاتهم ، فتجمعت لديه نتيجة ذلك مادة غزيرة وعلم وفير وانتخابات كثيرة . وما كادت تمضي عليه سنتان

١ — « طبقات الشافعية ».: ٤ / ٤٤ .
٢ — « أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي » : ١٣٥ .
٣ — انظر على سبيل المثال « معجم السفر ».: الورقتان ٢٣١ ب ، ٢٣٣ أ .
٤ — « معجم السفر » : الورقة ٢٣٣ أ .
٥ — نفس المصدر : الورقة ٢٣١ ب .

من تاريخ عودته إلى بغداد حتى شعر بأن البقاء فيها لم يعد ذا فائدة كبيرة ، وأنه لا يزال يتطلع إلى المزيد من علوم الحديث وروايته ، ويتوق إلى لقاء الشيوخ المشهورين بعلو الإسناد والمتناثرين في الشرق الإسلامي الواسع ، فتجددت عنده الرغبة الأكيدة في الرحلة من جديد ، لعله يروي غلته ، ويحقق أمنيته .

ولكنه قبل أن يبدأ رحلته الجديدة البعيدة رأى أن ينجز أمرين هامين ، أولهما : أن يضيف ما تجمع لديه من تراجم ونقول إلى كتابه « المشيخة البغدادية » . وثانيهما أن يخرج إلى البصرة ليلقى من فيها من رواة الحديث والعلماء ، لعله يجد عندهم علماً يستحق الرواية والتسجيل .

أما أولاهما فقد أنجزه بسرعة ، فاكتمل بذلك « المشيخة البغدادية » ، وأصبح مجلداً كبيراً [1] ذكره صاحب « كشف الظنون » بقوله : و « المشيخة البغدادية » جمع فيها الجم الغفير مع فوائد ما لا تحصى ، جملتها تزيد على مائة جزء [2] .

وأما الأمر الثاني فقد عزم وصمم على تنفيذه .

٤ – رحلته إلى البصرة :

في سنة ٥٠٠ هـ خرج إلى البصرة في زيارة قصيرة ، فالتقى بطائفة من رواة الحديث فيها ، وسمع منهم ، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر العسكري ، وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن حفص المعدل [3] .

---

١ – انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٩٩ ، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ الورقة ٦ ب .

٢ – « كشف الظنون » ١٦٩٦ . وعندي في مكتبتي نسخة منها مصورة عن أصل في مكتبة الأوسكريال تحت رقم ١٧٨٣ . وسيأتي وصفها في فصل « كتبه وأعماله » .

٣ – انظر « معجم السفر » : الورقة ١٣٨ أ.

ويذكر ابن خلكان [1] أن « السِّلفي » مر يوماً بحلقة كبيرة بجامع البصرة ، فسأل عن المتصدر فيها فقيل له إنه الحريري — صاحب المقامات — قد وضع شيئاً من الأكاذيب ، وهو يمليها على الناس ، فسكت ولم يعرِّج عليه . ثم عاد إلى بغداد لا ليقيم فيها ، وإنما ليستعد إلى سفر طويل يطوف فيه بلدان الشرق الإسلامي أملا في لقاء العلماء ورواة الحديث .

٥ — رحلته إلى الشرق :

وفي نفس السنة التي عاد فيها من زيارته إلى البصرة — أي في سنة ٥٠٠ هـ — غادر « السلفي » — رحمه الله — بغداد ، متوجهاً إلى الشرق الإسلامي الواسع ، عازماً على الطواف ببلدانه المتباعدة المترامية ، رغم بعد السفر وصعوبة المواصلات وعدم توفر الوسيلة في أغلب الأحيان ، وقلة ذات اليد ، فزار عديداً سن المدن والقرى ، نذكر منها على سبيل المثال : زنجان، همَذان ، أَبهَر ، واسط ، الحلّة ، جَرباذقان ، سَلَماس ، ساوة ، الكرج ، الدِّينَور ، الأهواز ، تفليس ، نَصيبين ، شابرخواست ، الكَنْكِوَر ، شهرستان ، النعمانية ، أردَبِيل ، آمد ، الأشتر ، ماكسين ، مأمُونيّة زَرَنْد ، نهر الدَّير ، باب الأبواب ، الرَّي ، قَزْوين ، المَرَاغة ، نَهَاوَنْد ، صَريفين ، مَيّافارقين ، الرحبة ، الدون ، القَرك ، قَرقيسْيا ، قرسيسين ، شروان ، زَرَنْد ، الفاروث ، مدينة القصر ، فَيْد ، عَرَابان ، داريا ، عسكر مَكرم ، حاني ، نَشوى، الدونق ، الزّز ، ماردين ، شَهْرَوَرْد ، دَبيل ، خِلاط ، قَهج ، جَوِّيت ... وغير ذلك من البلدان الشرقية الكثيرة ، مما سهل عليه بعد ذلك أن يؤلف كتابه الذي سماه

---

١ — « وفيات الأعيان » (طبعة بيروت) : ٤ / ٣٩٦ .

« الأربعين البلدانية » التي تعتبر الأولى من نوعها [1].

لقد استغرقت هذه الرحلة من « السلفي » تسع سنوات طوال ، قاسى فيها الكثير من ويلات السفر ومتاعب الطريق ، ويكفي أن نتصور تلك المتاعب والمصاعب أنه كان يسير على رجليه طوال ترحاله ، لا يملك ما يستأجر به دابة يركبها ، وأنه كان يمشي في كثير من الأحيان حافياً [2] لعدم قدرته على شراء حذاء له ليلبسه ، وأنه كان ينزل أثناء ترحاله في الرُّبُط التي كان يبنيها الموسرون والمحسنون كمضافات ، ينزل فيها طلاب العلم المتجولون ورجال الصوفية والفقراء .

ولكن رغم كل تلك المتاعب فقد استفاد «السِّلفي» من هذه الرحلة الشاقة فائدة كبيرة ، حيث أتاحت له فرصة لقاء عدد كبير من العلماء التقى بهم في بلادهم وفي الربط التي كان ينزلها ، فسمع منهم الكثير ، ودوَّن ما سمعه منهم من أحاديث وأخبار وحكـايات ، وانتخب من أجزائهم ومنتخباتهم ، وترجم لكل من التقي بهم وأخذ عنهم ، مدوناً في ترجماتهم كل ما رواه عنهم [3] . واستطاع أن ينسخ من الأجزاء ما لا يحصى كثرة ، إذ روي عنه أنه كان ينسخ الجزء الضخم في ليلة واحدة [4] ، فتجمع لديه نتيجة ذلك ما لم يستطع أن يستصحبه معه عندما أراد التوجه إلى ديار بكر في العراق ، فاضطر أن يستودع كل ما جمعه من سماعات أذربيجان وشروان وأرمينية وأرانية وباب الأبواب في مدينة سَلَماس على نية الرجوع

---

١ – أنظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٣ ب ، ٤ أ .

٢ – أنظر « مرآة الزمان » : ٨ / ٣٦١ .

٣ – أنظر « معجم السفر » الورقات : ٣٦ أ ، ٩٤ أ ، ١١٧ أ ، ١١٨ب، ١٧٤ ب وغيرها .

٤ – أنظر « سير أعلام النبلاء » : الورقة ٤ ب .

إليها بعد ذلك [١] .

وعندما توجه إلى ديار بكر وأرض الجزيرة ، وطاف بمدنها وقراها ، والتقى بمن فيها من العلماء ، تجمع لديه مرة ثانية مالم يقدر على حمله معه حين توجهه إلى الشام ، فاستودعه أيضاً في مدينة آمد [٢] .

٦ – رحلته إلى الشام :

بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة في الشرق الاسلامي ، يمم « السلفي » وجهه شطر الغرب قاصداً مدينة دمشق مركز المحدثين والفقهاء آنذاك ، فوصلها سنة ٥٠٩هـ ، فنزل في دويرة أبي القاسم علي بن محمد السُّمَيْسَاطي التي أوقفها صاحبها رباطاً ينزل فيه رجال الصوفية والفقراء وطلبة العلم [٣] ، فأقام بها عامين تقريباً التقى خلالهما بكثير من علماء الحديث وسمع من كثير منهم أمثال أبي طاهر محمد بن الحسين بن محمد الحنائي ، وعلي بن الحسن بن الحسين المعروف بابن الموازيني ، وهبة الله بن أحمد بن الأكفاني ، وعلي بن أحمد بن منصور بن قبيس الغساني وغيرهم . وكان يشتغل أثناء ذلك بتدريس الحديث في المسجد الأموي مما أتاح الفرصة ليسمع منه الكثيرون .

ذكره ابن عساكر في تاريخه فقال : « قدم علينا دمشق طالب حديث

---

١ – أنظر « معجم السفر » الورقات : ٤٠ب ، ٦٤أ ، ٦٦ب ، ٢١أ ، ٩٤ ب ، ١٢١أ ١٤٨ب ، ١٦٨أ ، ١٧٣ب ، ١٨٣ أ ، ١٨٣ ب ، ١٩٣أ ، ١٩٥أ .

٢ – أنظر « معجم السفر » الورقات : ٣٩ ب ، ٩٩ أ ، ٢٠٠ أ ، ٢٠٠ ب .

٣ – نفس المصدر السابق : الورقة ١٦٤ ب ، وأنظر دويرة السميساطي «الدارس في تاريخ المدارس» : ٢ / ١٥١ ؛ و « العبر » : ٣ / ٢٢٩ ؛ « اللباب » : ١ / ٥٦٦ .

سنة ٥٠٩ هـ، فأقام بها مدة ، وكتب بها عن جماعة من شيوخنا ... وحدث بها فسمع منه بعض أصحابنا ، ولم أظفر بالسماع منه »[١] . وذكر السبكي أيضاً رحلة « السلفي » إلى دمشق فقال : « قدم دمشق سنة ٥٠٩ هـ بعلم جم ، فأقام بها عامين ، وسمع بها من أبي طاهر محمد بن الحسين الحنائي وأبي الحسين بن الموازيني »[٢] .

ويبدو أن « السِّلفي » لم يجد راحته النفسية في دمشق ، لأن سوريا كانت وقتذاك مسرحاً للحروب الداخلية بين حكام المدن والقرى والقلاع ، من أجل السيطرة وبسط النفوذ ، كما كانت هناك أيضاً الحروب الصليبية التي لم يكن يهدأ لها أوار بين المسلمين من ناحية ، وبين جيوش الصليبيين الغزاة — الذين كانوا يحتلون القدس وطبريا ومعظم مدن الساحل الفلسطيني — من ناحية أخرى[٣] .

ويبدو لي ايضاً أن « السِّلفي » استطاع خلال السنتين اللتين قضاهما في دمشق أن يلتقي بكل علمائها ، وأن يعرف ما عندهم ، وأن يسمع الكثير عن علماء الأندلس وما كانوا يتمتعون به من سمعة طيبة ، في ميدان علم الحديث والقراءات وغيرهما من علوم اللغة والتفسير . امام هذه الاحتمالات كلها أو بعضها ، عزم على الرحلة من جديد ، فخرج من دمشق سنة ٥١١ هـ متوجهاً إلى مدينة صور ، وهناك التقى بمن كان فيها من العلماء أمثال صبح بن محمود بن غيث الهيبي ، وضياء بن الحسين

---

١ — « تهذيب تاريخ ابن عساكر » : ١ / ٤٤٩ .

٢ — « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٣ .

٣ — « الكامل » لابن الأثير : ١٠ / ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ .

ابن نصر العليمي ، وعبد الجليل بن محمد بن المسلم الحيفي وغيرهم [1] .

٧ – رحلته إلى الإسكندرية :

لم تطل إقامة « السِّلفي » في مدينة صور ، فغادرها إلى الاسكندرية بطريق البحر ، فوصلها في ذي القعدة من نفس السنة ، وكان في نيته أن يتوجه منها إلى بلاد الأندلس للأخذ عن أصحاب أبي عمر بن عبد البر وغيرهم من العلماء ، ثم يعود بعد ذلك إلى بلده أصبهان [2] ، ولكن نيته تلك لم تتحقق ، فقد استطاب الإقامة في الاسكندرية ، فاستقر فيها واتخذها دار إقامته ، ولم يغادرها منذ نزلها إلى أن غيبه الموت عنها إلا مرة واحدة فقط خرج فيها إلى القاهرة للسماع من أبي الصادق مرشد بن يحيى المديني وطبقته ، ثم عاد [3] .

ويمكننا أن نعتبر وصول « السِّلفي » إلى الاسكندرية خطاً واضحاً يفصل بين مرحلتين متمايزتين في حياته هما : مرحلة التنقل والرحلة وشظف العيش ولقاء الشيوخ والعلماء ، هي مرحلة أفل نجمها أو كاد ، ومرحلة الإقامة والاستقرار والشهرة وأستاذية الحديث ، وهي مرحلة بدأت وأشرقت شمسها منذ وطئت قدماه رمال ثغر الإسكندرية في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ .

---

١ – انظر « معجم السفر » : الورقة ٨٨ ب ، ٤٥ ب ، ١٠٩ أ .
٢ – انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٤ أ ، « المعجم » لابن الأبار ٤٨ .
٣ – أخطأ الدكتور محمد زغلول سلام خطأ واضحاً حين ذكر في كتابه « الأدب في العصر الأيوبي » ص١٥٧ : «أنه – أي السلفي – سافر من دمشق فنزل القاهرة ، ثم غادرها إلى الإسكندرية ثم عاد إلى القاهرة مرة ثانية » . والصحيح الثابت ما ذكرناه .

وقبل أن نبدأ بدراستنا التفصيلية لهذه المرحلة الثانية ، أرى أن أسلخ منها تلك الرحلة اليتيمة التي قام بها صاحبنا «السلفي» . إلى القاهرة والفسطاط ، لنختتم بها فصل الرحلات ، لأنها أقرب في سبيعتها وخصائصها اليه مما سواه .

٨ – رحلته إلى القاهرة (الفسطاط) :

بعد أربع سنوات من إقامة « السلفي » في ثغر الاسكندرية ، غادرها في سفرته اليتيمة إلى القاهرة (الفسطاط) ليستمع إلى علماء الحديث والقراءات فيها . فاستغرقت منه ثلاث سنوات تقريباً ، حيث بدأها في سنة ٥١٥ هـ . وعاد منها في سنة ٥١٧ هـ . اتصل فيهـــا بالشيخ أبي صادق ونقل عنه كل ما عنده تقريباً ، إذ لا نكاد نجد رواية لأبي صادق المديني إلا وتروى عن طريق « السلفي » كما اتصل أيضاً بخلق كثير من العلماء والقراء والأدباء والشعراء والكتاب والوراقين والصالحين ومحبي العلم ، فسمع منهم وسجل ما نقله عنهم . وترجم لحياة الكثيرين منهم .

وقد ذكر السبكي في كتابه « طبقات الشافعية » ، أن « السلفي » قام بتلك الرحلة الوحيدة إلى الفسطاط سنة ٥١٧ هـ ، وأنها كانت لمدة سنة واحدة ، فقال : « ولم يخرج منها – أي الاسكندرية – الا مرة واحدة في سنة ٥١٧هـ ، فسمع من أبي الصادق المديني والموجودين بها وعاد »[١] . وقال أيضاً : « وبلغني أنه – أي « السلفي » – في مدة إقامته بالاسكندرية – وهي أربع وستون سنة – ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرة واحدة »[٢].

---

١ ، ٢ – السبكي « طبقات الشافعية الكبرى » : ٤ / ٤٤ ، وقد نقل الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « الحركة الفكرية في مصر » ما ذكره السبكي دون تحقق .

والحقيقة أن ما ذكره السبكي في تاريخ تلك السفرة ومدتها يتناقض تناقضاً كاملا مع ما أورده « السِّلفي » نفسه في « معجم السفر » من تواريخ أثناء ترجماته لحياة بعض من اتصل بهم من علماء القاهرة ، تلك التواريخ التي تدل على أنه كان موجوداً هناك في سنة ٥١٥ هـ ، وسنة ٥١٦ هـ ، وسنة ٥١٧ هـ ، وسأورد بعض تلك التواريخ على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر :

١) ذكر « السِّلفي » أثناء ترجمته لأبي المظفر عبد الرشيد بن المظفر الحجندي التاجر بمصر هذه العبارة « ... وقد حضر عندي بمصر ، وسمع علي مع أصحاب الحديث سنة ٥١٥ هـ » [١] .

٢) وذكر أيضاً في ترجمة أبي الأسوار عمر بن المنخل البابي ، التاجر بمصر « ... رأيته بمصر سنة ٥١٦ هـ ، وسمع علي ومعي أبي صادق المديني وغيره » [٢] .

٣) وقال في ترجمة أبي البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرىء الصقلي « ... وتوفي في شعبان سنة ٥١٧ هـ بالاسكندرية وأنا بمصر » [٣] .

٤) وذكر كذلك في ترجمته لعوض بن سعادة بن عبد الله الطرابلسي المغربي : « ... وتوفي بعد خروجي من مصر في ذي القعدة سنة ٥١٧ هـ » [٤] .

هذه النصوص وكثير غيرها [٥] – تقطع بأن « السلفي » خرج إلى

---

١ – « معجم السفر » : ١٢٩ ب .
٢ – نفس المصدر : الورقة ٦٠ ب .
٣ – نفس المصدر : الورقة ١٢٤ أ .
٤ – نفس المصدر : الورقة ١٥٩ ب .
٥ – نفس المصدر : ٥٣ أ ، ٥٥ أ ، ٩٥ ب ، ١٧٨ ب ، ٢٣٥ ب .

القاهرة (الفسطاط) في سنة ٥١٥ هـ وأنه بقي فيها – على الأقل – حتى شهر شعبان سنة ٥١٧ هـ . وهي نصوص كافية لتصحيح ما وقع فيه السبكي من خطأ .

وذكر « السلفي » أنه أقام مدة وجوده في مصر في دار رجل صالح ، ينحدر من أصل يمني ، كان من كبار التجار الأغنياء ، وكان يحب العلم ويكرم أهله ، اسمه أبو عبد الله محمد بن خداداد بن اسماعيل الأهواري . ترجم له « السلفي » فقال عنه : « ... وكان من رؤساء مصر والممولين بها ، شافعي المذهب ، محباً للعلم وأهله ، ومولده باليمن . أقمت في داره مدة مقامي بمصر ، وكان ظاهر المروءة رحمه الله »[1] .

وهناك في الفسطاط ، تردد « السلفي » على مسجد عمرو بن العاص الذي كان مركزاً فكرياً عظيماً لدراسة الحديث والفقه واللغة والنحو آنذاك ، فطاف بحلقات الدروس التي كانت تعقد فيه ، فسمع من شيوخها الكثير ، وسجل عنهم الكثير ، كما التقى بأعداد وفيرة ممن كان لهم نشاط علمي أو أدبي سواء كانوا من المقيمين في الفسطاط أو الوافدين إليها ، فسجل لهم كل ما سمعه منهم . والمتصفح لكتاب « معجم السفر » يلحظ بكل وضوح ضخامة العدد الذي ترجم لهم « السلفي » في زيارته للفسطاط ، كما يلحظ من خلال تلك التراجمات صورة مشرقة للحياة الفكرية والأدبية التي كانت تتمتع بها تلك المدينة في أوائل القرن السادس الهجري في ظل خلافة الفاطميين .

---

١ – نفس المصدر : ١٨٢ ب .

الفصل الثالث

الاسكندرية في القرن السادس الهجري :

١ — مظاهر العمران

٢ — الحالة الاقتصادية

٣ — الحالة الاجتماعية

٤ — المذهب الديني

٥ — الحالة الفكرية والثقافية

٦ — مشاركة الاسكندرية وتأثيرها في الأحداث السياسية .

قبل أن أبدأ بدراسة حياة الحافظ « السلفي » الطويلة في مدينة الإسكندرية وما كان له فيها من أثر علمي ، أرى — إتماماً لفائدة البحث — أن أقدم مقدمة موجزة ومركزة أرسم فيها صورة عامة لهذه المدينة العظيمة في القرن السادس الهجري أي وقت قدوم « السلفي » إليها ، وطوال فترة استقراره فيها ، وسأوضح في هذه الصورة معالم العمران في تلك المدينة ، وما كانت عليه من أوضاع اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، وما كان فيها من نشاط أدبي وفكري .

أولا : مظاهر العمران

الإسكندرية مدينة تاريخية قديمة ، لها شهرة حضارية واسعة ، وبها آثار فنية خالدة ، تعاقبت عليها منذ أنشأها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق.م إلى القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) دول كثيرة ، وحكمها سلوك كثيرون ، وجرت على أرضها معارك وحروب وألمت بها أحداث تاريخية وفتن واضطرابات ، وخضعت لما تخضع له المدن التاريخية الكبيرة من تقلبات وأعاصير سياسية ، فكانت تزدهر حيناً فتبدو وكأنها أكبر مدن العالم ، وتضمحل وتتقلص حيناً فتبدو وكأنها مدينة صغيرة لا عناية بها ولا رعاية لشؤونها . ولكنها على الرغم من ذلك كله فقد بقيت عاصمة لمصر طوال هذا التاريخ الطويل ، واستمرت مركز إشعاع فكري وحضاري على شواطيء البحر الأبيض المتوسط ، يَفِدُ إليها طلاب العلم والعلماء

والأدباء والفلاسفة من جميع بلاد العالم ليتلقوا في معاهدها الشهيرة وردهات معابدها وفي غرف مكتبتها التي كانت تحوي كتباً في جميع فروع العلوم كالطب والرياضيات والفلسفة والقانون [١] .

وحين فتح العرب المسلمون الاسكندرية بقيادة عمرو بن العاص أعجبوا بروعة مبانيها وهندسة شوارعها المستقيمة الواسعة المكسوة بالرخام والمرمر، وبكثرة قصورها الفخمة الأنيقة ، وحماماتها وصهاريجها ومعالمها الخالدة كالمنارة التي ترى في البحر على بعد سبعين ميلا [٢]، وكعمود السواري الذي يبلغ طوله سبعين ذراعاً وقطره خمسة أذرع [٣] ، وكمسلتي كليوباترة الشهيرتين اللتين أكثر المؤرخون من وصفهما والكتابة عنهما [٤] ، وكذلك أيضاً كثرة ما بها من أعمدة وحصون وأبراج [٥] .

وأعجب عمرو بالمدينة إعجاباً كبيراً ، وفكر أن يتخذها عاصمة له ، وقال : « مساكن قد كفيناها » ، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في المدينة المنورة يستأذنه في ذلك ، فلم يوافقه على رأيه ، ونصحه أن يختار مكاناً آخر لا يفصل بينه وبين بلاد العرب ماء ، فاستجاب

---

١ – Butler : The Arab Conquest of Egypt , P. 407 .

٢ – « الإشارات إلى معرفة الزيارات » : ٤٨ ، « رحلة ابن جبير » : ص٤١ ، « الخطط » : ١/٢٥٥ ، «حسن المحاضرة» : ١/٤٣ وانظر . The Arab conquest : 377 .

٣ – « مختصر تاريخ مصر ، ص ١١٠ .

٤ – نقلت إحدى هاتين المسلتين إلى لندن سنة ١٨٧٧ م ، ونقلت الثانية إلى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة سنة ١٨٧٩ م .

٥ – للتوسع أنظر ما كتبه :
Butler : The Arab Conquest, (Alexandria at the conquest, P. 368 — 400).

عمرو لنصيحة أمير المؤمنين وترك الاسكندرية واختار مكاناً فسيحاً قرب حصن بابليون واختط فيه مدينة الفسطاط واتخذها عاصمة له [١] .

وعلى الرغم من انتقال مقر الحكم من الاسكندرية إلى الفسطاط فقد بقي الخلفاء – في المدينة أو في دمشق – وولاتهم في مصر يولون عناية كبيرة للاسكندرية لموقعها الاستراتيجي ولمكانتها الحربية في الدفاع عن مصر ، واعتبروها ثغراً من أهم الثغور الاسلامية ، فأصلحوا سورها الذي هدم حين فتحها عمرو بن العاص للمرة الثانية سنة ٢٥ هـ – ٦٤٥ م وحصنوا قلاعها وبنوا فيها الأبراج والمحارس ، وخصصوا لها حامية عسكرية لحراستها يتعاقب الجند فيها كل ستة اشهر .

ومنذ فتح العرب المسلمون الاسكندرية أخذت المظاهر الاسلامية تظهر في المدينة لأول مرة في تاريخها ، فبنيت المساجد والمآذن وأخذت تزداد يوماً بعد يوم وفقاً لازدياد عدد الجنود والمستوطنين من العرب المسلمين ، وانتشار الاسلام بين السكان الأصليين .

واستمرت الاسكندرية في حياة هادئة متشابهة ، كانت تتأثر أحياناً بالأحداث السياسية التي كانت تجتاح البلاد نتيجة للخلافات بين أمراء مصر أو نتيجة لما كان يجتاح الأندلس من اضطرابات سياسية كانت تدفع بالكثيرين إلى النزوح إلى الاسكندرية .

وعندما وطئت خلافة الفاطميين أرض مصر واستقرت لهم الأحوال فيها بعد مجيء المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢ هـ [٢] أخذت الاسكندرية

---

١ – انظر « حسن المحاضرة » : ١ / ٦٤ ، « فتوح مصر » : ص ٩١ ، « الخطط » : ٢ / ١٦٧ .
٢ – « النجوم الزاهرة » : ٤ / ٣٠ .

تنشط وتزدهر ، وتشارك مشاركة فعالة في معظم الأحداث السياسية التي كانت تتعرض لها مصر فتؤثر فيها إلى حد كبير [1]. ولما كانت الاسكندرية أهم ميناء للفاطميين يطلون منه على بلدان البحر الأبيض المتوسط ، وأنها « باب المغرب » الذي يتوجهون منه إلى موطن خلافتهم الأصلي في بلاد المغرب ، فقد أولوها عناية كبيرة ، واهتموا بشؤونها اهتماماً خاصاً ، فاتخذوها مقراً لأسطولهم الحربي والتجاري ، وحصنوها بكل وسائل القوة والتحصين ، واعتبروها في تقسيمهم الإداري « الإقليم الرابع » يولون عليها والياً يدير شؤونها ويدبر أمور الدفاع عنها ، ويتصل اتصالا مباشراً مع الحاكم في القاهرة مركز الخلافة .

وفي مطلع القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أي بعد قرن ونصف تقريباً من قيام الخلافة الفاطمية في مصر ، وفد « السلفي » إلى الاسكندرية ، وكانت عندئذ مدينة كبيرة مزدهرة ، لا زالت تحتفظ بشوارعها القديمة الواسعة ، وآثارها التاريخية الخالدة ، قد كثرت فيها المساجد كثرة واضحة ، منها ما بناه المسلمون قديماً قبل مجيء الفاطميين إلى مصر ، كمسجد عمرو بن العاص أو « مسجد الرحمة » كما يسمونه أحياناً لأنه بني في المكان الذي توقف فيه عمرو بن العاص عن قتال أهل الاسكندرية يوم دخلها عنوة في فتحه الثاني لها [2] ، والمسجد الغربي أو مسجد السبعين ويعرف بمسجد الألف عمود ، ومسجد سليمان ، ومسجد الاسكندر ، ومسجد المنارة ، وهو داخل المنارة ليصلي فيه الجنود المرابطون . ومنها ما بني أو جدد بناؤه في زمن الفاطميين كمسجد العطارين الذي جدد بناءه

---

١ – سأتعرض لتفصيل هذا بعد قليل .

٢ – « الخطط » : المجلد الثالث القسم الثاني ص ١٦٠ .

الوزير بدر الجمالي في زيارته للاسكندرية سنة ٤٧٧ هـ ، وكمسجد أبي بكر الطرطوشي الذي بني في خلافة الآمر بعد سنة ٥١٠ هـ من مال الوزير المأمون ، وكمسجد المؤتمن البطائحي - أخي الوزير - وغير ذلك كثير .

واستمرت الاسكندرية تحظى بين الحين والحين بقيام المساجد والمؤسسات العامة والتحصينات الحربية طوال عهد الفاطميين في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، ففي سنة ٥١٧ هـ جدد الخليفة الآمر سور الاسكندرية ، وفي سنة ٥٣٣ هـ بنى الوزير رضوان بن ولخشبي مدرسة للفقيه المالكي ابن عوف ، وفي سنة ٥٤٤ هـ بنى العادل السلار والي الاسكندرية المدرسة « السلفية » للحافظ « السلفي » ، وفي سنة ٥٥٧ هـ بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج المشهور عند باب البحر ، والذي عرف ببرج ضرغام .

وقد شارك أهل الاسكندرية في تقدم العمران في مدينتهم ، فأخذ الأغنياء منهم والبارزون في المجتمع يبنون لأنفسهم القصور والمنتزهات أسوة بقصور الخلفاء والوزراء في القاهرة ، كان في مقدمتها قصر القاضي ابن حديد ، الذي سنتعرض لوصفه بعد قليل ، وقصر بني خليف الذي وصفه ابن قلاقس في شعره .

ولما أزال صلاح الدين الدولة الفاطمية ، وأقام على أنقاضها دولته الأيوبية ، أولى مدينة الاسكندرية اهتماماً خاصاً ورعاية كبيرة ، وذلك لأهمية موقعها الاستراتيجي في الدفاع عن مصر من ناحية ، ولما كان لأهل الاسكندرية من مكانة طيبة عنده ، كان مصدرها تلك الوقفة البطولية التي وقفوها معه حين حاصره « شاور » في مدينتهم سنة

٥٦٢ هـ ، فوقفوا يذودون عنه ويقدمون له كل ما يملكون من رجال ومال وسلاح . ولهذا ليس بمستغرب أن نرى صلاح الدين يأمر منذ اللحظة الأولى لتوليه عرش مصر بإصلاح سور الاسكندرية وتحصين أبراجها وقلاعها وإدخال بعض المنشآت فيها . وليس هذا فحسب بل نراه يسافر بنفسه في سنة ٥٧٢ هـ إلى الاسكندرية ليتفقد أحوالها ، وليشرف بنفسه على ما أنجز فيها من إصلاحات ، وما تم فيها من تحسينات ، يقول ابن واصل في كتابه « مفرج الكروب » : ثم سار صلاح الدين في الثالث والعشرين من شعبان إلى الاسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها »[1] .

وفي هذه الزيارة تفقد صلاح الدين الأسطول الحربي ، ورأى ما آل إليه من خراب وإهمال ، فأمر بتجديده وتعميره ، وبناء سفن جديدة تضاف إليه ، وأفرد له ميزانية خاصة ، وأنشأ له ديواناً خاصاً ، وعين له قائداً سماه « صاحب الأسطول » . يقول أبو شامة صاحب كتاب « الروضتين » نقلا عن ابن طي : فرأى (صلاح الدين) الأسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات من السلاح والعدد وما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ... وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبرح البحر »[2] .

وظلت الاسكندرية محل رعاية صلاح الدين وعنايتــه ، يوصي

١ - « مفرج الكروب » : ١ / ٥٦ .
٢ - « كتاب الروضتين » : ١ / ٢٦٩ .

بالانشاءات فيها ويتفقد أحوالها ، ويتابع الاهتمام بها إلى أن وافته الفرصة لزيارتها مرة ثانية في سنة ٥٧٧هـ ،فزارها ووقف بنفسه على ما تم فيها من إصلاحات ، وتفقد المنشآت التي أمر ببنائها ، وأمر بسرعة إنجازه ، يقول العماد الأصفهاني في وصف هذه الزيارة : « وتوجه السلطان بعد شهر رمضان سنة ٥٧٧ هـ إلى الاسكندرية على طريق البحيرة ، وخيم عند السواري ، وشاهد الأسوار التي جددها ، والعمارات التي مهدها ، وأمر بالاتمام والاهتمام »[١] .

وفي هذه الزيارة حظيت الاسكندرية من صلاح الدين بتأسيس كثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة ، فأنشأ فيها مدرسة كبيرة للطلاب الغرباء ، يتعلمون فيها مختلف العلوم والآداب ، وبنى لهم داراً يقيمون فيها ، وحمامات يستحمون فيها ، ومارستاناً يعالجون فيه بالمجان ، ويشرف عليه أطباء متفرغون . وقد أشار ابن جبير إلى هذه المدرسة عند مروره بالاسكندرية أثناء رحلته المشهورة ، فقال : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعةفيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ، ومدرساً يعلمه ، وإجراء يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء »[٢] .

---

١ — « كتاب الروضتين » : ٢/ ٢٤ .

٢ — « رحلة ابن جبير » : ص ٤٢ .

ثم تتابع بناء المدارس في الاسكندرية في عهد صلاح الدين تتابعاً سريعاً ، وفقاً لسياسته العامة في الإكثار من تشييد المدارس كوسيلة فكرية للقضاء على الفكر الفاطمي الشيعي . وقد كثر عدد المدارس في سنوات قليلة، كثرة لفتت أنظار المؤرخين الذين زاروا الاسكندرية وكتبوا عنها . يقول ابن خزيمة الذي زار الاسكندرية سنة ٥٦١ هـ – ١١٦٤ م وأقام فيها وكتب وصفاً لها : « وبها مائة وثمانون مدرسة لطلب العلم بها » [١] .

وأمر صلاح الدين في هذه الزيارة الثانية بإنشاء مسجده الجامع الكبير ، ونقل الخطبة إليه ، بعد أن كانت تقام في عهد الفاطميين في مسجد العطارين أكبر مسجد في المدينة [٢] . ثم تبع ذلك بناء عدد كبير من المساجد بالإضافة إلى ما كان فيها من مساجد من قبل . وقد بلغ عدد المساجد في هذه الفترة رقماً عالياً لفت أنظار المؤرخين الذين زاروا المدينة فأخذوا يقدرونها تقديرات مختلفة يصلون فيها أحياناً إلى حد المبالغة .

يقول الهروي في كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » ، وكان قد زار الاسكندرية في أواخر القرن السادس الهجري (١٢م) : « وبها (الاسكندرية) من المساجد والمعابد ما لا رأيته بغيرها ، وذكر لي ابن منقذ أن فيها اثني عشر ألف مسجد . فسألت القاضي الكاتب عن ذلك فقال : « إن الملك العزيز عثمان كشف ذلك فوجدوا بها عشرين ألف مسجد وأنا فما عددتها ، والله أعلم بصحة ذلك » [٣] .

ونقل القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » عن ابن الأثير في كتابه

---

١ – تاريخ الإسكندرية (نقلا عن محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة) : ص ٨١ .
٢ – حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية ، ص ٦٧ .
٣ – « الإشارات إلى معرفة الزيارات » : ص ٤٧ – ٤٨ .

« عجائب المخلوقات » قوله : « ويقال إن مساجدها أحصيت في وقت من الأوقات فكانت عشرين ألفاً »[١] .

وأما ابن جبير الذي زار الاسكندرية في سنة ٥٧٨ هـ – أي في زمن صلاح الدين – فيصف كثرة المساجد بها فيقول : وهي أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقل ، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر الف مسجد ، والمقل دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مركبة ، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان »[٢] .

وقد أشار ابن خزيمة أيضاً إلى عدد المساجد فقال : « وبها ثمانمائة مسجد ، منها مائة وتسعون للخطبة »[٣] .

هذه الأقوال المتضاربة في تقدير عدد المساجد ، تشير بلا ريب إلى كثرة المساجد في الاسكندرية كثرة غير عادية ، دهش لها المؤرخون والزائرون .

وظلت عناية الأيوبيين بتعمير الاسكندرية مستمرة بعد صلاح الدين على نفس السياسة حتى نهاية القرن السادس الهجري ، ولعله من حسن طالع الإسكندرية أن الذي ولي أمر مصر بعد صلاح الدين ابنه العزيز عثمان الذي سبق أن زار الاسكندرية في صباه ، وتكونت له صلات وذكريات روحية

١ – « صبح الأعشى » : ٣ / ٤٠٨ .
٢ – « رحلة ابن جبير » : ص ٤٣ .
٣ – نقلا عن « تاريخ مدينة الأسكندرية » : ص ٨١ .

خاصة ، فهو قد سمع الحديث فيها سع والده من صاحبنا الحافظ « السلفي » سنة ٥٧٢ ه ، ومن الفقيه المالكي ابن عوف سنة ٥٧٧ ه . وقد ذكر المقريزي[١] أنه تردد على زيارتها أثناء حكمه لمصر ، وأنه خرج لزيارتها والتمتع بالصيد في صحرائها في سنة ٥٩٥ ه ، وهي الزيارة التي عثر فيها فرسه أثناء جريه وراء ذئب ، فوقع عن ظهره مما كان ذلك سبباً في وفاته [٢] .

الحالة الاقتصادية

كان لموقع الإسكندرية الجغرافي الممتاز أثر كبير في نمو الحركة التجارية فيها على مر العصور ، فهي تقع على شواطىء البحر المتوسط في منتصف الطريق التجاري بين الشرق والغرب ، مما جعل منها مركزاً تجارياً هاماً يجلب لأهله الخير والثراء والمال .

ولقد ازدهرت التجارة في الاسكندرية في القرن السادس الهجري (١٢ م) بشكل واضح ، فقد كانت ميناء مصر الوحيد الذي تطل سنه على البحر المتوسط ، والذي يحمل إليه صادرات البلاد كالكتان والشب والغلال والسكر وغيرها من الأصناف ، ويتجمع فيه ما ينقل إلى مصر من بهارات الهند وعطورها ، تمهيداً لنقلها إلى أسواق البلدان التجارية في أوربا ، أو لبيعها للتجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون لشرائها . كما كانت الاسكندرية أيضاً الميناء الوحيد الذي يستقبل ما تستورده مصر من بلاد أوربا كالحديد والخشب الذي يحتاج إليه في تعمير الأسطول وبناء السفن ،

---

١ — « السلوك » : أحداث سنة ٥٩٥ ه.

٢ — « الكامل » : ١٢ / ٥٤ .

وغير ذلك من الأصناف .

وقد أشار ابن مماتي في كتابه « قوانين الدواوين » إلى الحركة التجارية في الاسكندرية ، فقال : « وفي مسرى جريان النيل بخليج الاسكندرية تسير المراكب إليه بالشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك ، وفيه يحمل من ثغر الاسكندرية المحروس إلى الباب العزيز من الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب »[1] .

وذكر الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي وصفاً مسهباً لتجارة الاسكندرية الخارجية وعدد البلدان الأوربية التي كانت تتعامل معها ، ومما ورد في كلامه قوله : « وتأتيها (الاسكندرية) من الهند التوابل والعطور بأنواعها يشتريها تجار النصارى » . ويعلق الدكتور الشيال على عبارة بنيامين هذه فيقول : وتخصيص بنيامين توابل الهند وعطورها بالذكر يدل دلالة واضحة على أن هذه الأصناف كانت أهم تجارات الاسكندرية في ذلك العصر ، ويؤيد هذا أن أحد أبواب الاسكندرية في هذا العصر العربي وهو « باب سدرة » كان يسمى باب البهار ، لأن بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة كان يحمل منها في سفن تسير في النيل ، ثم في خليج الاسكندرية حتى تفرغه خارج الاسكندرية عند هذا الباب . وفي الأوقات التي كان يتعطل فيها الخليج ، ويتعذر على السفن السير فيه ، كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال تأتي إلى الاسكندرية عن طريق البر وتدخل من باب سدرة أو باب البهار .

وكان من الطبيعي أن يستفيد كثير من أهل الاسكندرية من قدوم

---

١ — « قوانين الدواوين » : ص ٢٤٨ .

التجار الأجانب إلى مدينتهم ، فأنشأوا الفنادق الكثيرة بحيث أصبح يستطيع تجار كل بلدة النزول في فندق خاص بهم .

وقد كانت هذه الفنادق مباني فخمة تتكون من عدة طوابق ويلحق بها بعض المرافق العامة التي توفر الراحة لنازليها كالحمامات والمخابز وغيرها . وكانت هذه الفنادق نفسها مركزاً من المراكز التجارية في المدينة ، تتخذ طوابقها العليا للسكن وطوابقها السفلى للتجارة . يقول بنيامين التطيلي الرحالة اليهودي في وصفها « ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم ، وهم في ضجة وجلبة ، يبيعون ويشترون » .

وكان في الاسكندرية في هذا العصر بعض الصناعات التي تصدر منها للخارج كصناعة الزجاج الذي عرفت به المدينة قبل هذا القرن . وكصناعة المنسوجات الحريرية التي كانت تنتجها « دار الطراز » والتي أشار إليها القلقشندي نقلا عن ابن الأثير بقوله : « وبها القماش الذي ليس له نظير في الدنيا » [1] .

وقد انتعشت الحياة الاقتصادية في الاسكندرية في عهد صلاح الدين وخلفائه نتيجة لتلك الاجراءات الاقتصادية التي ألغى بموجبها نظام الاقطاع الذي ساد عهد الفاطميين مما كان له أسوأ الأثر في حياة البلاد الاقتصادية ، وحطم نظام الاحتكار الذي كان يتمتع به بعض الوزراء وكبار رجال الدولة والمقربون من التجار [2] ، وسمح للتجار الأوربيين بالدخول إلى البلاد والاتصال بتجار المسلمين وتبادل التجارة معهم [3] ، وخفضت الضرائب

---

١ – « صبح الأعشى » : ٣ / ٤٠٨ .
٢ – « وفيات الأعيان » : ٣ / ٢٨١ .
٣ – « رحلة ابن جبير » : ٢٨٨ .

الجمركية على كثير من أنواع التجارة الداخلية في مصر والشام ، وعقدت بعض المعاهدات التجارية مع بعض الدول الأجنبية كالبندقية وغيرها [1] .

كل هذه الاجراءات أدت – بلا شك – إلى إنعاش الحركة التجارية في أسواق الاسكندرية ، وزيادة عدد الوافدين إليها . وقد أشار ابن جبير الذي زار الاسكندرية في عهد صلاح الدين إلى سوق الاسكندرية بقوله : « وأسواقها في نهاية من الاحتفال » [2] .

ولكن – وعلى الرغم من هذا الرخاء الاقتصادي الذي نعمت به الاسكندرية طوال هذا القرن – فقد تعرضت لعدة هزات اقتصادية عنيفة خلال السنوات الخمس الأخيرة من هذا القرن ، أدت إلى كساد تجاري كامل وإلى مجاعة رهيبة أتت على الأخضر واليابس ، وذهبت بكل مظاهر الحياة العادية في المدينة ، فماتت أعداد كبيرة من الناس ، وهاجر كثيرون إلى بَرقة والمغرب وغيرهما أملا في الحياة وهروباً من الموت .

وكان أعنف تلك الهزات الاقتصادية ، وأشد تلك المجاعات التي أصابت المدينة هي التي حدثت في سنة ٥٩٧ هـ في زمن السلطان العادل ، فقد هبطت مياه النيل ، فمات الزرع ، وجفت الأرض ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الغلاء ، وكثر الموت ، وافترس الناس بعضهم . وقد وصف المؤرخ عبد اللطيف البغدادي هذه المجاعة التي حلت بمصر كلها وصفاً تفصيلياً تقشعر لهوله الأبدان ، ومما ورد في وصفه قوله : « ودخلت سنة ٥٩٧ هـ مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار ، وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ، وهربوا من

١ – « كتاب الروضتين » : ٢٥٠ .
٢ – « رحلة ابن جبير » : ٤١ .

خوف الجوع ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد ، ووقع الموت ، وأكل الناس الميتة والجيف والكلاب والبعر وروث البهائم ، وصغار الأطفال وكبار النساء والرجال »[1] .

وقد نقل المقريزي عن سبط ابن الجوزي وصفاً آخر لهذه المجاعة فقال : « كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا ، وكان الرجل يدعو صديقه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك ، فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم ، وكفّن السلطان في مدة يسيرة مائتين وعشرين ألفاً ، وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس »[2] .

ويبدو مما ذكره المؤرخون عن هذه المجاعة ، أن الاسكندرية كانت أشد المدن المصرية تضرراً بها . يقول البغدادي : « وخبرني بعض أصحابي — وهو تاجر مأمون — حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، وأعجب ما حكى أنه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحد بالتوابل الجيدة »[3] . وقال ايضاً : « وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ، وأن تركة واحدة انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثاً ، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على

---

١ — «مختصر أخبار مصر » ٢١٠ ، وانظر أيضا : «النجوم الزاهرة» : ٦/١٧٣-١٧٤ .
٢ — « النجوم الزاهرة : ٦ / ١٧٣ ، ١٧٤ . وانظر « مرآة الزمان » : ٨ / ٤٧٧ .
٣ — « مختصر أخبار مصر » : ٢٣٠ .

عشرين ألفاً انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها »[1].

ولكن هذه المحنة القاسية انقضت وزال كابوسها الرهيب في سنة ٥٩٩ هـ ، وبدأت تستعيد الاسكندرية أنفاسها ، وتستأنف حياتها من جديد ، وإذ بها تبدأ مع بداية القرن السابع مدينة عامرة تزدحم المراكب التجارية على رصيفها ، ويمتلىء سوقها بالتجار الأجانب .

الحالة الاجتماعية

كان طبيعياً لنمو الحركة التجارية وما جلبته لأهل الاسكندرية من رخاء ، وما تجمع لديهم من أموال ، أن يظهر أثر ذلك في تقدم المدينة وتجميلها وازدياد عمرانها ، وارتقاء الحياة المعيشية والاجتماعية لساكنيها ، وفي ظهور ألوان من الرفاهية والثراء فيها . وقد وضح هذا جلياً – بلا شك – في حياة الناس العامة . فالأغنياء وكبراء المدينة أخذوا يقلدون الخلفاء والوزراء في القاهرة ، فبنوا لأنفسهم قصوراً فخمة رائعة البناء تحيط بها الحدائق الجميلة المنسقة ، وعاشوا فيها عيشة مترفة منعمة ، وأنشأوا المنتزهات الأنيقة التي يقضون فيها أوقات راحتهم ولهوهم ، وأيام أعيادهم ومواسمهم . يقول القلقشندي في وصف الاسكندرية نقلا عن ابن الأثير : « ويشرب أهلها من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخلها ، وبجنبات تلك الآبار والصهاريج بالوعات تصرف بها مياه الأمطار ونحوها ، وبها البساتين الأنيقة والمنتزهات الفائقة ، ولهم بها الجواشن[2] الدقيقة المحكمة الجدر والأبواب ، وبها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من

١ – المصدر السابق : ٢٦٠ .
٢ – القصور .

الديار المصرية »[1] .

وقد وصف ابن جبير مدينة الاسكندرية عند زيارته لها في هذا القرن فقال : « وأول آثارها حسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى أنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه »[2] . ثم أشار إلى حياة أهلها فقال : « وأما أهل بلده – أي ثغر الاسكندرية – ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيفة البتة »[3] .

ولعل ما رواه المقّري في كتابه « نفح الطيب » عن حياة القاضي مكين الدولة ، ما يصور لنا حياة أهل الاسكندرية في هذا القرن أصدق تصوير ، يقول : « وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد بن الحسن بن حديد[4] له مروءة عظيمة ، ويحتذي أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ، ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصلت وغيرهما ، وكان له بستان يتفرج فيه ، وبه جرن كبير من الرخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يرى فيه نفسه زيادة على أهل التنعم والمباهات في عصره ، فوشي به « للبدوية » محبوبة « الآمر » فسألت « الآمر » في حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد في احضار الجرن ، فلم يجد بداً من حمله من البستان ، فلما صار إلى (الآمر) أمر بجعله في الهودج[5] ، قلق ابن حديد ، وصارت في قلبه حوازة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم « البدوية » وجميع من يلوذ بها

١ – « صبح الأعشى » : ٣ / ٤٠٨ .
٢ – « رحلة ابن جبير » : ص ٤٠ .
٣ – نفس المصدر السابق : ص ٤٢ .
٤ – هو قاضي الإسكندرية في زمن الخليفة الفاطمي (الآمر). ترجم له السلفي في « معجم السفر » : الورقة ٣٥ ب .
٥ – اسم منتزه من المنتزهات البديعة بناه الخليفة « الآمر » لمحبوبته « البدوية » في جزيرة الروضة .

بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة ، ولما أرادت « البدوية » أن تفعل له شيئاً عند الخليفة ، وأرسلت اليه بأن يكلفها بشيء طلب منها الجرن فردته إليه »[1] .

وذكر المقّري عن هذا القاضي قصة أخرى تصور جانباً آخر من جوانب حياة الأغنياء في الاسكندرية ، وكيف كانوا يقتنون في بيوتهم التحف الفنية والطرف الثمينة التي تدل على ما وصل إليه السكندريون من حياة البذخ والترف والنعيم . قال : « وكان هذا المكين متولي قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الخليفة « الآمر » ، وبلغ من علو همته وعظيم مروءته ، أن حيدرة « أخا الوزير المأمون بن البطائحي ، لما قلده « الآمر » ولاية ثغر الاسكندرية سنة ٥١٧ هـ ، وأضاف إليها الأعمال البحرية ووصل إلى الثغر ، وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضي المذكور ، فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي إلى داره لإحضار الشمع ، فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا وقد أحضر حقاً مختوماً ، ففك عنه ، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف[2] بلور فيه ثلاثة بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر ، بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته ، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضي ذلك بالغ في شكر إنعامه ، وحلف بالحرام إن عاد إلى مكانه ، فكان جواب « المؤتمن » : قد قبلته منك لا لحاجة إليه ، ولا لنظر في قيمته ، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها . وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار »

---

١ – « نفح الطيب » : ٣ / ٦٠ (طبعة محيي الدين) .
٢ – وعاء يختلط فيه أنواع الطيب .

ويبدو أن هذه القصة أثارت دهشة المقّري فعلق عليها بقوله · « فانظر — رحمك الله — إلى من يكون دهن الشمع عنده في إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه ، فماذا تكون ثيابه وحلي نسائه وفراش داره ، وغير ذلك من التجميلات ، وهذا إنما هو حال قاضي الاسكندرية ، ومن قاضي الاسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة»[1].

وكان أهل الاسكندرية — كغيرهم من أهل مصر — يقيمون الاحتفالات الكثيرة التي اشتهر بها العهد الفاطمي والتي عدد منها المقريزي ثمانية وعشرين عيداً في كل عام[2] ، أراد الفاطميون من ورائها إظهاراً لعظمتهم وتوطيداً لحكمهم . يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : « كان الفاطميون من الحذق والمهارة بحيث استطاعوا أن يلفتوا إليهم نظر الشعب المصري لفتاً قوياً ، وأن يشعروه بعظمة الحاكم الفاطمي ، وكرم رجاله إلى الحد الذي لم تعرف له مصر نظيراً قبل مجيء هذه الدولة . فاهتموا بالمواسم العامة وزادوا في بهجة الرعية ، وتوددوا إليها ، وملأوا أفواه زعمائها وشعرائها وعلمائها وسادتها ، ومنحوهم أثمن الفرص لإظهار سرورهم وفرحهم »[3] .

هذه صورة مبسطة للحياة التي كان يحياها أهل الاسكندرية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وهي لا شك تشير إلى ما كان يتمتع به أهل المدينة من حياة منعمة ورخاء وثراء ، ولا غرابة في ذلك فالأموال لديهم كثيرة ، والبلدة لا تزال تحتفظ بكثير من جمالها العمراني القديم ، وعصرهم عصر اهتمام بمظاهر العمارة والبناء ، واحتفاء بالمواسم والأعياد ، واعتناء بالزخرفة والفن المعماري الأندلسي .

---

١ — « نفح الطيب » : ٣ / ٦٠ .
٢ — « الخطط » : ٢ / ٣٨٤ .
٣ — « الحركة الفكرية في مصر » : ٥٦ .

المذهب الديني

كان المذهب الرسمي الذي يدين به أهل الاسكندرية ومصر في مطلع هذا القرن الذي نتحدث عنه لا زال هو المذهب الفاطمي الشيعي الذي أقام عليه الخلفاء الفاطميون خلافتهم على أساس منه منذ وطئت أقدامهم أرض مصر ، فمكنوا له في البلاد بكل وسائل الدعاية والتمكين ، وحملوا الناس على اعتناقه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، وبتقديم أتباعهم على من سواهم في وظائف الدولة ومناصبها العالية ، وبالتشكيك في عقيدة أهل السنة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان قد استجاب لهذا المذهب كثير من المصريين ، وتظاهر بالاستجابة من رأي له مصلحة في ذلك ، كما أعرض عنه الكثيرون الذين احتفظوا بسنيتهم في الخفاء .

وقد ظل المذهب الفاطمي قوياً مسيطراً طوال عهد الفاطميين الأقوياء ، فلما بدأ الضعف يتسرب إلى الخلافة منذ زمن الخليفة المستنصر (٤٢٧ هـ — ١٠٣٥ م) فتر الخلفاء عن مناصرة دعاة المذهب ، مما أدى إلى تخفيف نفوذه ، وإلى إتاحة قليل من الحرية الدينية مما أدى إلى عودة الناس إلى عقيدة أهل السنة بالتدريج .

وكانت الاسكندرية أول المدن المصرية التي أخذت تتحفف من الارتباط بالمذهب الفاطمي تدريجياً منذ بداية ضعف الخلافة ، وذلك لأسباب كثيرة ، منها ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين في هذه الفترة ، حيث سلبهم الوزراء كل صلاحياتهم ، وغدوا غير قادرين على التحكم حتى في شؤونهم الخاصة ، ومنها بُعد الاسكندرية عن القاهرة مركز الخلافة وكبار الدعاة

والحاشية والمتملقين لذوي الجاه والسلطان ، ومنها كثرة اختلاط السكندريين بالأندلسيين والمغاربة — وكلهم من أهل السنة — الذين كانوا يقيمون عندهم أياماً يستريحون فيها من وعثاء السفر ومتاعب الطريق أثناء ذهابهم إلى الحج أو بعد عودتهم منه . وقد كان لذلك الاختلاط أثر واضح في انتشار مذهب مالك في المدينة ، وهو المذهب الغالب على الأندلسيين والمغاربة .

ومع إطلالة القرن السادس الهجري (١٢ م) أصبحت الاسكندرية مناخاً صالحاً لعودة عقيدة أهل السنة بشكل واضح وقوي ، فقد أصبح في مقدور كل عالم سني أن يقيم فيها ، وأن يدرّس ما يشاء دون تخوف من بطش أمير أو جور خليفة . ولهذا نرى الاسكندرية منذ بداية القرن السادس تصبح مقراً لكثير من العلماء المحدثين كأبي عبد الله الرازي والحافظ « السلفي » ، والفقهاء المشهورين كالطرطوشي وتلميذه ابن عوف وغيرهما ، ويبني فيها المدارس السنية قبل أن تعرف مصر كلها المدارس كمدرسة الفقيه ابن عوف التي بناها له الوزير رضوان بن ولخشي وزير الخليفة « الحافظ » سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٧—١١٣٨م ، وكالمدرسة «السلفية» التي بناها العادل السلاّر وزير الخليفة « الظافر » في سنة ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م .

ولقد أدى انتشار عقيدة أهل السنة في الاسكندرية إلى اشتراك السكندريين في مجابهة عسكرية ضد أنصار المذهب الفاطمي في موقفين واضحين ، يعتبران أولى ضربات أهل السنة الموجهة إلى تقويض المذهب الفاطمي من داخل مصر ، أولاهما حين خرج أهل الاسكندرية مع والي مدينتهم السني العادل بن السلاّر متوجهين إلى القاهرة لقتال الوزير ابن مصّال وزير الخليفة « الظافر » ، وثانيهما حين رحبوا بمقدم جيوش الشام السنية إلى مدينتهم بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ووقفوا

يقاتلون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي « شاور » الذي حاصر مدينتهم محاولا القضاء على صلاح الدين ومن معه من جنود الشام .

ولما زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١م زال معها المذهب الديني الفاطمي ، وأصبحت الاسكندرية - ومصر كلها - تدين بمذهب أهل السنة وهو المذهب الذي تبنته الدولة الأيوبية وعملت على سرعة إعادته بكل وسائل الدعاية الممكنة .

الحالة الفكرية والثقافية

شهدت مصر - عامة - في عهد الفاطميين نهضة علمية وفكرية واسعة ، شملت معظم ألوان المعرفة السائدة في عصرهم كاللغة والأدب والنحو والحديث والفقه والفلسفة والطب والكيمياء وغيرها ، وذلك نتيجة لاهتمام الفاطميين باستقطاب أرباب الفكر والقلم واللسان حولهم ، ليستعينوا بهم في إظهار عظمتهم ومفاخرهم ، وليجعلوا من القاهرة مركزاً علمياً وثقافياً يتفوق على بغداد مركز الخلافة العباسية ، فبنوا دور العلم والحكمة ، وأشادوا المكتبات العظيمة كمكتبة القصر الشهيرة التي أكثر المؤرخون من وصفها والتحدث عن نفائس الكتب التي كانت موجودة فيها . قال المقريزي : بلغ عدد كتبها مائتي ألف مجلد[١] ، وأن خزانة واحدة من خزائنها كانت تحوي ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة[٢] . واتخذوا من قصورهم مجالس للعلماء ، وأكثروا من تنظيم الدروس ، وإلقاء المحاضرات لإقناع الناس بدعوتهم وشرح قواعد وأصول مذهبهم

١ - « الخطط » : ٢ / ٢٥٥ .
٢ - نفسه : ٢/ ١٥٤ ، ١ / ٤٠٩ .

« فكان للرجال يوم الأحد ، وللنساء يوم الأربعاء ، وللأشراف ذوي الأقدار يوم الثلاثاء »[1] ، وأغدقوا النوال على الشعراء والأدباء ليتخذوا منهم أبواق دعاية ووسائل إعلام لتثبيت خلافتهم وإقناع الناس بمذهبهم الشيعي ، مما كان لذلك أثر كبير في ازدهار الشعر ورواج سوقه ، وكثرة الشعراء المدّاحين والمتكسبين الذين أخذوا يزدحمون على أبواب الخلفاء ، ليقولوا في مديحهم القصائد الطوال .

ولما قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الخلافة الفاطمية ، استمرت الحركة الفكرية والثقافية في ازدهارها وتشجيع القائمين عليها ، فالسلطان صلاح الدين وخلفاؤه كانوا محبين للعلم والعلماء ، فأولوا الدراسات الإسلامية اهتماماً بالغاً ، وبنوا لها المدارس الكثيرة في كل مكان ، واهتموا بالدارسين فيها[2] ، ولقي رجال العلم في رحاب ملكهم كل تقدير وإجلال ، وقدموا على غيرهم في المجالس ،واتخذ منهم الوزراء والمستشارون والأمناء كالقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني والقاضي ابن شداد وغيرهم . ولقي الشعراء في ظلهم تشجيعاً كبيراً . ووجدوا في حروبهم وانتصاراتهم مجالا واسعاً للمديح والثناء ، ووصف المعارك والتحدث عن البطولات .

والاسكندرية – كبيئة من تلك البيئات العلمية والفكرية في مصر – نراها قد تمتعت في ظل الفاطميين والأيوبيين في القرن السادس الهجري (١٢ م) بنشاط علمي وثقافي واسع ، فهي كانت في هذه الفترة مستقراً لعدد كبير من المحدثين والفقهاء ، والنحاة وعلماء القراءات ، والشعراء

---

١ – نفسه : ٢ / ٢٢٢ .

٢ – أنظر « رحلة ابن جبير » : ٤٢ .

والكتاب ، وكان بها مدرستان وعدد كبير من المساجد ، [1] التي كانت عامرة بالدروس والمحاضرات ، كما كانت أيضاً ملتقى للفكر والأدب والثقافية الاسلامية بين علماء المسلمين ، الذين وفدوا إليها من بلاد الشام بعد احتلال الصليبيين لبلادهم ، أو الأندلسيين الذين نزحوا إليها نتيجة تلك الحروب والاضطرابات التي سادت بلادهم ، أو الصقليين الذين احتل النورمانديون جزيرتهم ، أو حجاج الأندلس والمغاربة الذين كانوا يستريحون أياماً أثناء ذهابهم إلى الحج أو في طريق عودتهم منه .

وفي زمن صلاح الدين ازداد نشاط الدراسات الإسلامية في الاسكندرية نشاطاً ملحوظاً ، فصلاح الدين نفسه أكرم علماءها ، وتردد على مجالسهم لسماع الحديث منهم ، كما فعل في زيارته للحافظ « السلفي » في مدرسته سنة ٥٧٢ ﻫ ، وكما فعل مع الفقيه ابن عوف حين ذهب فسمع عليه موطأ مالك في ٥٧٧ ﻫ . وبنى فيها مدرسة كبيرة جامعة للطلاب الوافدين من الخارج ، يتلقى فيها الطالب أي علم يريد ، واهتم اهتماماً بالغاً بأولئك الدارسين الوافدين فبنى لهم المساكن السكنية ، وألحق بها حمامات للاستحمام فيها ، وبنى لهم مستشفى للعلاج ، يشرف عليه أطباء ومساعدون ليتفقدوا أحوالهم . وأعاد ضريبة الصادر [2] على تجار النصارى ، ورتب واردها دنانير تصرف في كل شهر على فقهاء الثغر وعلمائه [3] .

والمتصفح للكتب التي تحدثت عن الحركة الفكرية والثقافية في مصر عامة في عهد الفاطميين والأيوبيين « كحسن المحاضرة » للسيوطي ،

---

١ – راجع ما تقدم عن مظاهر العمران في المدينة .

٢ – هي ضريبة كانت تفرض على تجارة النصارى من الإسكندرية زائداً على العشر وكانت توزع حصيلتها على فقراء الثغر وعلمائه .

٣ – « الديباج المذهب » : ٩٦ .

و « خريدة القصر » للعماد الأصفهاني ، « ومعجم السفر » للسلفي وكثير من كتب التراجم المشرقية والأندلسية يلحظ بكل وضوح تلك الحركة الفكرية والثقافية المزدهرة التي كانت تتمتع بها مدينة الاسكندرية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، والتي يمكن – بناء عليها – أن يقال إن هذا القرن كان أخصب القرون الأدبية والفكرية في عهد الفاطميين والأيوبيين .

ولعل في ذكر بعض أولئك الأعلام الذين أقاموا في مدينة الاسكندرية وشاركوا – كل في مجال اختصاصه – مشاركة فعالة في إنعاش تلك الحركة العلمية الفكرية ، ما يعين على تصور حقيقتها ومدى ازدهارها في تلك الفـــترة .

فمن علماء الحديث نذكر صاحبنا أبا طاهر « السلفي » – صاحب هذه الدراسة – الذي جعل من الاسكندرية مركزاً من أهم المراكز التي يرحل إليها في علم الحديث [1] ، والمحدث أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الرازي المعروف بابن الحطاب صاحب السداسيات الذي روى عنه أبو طاهر « السلفي » وخرج له السداسيات . وتوفي في جمادى الأولى سنة ٥٢٥ هـ [2] ، والمحدث أبا محمد عبد الله بن يحيى العثماني الديباجي محدث الاسكندرية بعد « السلفي » في الرتبة ، روى عن أبي القاسم بن الفحام وآخرين ، وتوفي سنة ٥٧٢ هـ ، والمحدث أبا القاسم عبد الرحمن بن مكي بن حمزة التاجر ، مسند الاسكندرية وآخر من حدث عن أبي عبد الله الرازي ، ومات في ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ وله أربع وتسعون سنة .

---

١ – انظر فصل « السلفي في الإسكندرية »

٢ – « العبر » : ٤ / ٦٥ .

والحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي الذي صاحب « السلفي » ثلاث سنوات في الاسكندرية ، وتوفي سنة ٦٠٠ هـ .

ثم يأتي بعد أولئك تلاميذ « السلفي » الذين تابعوا تدريس الحديث واشتهروا بروايته من بعده ، ومنهم الحافظ أبو الحسن علي بن فاضل بن سعد الصوري المتوفي سنة ٦٠٣ هـ ، والحافظ أبو الحسن علي بن المفضل بن علي المالكي تلميذ « السلفي » الذي تولى التدريس في المدرسة « السلفية » بعد وفاة شيخه ، وتوفي سنة ٦١١ هـ ، وعبد الرحمن بن عبد الجبار العثماني الاسكندراني التاجر المتوفي سنة ٦١٤ عن سبعين سنة ، وأحمد بن عبد الله بن أبي الحسن بن حديد الاسكندراني المالكي المتوفي سنة ٦١٩ هـ ، وأبو محمد عبد الوهاب ابن ظافر بن علي بن فتوح الاسكندراني المالكي المتوفي سنة ٦٤٨ هـ ، وأبو منصور مظفر بن السري ابن عبد الملك بن عتيق الفهري المتوفي سنة ٦٤٨ هـ ، وهبة الله بن محمد بن الحسن بن مفرج ويعرف بابن الواعظ المتوفي سنة ٦٥٠ هـ ، وسبط « السلفي » أبو القاسم عبد الرحمن ابن مكي بن عبد الرحمن الذي انتهى إليه علو الإسناد بمصر وتوفي سنة ٦٥١ هـ . وغير هؤلاء كثير ممن كان أكثر نشاطهم في القرن السابع الهجري .

أما علماء القراءات فكان منهم الحسن بن خلف بن عبد الله بن بَلِّيمه نزيل الاسكندرية ومصنف كتاب « تلخيص العبارات في القراءات » ، والذي عني بالقراءات وتقدم فيها ، وتصدر للإقراء مدة ومات في الاسكندرية في رجب سنة ٥١٤ هـ ، وعبد الرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف المعروف بابن الفحام صاحب كتاب « التجريد في القراءات » والذي انتهت إليه رئاسة الإقراء في الاسكندرية علواً ومعرفة ، وتوفي في ذي القعدة سنة

٥١٦ هـ [١] ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن خلف المقرىء الذي قرأ على ابن الفحام وابن بلّيمة وقرأ عليه أبو القاسم الصفراوي وروى عنه علي بن المفضل الحافظ ، وتوفي قريباً من سنة ٥٧٢ هـ ، وأبو محمد القاسم بن فيره ابن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الذي سمع بالاسكندرية من « السلفي » ثم استوطن القاهرة وانتهت إليه فيها رئاسة الإقراء وتوفي سنة ٥٩٠ هـ ، وأبو القاسم عيسى بن عبد العزيز الشريشي المقرىء ، سمع « السلفي » وغيره وتصدر للإقراء مدة وتوفي سنة ٦٢٩ هـ ، وأبو القاسم عبد الرحمن الصفراوي الفقيه المالكي الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء والإفتاء وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٣٦ هـ ، وأبو الفضل جعفر بن علي الهمذاني الذي تصدر للإقراء وتوفي سنة ٦٣٦ هـ .

آما الفقهاء – وأغلبهم مالكيون – فكان منهم الفقيه المشهور أبو بكر الطرطوشي الأندلسي نزيل الإسكندرية الإمام الزاهد صاحب كتاب « سراج الملوك » وتصانيف أخرى كثيرة وأحد الأئمة الكبار الذين كان لهم أثر كبير في حياة الإسكندرية الفقهية وتوفي سنة ٥٢٥ هـ . والفقيه المالكي سند [٢] بن عنان تلميذ الطوطوشي الذي جلس في حلقته بعده وانتفع الناس به ، وألف كتاباً في الفقه سماه الطراز شرح به « المدوّنة » في فقه مالك ، وكان فقيهاً فاضلا ، توفي سنة ٥٤١ هـ ، وأبو طاهر إسماعيل [٣]

---

١ – « العبر » : ٤ / ٢١٤ ، « غاية النهاية » : ١ / ٤٢٨ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٣٧٥ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٤١ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٨٠ ، « لسان الميزان » : ٣ / ٣٠٩ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ٣٩٧ .

٢ – « الديباج » : ١٢٦ .

٣ – « الديباج » : ٩٥ – ٩٦ .

ابن مكي بن عوف الزهري تلميذ أبي بكر الطرطوشي ، وكان قد برع في مذهب مالك وقصده صلاح الدين وسمع عليه الموطأ ، وكان له مصنفات ، وتوفي في شعبان سنة ٥٨١ هـ عن ست وتسعين سنة ، قال عنه ابن فرحون « كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهد »[١] ، وأبو القاسم بن مخلوف[٢] المغربي الذي كان أحد الأئمة الكبار في مذهب مالك ، واستوطن الإسكندرية وتفقه به أهلها وتوفي سنة ٥٣٣ هـ ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحضرمي[٣] المالكي المتوفي في سنة ٥٨٠ هـ ، وأبو الحسن الأبياري علي بن إسماعيل ابن علي[٤] أحد العلماء المشهورين ، برع في علوم كثيرة كالفقه والأصول والكلام ، وكان قد تفقه على ابن عوف ودرس في الاسكندرية وانتفع الناس بفقهه وتوفي سنة ٦١٨ هـ ، وكان من فقهاء المالكية أيضاً من سبقت الإشارة إليهم في علم القراءات أمثال أبي الفضل الهمذاني وعبد الرحمن الصفراوي وابن الحاجب .

وأما فقهاء المذاهب الأخرى — وكانوا قلة — فكان منهم هبة الله[٥] ابن سعد بن عبد الكريم القرشي الشافعي المعروف بابن البوري ، الذي درس بمدرسة السِّلفي وتوفي سنة ٥٩٩ ، وعلم الدين السخاوي[٦] الفقيه الشافعي ، وعبد المعطي بن مسافر[٧] بن يوسف الحجاج الفقيه الحنفي الذي

---

١ — « حسن المحاضرة » : ١ / ٢١٤ .
٢ — نفسه : ١ / ٢١٤ .
٣ — نفسه : ١ / ٢١٤ .
٤ — نفسه : ١ / ١٩٠ .
٥ — نفسه : ١ / ١٩٢ .
٦ — نفسه : ١ / ٢٩١ .
٧ — « التكملة » (لابن الأبار) : ١ / ٢٠٣ .

سمع منه « السِّلفي » بالإسكندرية ، والحافظ عبد الغني المقدسي الفقيه الحنبلي – الذي سبقت الإشارة إليه مع الحفاظ .

وكان في الإسكندرية من علماء العلوم العقلية والفلسفية أبو الصلت أمية بن عبد [1] العزيز بن أبي الصلت الداني الأندلسي . قال عنه الذهبي : « كان ماهراً في علوم الأوائل ، رأساً في معرفة الهيئة والنجوم والموسيقى والطبيعيات والعلوم والرياضة ، كثير التصانيف ، بديع النظم ، مات سنة ٥٢٨ هـ عن ثمان وستين سنة . وكان فيها أيضاً الرشيد بن الزبير الذي ذكره « السِّلفي » بقوله : ابن الزبير هذا من أفراد الدهر فضلا في فنون كثيرة من العلوم ، ولّي النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين السلطانية ، وله تواليف ونظم التحق فيها بالأوائل المجيدين ، قتله « شاور » ظلماً وعدواناً في المحرم سنة ٥٦٣ هـ .

أما الشعراء الذين عاشوا في الإسكندرية في القرن السادس فقد ذكر الكثير منهم « السِّلفي » في « معجم السفر » ، والعماد الأصبهـاني في « الخريدة » ، والسيوطي في « حسن المحاضرة » ، وابن سعيد في « المغرب » وأبو الصلت أمية في « الرسالة المصرية » ، وابن خلكان في « وفيات الأعيان » والصفدي في « الوافي بالوفيات » ، وابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » ، والقفطي في « إنباه الرواة على أنباه النحاة » ، وياقوت في « معجم الأدباء » وغير هؤلاء من أصحاب التراجم الذين عنوا بالكتابة عن مشاهير الأدباء والشعراء في تلك الفترة .

وأذكر من هؤلاء الشعراء أبا الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي

---

١ – « معجم السفر » : ٢٢ ب (مخطوط بيتى) . « حسن المحاضرة » : ١ / ٢٥٩ .

الذي مر ذكره في علماء العقليات ، وظافر بن القاسم الحداد الجذامي [1] الذي قال عنه السِّلفي : « كان من مفلقي شعراء ديار مصر ، وأنه ما عرف له قط خَرْبة كمثل الشعراء وتوفي سنة ٥٢٨ هـ » ، والرشيد بن الزبير الأسواني الذي ذكر في علماء المعقولات ، وأخاه الحسن بن علي بن إبراهيم الأسواني المعروف بالمهذّب بن الزبير ، وعبد الله بن مخلوف المعروف بابن قلاقس [2] ، قال عنه ابن خلكان : (كان شاعراً مجيداً ، صحب « السِّلفي» وانتفع به) . له ديوان شعر فيه قصائد كثيرة في مدح « السِّلفي » ، وتوفي سنة ٥٦٧ هـ عن خمس وثلاثين سنة ، والشاعرة تقية بنت غيث [3] ابن علي الصورية التي ذكرها « السلفي » بقوله : « ولم تر عيني شاعرة قط سواها » ، والشاعر أبا محمد عبد العزيز بن توهيب المتوفي سنة ٥٢٢ هـ ، وأخاه عبد الوهاب بن توهيب [4] ، الشاعر المفلق المتوفي سنة ٥٤٧ هـ ، وأبا محمد عبد الكريم بن علي بن الطفال القضاعي النحوي الكفيف ، والشاعر علي بن عياد [5] المعروف بابن القيم الذي وصفه « السِّلفي » بأنه كان من فحول الشعراء وقتل سنة ٥٢٦ هـ ، والفقيه أبو بكر الطرطوشي الذي ذكر مع فقهاء الإسكندرية ، وغير هؤلاء كثيرون ممن هم أقل جودة في أشعارهم ممن ذكرناهم .

---

١ – « معجم السفر » : ص ٩٩ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٢٦٩ ، انظر الخريدة : ٢ / ٣ .

٢ – « حسن المحاضرة» : ١ / ٢٧٠ .

٣ – « معجم السفر» : ص ١٧ (بيتى) ، وانظر ترجمتها في «وفيات الأعيان» : ١/٢٦٦ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٦٥ ، « تكملة وفيات النقلة » الورقة ٨٤ ب (كامبردج) و « معجم الأدباء» : ٣/ ١٠٠ .

٤ – « معجم السفر » : ٢٢٨ .

٥ – «معجم السفر » : ٣٠٠ .

هذه صورة مبسطة للحياة الفكرية والثقافية للإسكندرية في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، أردت من عرضها ، وذكر أهم الأعلام الذين شاركوا فيها أن أبين مدى ازدهار هذه الفترة وتفوقها في الفكر والثقافة والأدب .

مشاركة الاسكندرية وتأثيرها في الأحداث السياسية

كان لموقع الإسكندرية الحربي الممتاز وأهميته في الدفاع عن مصر أثر كبير في توجيه الحكام إلى تحصين المدينة وتقوية أبراجها ومحارسها ، والاهتمام بتفقد شؤونها ووسائل الدفاع فيها ، مما جعلها دائماً مدينة حصينة منيعة يستطيع حاكمها أن يعتصم بها ، وأن يقاوم عدوه من وراء أسوارها مدة زمنية طويلة .

ولهذا السبب ولكونها بعيدة ـ نسبياً ـ عن القاهرة ، كان لها دور كبير في تأثير الأحداث السياسية الداخلية والخارجية ، فهي ـ في هذه الفترة التي نتحدث عنها ـ كانت مسرحاً لمعارك كثيرة دارت رحاها بين الجنود المصريين ضد بعضهم حيناً ، وبينهم وبين الغزاة الطامعين في احتلال البلاد حيناً آخر . وقد كانت الإسكندرية أيضاً مصدراً لكثير من القلاقل والاضطرابات ، ومركزاً لحركات التمرد والعصيان ضد الحكومة في القاهرة ، حيث وجد المتمردون والثائرون فيها المكان المناسب لتجميع القوى وتدبير المؤامرات ، وتوجيه الضربات ، وتسيير الجيوش إلى القاهرة للإطاحة بالحكم فيها .

فقبيل القرن السادس الهجري (١٢ م) توفي الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) فأسرع وزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي

وأجلس في دست الخلافة أبا القاسم « أحمد » أصغر أولاد المستنصر ، وحمل الأمراء وكبار القادة على مبايعته ، فغضب لذلك الأسير « نزار » الابن الأكبر ، وخرج ومعه أخوه عبد الله وابن مصال اللكي وتوجهوا إلى الإسكندرية ، وكان الوالي بها ناصر الدين أفتكين التركي أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي ، فعرفه « نزار » حقيقة الأمر ، ووعده بأن يوليه الوزارة إذا هو ساعده ، « فطمع أفتكين في ذلك وبايعه ، وأقنع أهل الإسكندرية بمبايعته فبايعوا » [1].

تخوف «الأفضل» من اعتصام « نزار » في الاسكندرية، ومبايعة الناس له ، فجهز جيشاً وتوجه به إلى الاسكندرية لقتال نزار ، فخرج له « أفتكين» والتقى به خارج أسوار المدينة ، ودارت بينهما حرب شديدة انكسر فيها « الأفضل » ، فرجع إلى القاهرة مهزوماً ، وخرج « نزار » إلى بلدان الوجه البحري وأخذ ينهب ما فيها ، فازدادت مخاوف الأفضل وأخذ يحسب لقوة « نزار » ألف حساب ، فجهز جيشاً جديداً حشد فيه كل قوته ، وتوجه مرة ثانية للإسكندرية بعد أن استمال كثيراً من العربان الذين كانوا يساندون « نزاراً» . وعندما التقى الجيشان بظاهر المدينة دارت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها « نزار » بمن معه ، وهربوا إلى داخل سور المدينة ، فحاصره « الأفضل » حصاراً شديداً ، و « نصب عليها المجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة » ، فلما رأى ابن مصّال أن الدائرة ستدور على « نزار » هرب ليلا ، فوهنت همّة « نزار » و « أفتكين » وطلبا من « الأفضل » الأمان فأمنهما ، ودخل المدينة وقتل أعيان أهلها ، واعتقل « أفتكين » و « نزار » وعاد بهما إلى القاهرة حيث انتقم من « نزار » بأن

---

١ — « الخطط » : المجلد الثاني — القسم الثاني : ٢٩٨ — ٣٠٠ .

وضعه بين جدارين وبنى عليه ، وقتل « أفتكين » بيد الخليفة [1] .

وفي منتصف القرن السادس تقريباً اشترك أهل الإسكندرية في توجيه أول ضربة من أهل السنة إلى المذهب الفاطمي ، فقد خرجوا مع والي المدينة الأمير علي بن السلار – السني المغالي في سنيّته – متوجهين لقتال الوزير الشيعي نجم الدين سليمان بن مصّال الذي ولاه الخليفة « الظافر » سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) الوزارة .

وعندما علم ابن مصال بجيش ابن السلاّر ولّى هارباً ، فدخل ابن السلاّر القاهرة ، واستولى على الوزارة واستقر فيها ، فعهد إليه الخليفة بها ولقب بالعادل [2] .

وفي سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) تمرد طرخان بن سليط بن طريف – والي الإسكندرية – على حكام القاهرة ، وأخذ يقوي نفسه ويجمع حوله الأنصار والمقاتلين ، حتى إذا ما آنس من نفسه قوة أعلن استقلاله وعدم تبعيته للوزير طلائع بن رُزِّيك صاحب السلطان الفعلي في خلافة « الفائز » آنذاك ، ولقب نفسه بالملك الهادي ، وانضم له أخوه إسماعيل ، وخرج الأخوان بجموعهما من الاسكندرية ، وعسكرا عند دمنهور ، فأرسل إليهما الصالح طلائع بن رُزيك جيشاً لقتالهما – فهزم « طرخان » وفرّ إلى الجيزة واختفى بها ، وأخيراً قبض عليه فصلب هو وأخوه على « باب زويلة » .

وفي عام ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) لعبت الإسكندرية دوراً خطيراً في

١ – انظر « النجوم الزاهرة » : ج ٢ قسم ٢ ص ٣٠٠ – ٣٠١ .
٢ – « وفيات الأعيان » : ٢ / ٧٦ – ٧٧ ، « الكامل » : ١١ / ٥٣ .

الأحداث المصيرية في البلاد ، كان له أثر كبير في إسقاط الخلافة الفاطمية والقضاء عليها . ففي هذه السنة عاد أسد الدين شيركوه في حملته الثانية إلى مصر لامتلاكها قبل أن يسبقه الفرنج إلى ذلك ، فهو اطّلع أثناء حملته الأولى على ظروف البلاد المضطربة ، وسوء الأحوال فيها ، وضعف السلطة الحاكمة وعجزها عن حماية البلاد ، مما أطمعه في العودة إليها خشية أن تقع في أيدي الفرنج فيعزوا بها ويتقوّوا بخيراتها .

ولما بلغ « شاور » خبر توجه أسد الدين إلى مصر ، تخوّف عاقبة الأمر ، وخشي أن يضيع نفوذه وسلطانه ، فأرسل إلى الفرنج في القدس يستنجد بهم مرة ثانية على أسد الدين ، فرحب « عموري » بالدعوة ولباها مسرعاً ، يقول ابن واصل : « وأتوه على الصعب والذلول ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية ، والثاني الخوف من تملك العساكر النورية لها ، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين واستضافها إلى البلاد الشامية لم يبق لهم في القدس والشام مقام »[1] .

وقد تمكن « عموري » من الوصول إلى مصر قبل شيركوه ، فخرج لاستقباله « شاور » عند « بلبيس » ، وهناك أقام الجيشان يترقبان وصول « شيركوه » .

علم شيركوه بأعدائه ، فغير طريقه ، واتّجه جنوبي الفسطاط ، وعبر النيل عند « إطفيح » إلى الجانب الغربي منه ، وسار في أرض الصعيد جنوباً « وتصرف في البلاد ، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً »[2] ، ولما علم به « شاور » عبر بجيشه وجيش الفرنج وراءه ، وجدّ في طلبه .

---

١ – « مفرج الكروب » ١ / ١٤٩ .
٢ – نفسه .

أيقن أسد الدين أنه لا بدّ من القتال ، فاستشار أصحابه الذين تخوفوا أعداد عدوهم ، وأخذ يتدارس معهم الموقف ، فاستقر رأيهم على القتال[1]. عندئذ أخذ أسد الدين ينظم جنده لخوض المعركة ، فرسم الخطة ، وأحكم تدبيرها ، ثم أخذ يكتب لأهل البلاد المصرية يستنجد بهم ويستعديهم على « شاور » ، الذي « استنجد بالصليبيين أعداء الوطن والدين ، وأنفق عليهم أموال المسلمين » [2] ، فاستجاب لهذه الدعوة أهل الإسكندرية ، وهبوا مسرعين لنجدته وإرسال المعونة الحربية له ، وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال ليقوم بتوصيل المعونة المطلوبة نيابة عنهم . يقول أبو شامة في تسجيل أخبار ما قدمه السكندريون لأسد الدين من معونة : « حدثني الشريف الإدريسي — نزيل حلب — قال : كنت بالإسكندرية يومئذ ، فكتب معي ابن مصّال كتاباً إلى أسد الدين ، وقال لي : قل له — أي لأسد الدين — إني أخبرك أن السلاح واصل — وكان قد أنفذ لأسدالدين خزانة من السلاح — قال : فسبقتها بيومين ، وحضرت بين يدي أسد الدين ، وأعطيته الكتاب وشافهته برسالة ابن مصّال في معنى السلاح والآلات ، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف » [3] .

ولما التقى جيش أسد الدين — وعدده ألفان — مع جيش « شاور » والفرنج — وكان ضخم العدد — دارت بينهما معركة عنيفة تجلت فيهـــا حنكة أسد الدين وشجاعته ، وصبر رجاله ، وبطولة قواد جيشه ، استطاعوا فيها أن يهزموا « شاور » « ومرّى » (عموري) هزيمة منكرة تثير العجب والدهشة ، وصفها ابن الأثير بقوله : « فهزمهم أسد الدين ووضع السيف

---

١ — Lane - Poole : « Saladin », P. 48.

٢ — « كتاب الروضتين » : ١ / ١٦٨ .

٣ — المصدر السابق : ١ / ١٦٨ .

فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر ... وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »[1].

توجه أسد الدين بجيشه بعد ذاك الانتصار إلى مدينة الإسكندرية ، فخرج لاستقباله والترحيب به أهل الثغر « وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والي الثغر ، وقاضيه الأشرف بن الحباب ، وناظره القاضي الرشيد بن الزبير ، وسروا بقدومه وسلموا له المدينة »[2] ، فقد كانوا في معظمهم سنيين يكرهون المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي . فدخلها أسد الدين « ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم ، وبادر القاضي الرشيد بن الزبير — متولي ديوان المدينة — فقدم إلى أسد الدين الأموال والأسلحة »[3].

لم يطل أسد الدين بقاءه في الاسكندرية خشية أن يحاصره فيها « شاور » والفرنج ، فاستخلف عليها ابن أخيه صلاح الدين في ألف فارس ، وسار عنها قاصداً بمن معه أرض الصعيد « فملكها وجبى أموالها »[4].

وأما « شاور » والفرنج فإنهم بعد هزيمتهم في « بابين » عادوا إلى القاهرة وأخذوا يصلحون ما فسد من أمر عسكرهم ، ويعدون العدة من جديد ، ثم خرجوا إلى الإسكندرية وحاصروا صلاح الدين حصاراً شديداً وضيقوا عليه الخناق ، ومنعوا عنه التموين ، فقلّ الطعام على من بها ، ولكن أهل الإسكندرية لم يسلموا صلاح الدين ولم يخذلوه ، ووقفوا يقاتلون

---

١ — « الكامل » : ١١ / ١٢٢ .
٢ — « الخطط » : المجلد الثالث : القسم الثاني ، ص ١٨٩ .
٣ — « كتاب الروضتين » : ١ / ١٦٨ .
٤ — « الكامل » : ١١ / ١٢٢ ، « كتاب الروضتين » : ١ / ١٦٩ .

معه قتالا مجيداً ، وقدموا له كل ما يستطيعون من مال ورجال وسلاح . يقول المقريزي : « فقام معه أهل الثغر واستعدوا لقتال « شاور » ، فكان مما أخرجوه أربعة وعشرون ألف قوس ، فوعدهم « شاور » أن يضع عنهم المكوس والواجبات إذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك وألحوا في قتاله فحصرهم حتى قل الطعام عندهم »[1] .

ولما علم « شيركوه » بحصار « شاور » للإسكندرية أسرع لنجدة ابن أخيه فيها ، فاتجه شمالا صوب القاهرة ، فخاف « شاور » أن يحتل « شيركوه » القاهرة فاضطر إلى فك الحصار ، وبعث رسله في طلب الصلح على أن يدفع خمسين ألف دينار ، فاستجاب « شيركوه » على أن يغرم « شاور » أيضاً تكاليف الحملة ، وأن تجلوا جيوش الفرنج أيضاً عن البلاد ، وتم الاتفاق ووقع الصلح .

دخل « شاور » الإسكندرية فعاث فيها نهباً وفساداً وقتلا وتعذيباً ، ففر من استطاع الفرار ، وقتل من قتل ، وعوقب من عوقب . يقول أبو شامة : « ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد الأحوال خافوا من « شاور » ، فأخذوا في الرحيل إلى الشام ، واتصل ذلك « بشاور » ، فخرج بنفسه ، وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام ، وحلف لهم على حماية أنفسهم ، فمنهم من سكن إلى ايمانه ، ومنهم من لم يسكن ورحل »[2] .

وفي عام ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٤ م أي بعد سقوط الخلافة الفاطمية بسنتين ،

---

١ ــ « الخطط » : المجلد ٣ ، القسم ٢ / ١٨٩ .

٢ ــ « كتاب الروضتين » : ١ / ١٦٩ .

جابهت الإسكندرية هجوماً عنيفاً عليها من البحر ، قام به الأسطول الصقلي الضخم الذي قدم من بلاده للمشاركة في تلك المؤامرة الفاشلة ، التي دبرها أعداء صلاح الدين – في الداخل – للإطاحة بحكمه وإعادة الخلافـــة الفاطميـــة .

وكان من أخبار تلك المؤامرة [1] ، أن جماعة كبيرة من أنصار الدولة الفاطمية المنقرضة حاكوا مؤامرة للتخلص من صلاح الدين وإعادة الخلافة الفاطمية ، وقد اشترك في تدبير تلك المؤامرة عدد كبير من بقايا حاشية القصر ، وأفراد من آل رُزِّيك وآل شاور وجنود السودان ، وعدد ممن عاشوا محظوظين في بلاط الخلفاء كعمارة اليمني الشاعر ، وداعي الدعاة والقاضي العويرس وعبد الصمد الكاتب وبعض أمراء صلاح الدين وجنوده .

وكان من تخطيط تلك المؤامرة إضعاف قوة صلاح الدين في الداخل ، واستدعاء أساطيل الفرنج من صقلية ، ومن سواحل بلاد الشام إلى مصر عن طريق الإسكندرية ، فاذا خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثار المتآمرون في القاهرة وأعادوا الدولة الفاطمية ، وإن بقي صلاح الدين في القاهرة واكتفى بإرسال العساكر لقتال الفرنج ثار المتآمرون عليه ، وأخذوه باليد لعدم وجود الناصر له .

وأُحكمت خطوط المؤامرة ، ووزعت أدوارها على المنفذين لها ، وبدأت خطوات التنفيذ .

---

١ – اعتمدت كثيراً في وصف هذه المؤامرة على ما أورده ابن الأثير في كتابه « الكامل » ١١ / ١٥٠ .

فعلى الصعيد الداخلي أقنع عُمارة اليمني [1] صلاح الدين أن يرسل أخاه طوران شاه لاحتلال اليمن ، وبذلك أدى دوره على أحسن وجه ، إذ ذهب طوران شاه إلى بلاد اليمن ومعه عدد ضخم من الجنود . يقول ابن الأثير : « وقال لهم عُمارة وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده » [2] .

وأما على الصعيد الخارجي فقد راسلوا الفرنج ، وتم الاتفاق معهم على كل خطوات التنفيذ . ولكن المؤامرة كشف أمرها ونقل أخبارها الواعظ زين الدين بن نجا [3] إلى صلاح الدين ، فقبض على المتآمرين وصلبهم على أبواب القاهرة .

علم الفرنج في الشام بفشل المؤامرة فلم يتحرك أسطولهم ، وأما صاحب صقلية فلم يصله علم باكتشاف أمر المؤامرة وفشلها ، فتوجه أسطوله الضخم لمهاجمة الإسكندرية حسب الخطة المتفق عليها ، فوصل شواطىء الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ (٢٨ يوليو ١١٧٤ م) . يقول ابن الأثير : « وكان عدته – الأسطول – مائتي شيني تحمل الرجالة ، وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وستة مراكب كبار

١ – هو عمارة – بضم أوله – بن علي بن زيدان اليمني نجم الدين أبو محمد . كان فقيهاً شاعراً ماهراً ، ولد سنة ٥١٥ هـ . دخل مصر سنة ٥٥٠ هـ ، ومدح الخليفة الفائز ووزيره الصالح بن رزيك ، واستوطنها . ولما أزال السلطان صلاح الدين دولة الفاطميين ، اتفق عمارة مع جماعة من الرؤساء في العهد الفاطمي على إعادة الخلافة الفاطمية ، فعلم صلاح الدين بالمؤامرة ، فأمر بشنق المتآمرين جميعاً ومن جملتهم عمارة ، وكان ذلك سنة ٥٦٩ هـ .

٢ – « الكامل » : ١١ / ١٥٥ .

٣ – أنظر ترجمة ابن نجا في « حسن المحاضرة » : ١ / ١٥٥ . وهو الواعظ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي ، نزيل مصر ، صحب السلطان صلاح الدين وحظي عنده . وتوفي سنة ٥٩٩ هـ .

تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركباً تحمل الأزواد ، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ، ومن الفرسان ألف وخمسمائة »[1].

ولما رأى أهل الإسكندرية الفرنج يقتربون من شاطىء مدينتهم « خرجوا بسلاحهم وعدتهم ليحولوا بينهم وبين النزول » ولكن والي المدينة منعهم وأمرهم بملازمة السور .

نزل الصقليون إلى البر مما يلي المنارة واقتربوا من أسوار المدينة ، ونصبوا بمحاذاتها دباباتهم ومنجنيقاتهم ، وأخذوا يدكون بها المدينة ، ووقف السكندريون من وراء الأسوار يدافعون عن مدينتهم بشجاعة وبسالة أذهلت العدو وأزعجته . يقول ابن الأثير : « ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم »[2] .

وصمد السكندريون اليوم الأول والثاني يقاتلون من خلف الأسوار ، وفي اليوم الثالث ارتفعت معنوياتهم وازداد حماسهم ، ففتحوا باب المدينة واندفعوا هاجمين على العدو دفعة واحدة ، يصيحون ويهللون ، فارتاع العدو من هول المفاجأة ، واشتبك معهم في قتال عنيف تمكن فيه السكندريون من الوصول إلى دباباتهم ومنجنيقاتهم فأحرقوها ، « ولم يزل القتال إلى آخر النهار ، وعاد أهل المدينة وهم فرحون مستبشرون .ا رأوا سن تباشير الظفر ، وفشل الفرنج ، وفتور حربهم ، وكثرة القتل والجراح في رجالاتهم»[3].

وفي عصر اليوم الرابع وصل رسول صلاح الدين إلى الاسكندرية يبشر بقرب وصوله ، وكان ذلك وقت عودة المقاتلين من أرض المعركة ،

---

١ و ٢ و ٣ – « الكامل » : ١١ / ١٥٥ .

فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال ، وقد زال عنهم من تعب وألم ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله » [1] .

وأما الفرنج فما كادوا يسمعون بخبر وصول صلاح الدين حتى فترت همتهم في القتال ، وخارت عزيمتهم ، فهاجمهم السكندريون عند هبوط الظلام ، ووصلوا إلى خيامهم ، واستولوا على ما فيها من سلاح ، وقتلوا كثيراً ممن كانوا فيها من الجند ، ولاذ الكثيرون منهم بالفرار إلى البحر ، فتبعهم أهل الإسكندرية ، فكان منهم من نجا ، وكان منهم من قتل » .

وانتهت المعركة بانتصار أهل الاسكندرية انتصاراً مجيداً رائعاً ، سجلوا به لمدينتهم تاريخاً ، وكسبوا به لأنفسهم فخراً . وعادت بقيـة الأسطول الصقلي من حيث أتت تجرجر أذيال الفشل والهزيمة [2] .

هذه هي أهم الأحداث السياسية التي شاركت فيها الإسكندرية في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وإني لأرجو أن يكون الانتهاء منها قد أكمل وضوح الصورة التي أردت أن أرسمها لهذه المدينة في تلك الفترة .

* * *

١ و ٢ – « الكامل » : ١١ / ١٥٥ .

الفصل الرابع

« السِّلفي » في الإسكندرية

١ – شخصيته العلمية عند قدومه إلى الاسكندرية
٢ – استقراره في الإسكندرية
٣ – نشاطه العلمي ومدرسته
٤ – المدرسة العادلية (السلفية) :
أ – إنشاؤها
ب – هيئة تدريسها
جـ – نظام الدراسة فيها
د – منهاج الدراسة وطريقة التدريس
هـ – نوعية تلاميذها وعددهم .

« والإسكندرية تبع لمصر ما زال بها الحديث قليلا حتى سكنها « السِّلفي » فصارت مرحولا إليها في الحديث والقراءات » .

« السخاوي »

١ – شخصيته العلمية عند قدومه إلى الإسكندرية

عندما نزل « السِّلفي » ثغر الإسكندرية كان عمره قد بلغ السادسة والثلاثين عاماً ، وكان قد تجمعت لديه خبرات واسعة ، وحصل على علم وفير ، وبلغ من النضج الفكري والتخصص في ميدان علم الحديث مبلغ العلماء المتخصصين ، فهو قد رحل إلى بلاد كثيرة ، فأُتيح له أن يلتقي بأعداد كثيرة من العلماء وكبار المحدثين أتقن على أيديهم الرواية وقواعد التحديث وعلوم المصطلح ، وانتخب من كتبهم كثيراً من المختارات الجيدة والفوائد النادرة ، « ونسخ بخطه السريع الأجزاء الكثيرة » [١] . وكان أيضاً ذا خبرة وتجربة في الكتابة والتأليف ، فقد سبق له أن ألف معجماً لشيوخه في أصبهان ، ومعجماً آخر لشيوخه في بغداد [٢] . وكانت له دراية سابقة بالتحديث والتعليم ، فهو قد زاول ذلك فعلا في أوائل سنة ٤٩٢ هـ في بلده بأصبهان ، وأيام كان في سَلَماس سنة ٥٠٦ هـ حيث أملى مجالسه الحديثية الخمسة [٣] ، وكذلك أثناء إقامته في دمشق حيث اشتغل بالتدريس من سنة ٥٠٩ إلى ٥١١ هـ .

ولم تكن ثقافة « السلفي » حين قدومه مقتصرة على الحديث وحده ، وإنما كان أيضاً فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي ، فهو قد درس الفقه في

---

١ – انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٤ ب .

٢ – انظر فصل « كتبه » .

٣ – توجد هذه الأحاديث في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم ٦٤ .

نظامية بغداد على يد شيخه ألْكيا الهرّاسي وفخر الإسلام الشاشي ويوسف ابن علي الزنجاني .

وكان « السلفي » أيضاً متقناً لعلم القراءات ، عارفاً بحروفها ووجوهها ، قد تتلمذ في ذلك على علماء القراءات المشهورين في عصره ، فقد قرأ في بلده أصبهان على أبي الفتح أحمد بن محمد الحداد ، ومحمد بن محمد بن المطرز ، وعبد الله بن أحمد بن عبد الله الخرقي الأصبهاني ، وقرأ في بغداد على أبي منصور الخياط ، وأبي البركات ، محمد بن عبد الله الوكيل ، وابن سوار ، وأبي الخطاب بن الجراح [١] .

يقول الحافظ الذهبي : « نقلت من خط الحافظ عبد الغني المقدسي نقل خطوط المشايخ « للسلفي » بالقراءات ، وأنه قرأ بحرف عاصم [٢] على أبي سعد المطرز ، وقرأ برواية حمزة [٣] ، والكسائي [٤] على محمد بن أبي نصر القصار ، وقرأ لقالون [٥] على نصر بن محمد الشيرازي ، وقرأ برواية

١ — سيأتي التعريف بهؤلاء في فصل شيوخه .

٢ — هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود بهدله ، أحد القراء السبعة والمشار إليه في القراءات . توفي في الكوفة سنة ١٢٧ هـ . انظر ترجمته : « وفيات الأعيان » : ٢/٢٢٤ ، «الفهرست» لابن النديم : ٤٣ .

٣ — هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي المعروف بالزيات ، أحد القراء السبعة المشهورين ، وعنه أخذ الكسائي والفراء والأعمش . توفي سنة ١٥٦ هـ . انظر ترجمته ، « وفيات الأعيان » : ١ / ٤٥٥ ، « الفهرست » : ٤٤ .

٤ — أبو الحسن علي بن حمزة المعروف بالكسائي الكوفي أحد القراء السبعة . كان إماماً في النحو واللغة والقراءات . توفي سنة ١٨٩ هـ . انظر ترجمته : « وفيات الأعيان » : ٢/٤٥٧ ، « معجم الأدباء » : ٥ / ١٨٣ .

٥ — هو عيسى بن وردان الزرقي الملقب بقالون ، قارىء المدينة ، ويقال إنه ربيب الإمام نافع وهو الذي سماه « قالون » لجودة قراءته . وقالون باللغة الرومية معناها جيد . انظر ترجمته : « غاية النهاية » : ١ / ٦١٥ .

قُنْبل [1] على عبد الله بن أحمد الحرقي ، وقد قرأ على بعضهم في سنة ٤٩١ هـ » [2] .

ويبدو لي ان اهتمام « السلفي » بالقراءات كانت أكثر من اهتمامه بالفقه ودون اهتمامه بالحديث ، ولذا نجد كثيراً من الذين ترجموا له يذكرون أنه كان عالماً بالقراءات . فابن الجزري صاحب كتاب « غاية النهاية في طبقات القراء » يقول : كان « السِّلفي » أعلى أهـــل الأرض إسناداً في الحديث والقراءات ، وسمع الحروف من أبي طاهر بن سوار [3] من كتابه « المستنير » وفاته شيء من آخره ، وسمع من محمد بن محمد بن عبد الرحمن المديني كتاب أبي عبيد في القراءات بفوت شيء من سورة « ق » [4] .

وفضلا عن إلمام « السلفي » بالحديث ومعرفته بالفقه وعلم القراءات — قبل أن يستقر في الاسكندرية — فقد كان ملماً أيضاً بالأدب واللغة العربية فقد درس ذلك كله أيام كان في بغداد على يد العالم اللغوي المشهور أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي شيخ الأدب في « النظامية » ، وعلى يد أبي الكرم بن فاخر ، وعلي بن محمد الفصيحي .

وكان أيضاً شاعراً ينظم الشعر ويتذوقه ويحب سماعه ، ويختم كل مجلس من مجالسه التي أملاها على طلاب الحديث في سَلَماس بأبيات من

---

١ — هو قنبل عبد الرحمن بن خالد المكي ، كان يلي الشرطة بمكة ، وكان لا يليها إلا أهل العلم والفضل ، انظر ترجمته : « معجم الأدباء » : ٦ / ٢٠٦ .

٢ — انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ .

٣ — مقرىء العراق وكان ثقة مجوداً ، حدث عن ابن غيلان وطبقته ، وتوفي سنة ٤٩٦ هـ . انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٤٣ .

٤ — ١ / ١١٢ .

شعر الحكمة والنصيحة [1] .

إن هذه الصورة التي أحببت أن أعرضها لشخصية « السلفي » في هذه المقدمة الموجزة إنما أردت بها أن أبين أن « السلفي » عندما قدم الإسكندرية كان رجلا عالماً متخصصاً في علم الحديث بكل فروعه ، ومتقناً لعلم القراءات ، وملماً بالفقه واللغة العربية ، وشاعراً يقول الشعر ويتذوقه ، ومثقفاً قد توسعت مداركه بالرحلات والطواف ، واكتملت قدراته وكفاءته بالتجربة والممارسة ، ونضج فكره – أو كاد – بالمطالعة والتحصيل ولقاء العلماء الكبار .

٢ – استقراره في الاسكندرية

ذكرنا في الفصل الثاني [2] أن « السلفي » عندما وصل إلى الإسكندرية لم يكن في نيته الإقامة فيها ، وإنما كانت رغبته أن يجتازها إلى بلاد الأندلس ليلتق بعلمائها ومحدثيها المشهورين آنذاك . ولذلك اتصل بمجرد وصوله الإسكندرية بالعلماء والمفكرين فيها ، ثم اتخذ لنفسه مجلساً في أحد مساجدها ، وشرع يدرس فيه الحديث ويقرىء القرآن [3] . وتسامع أهل الثغر به ، فأقبلوا على درسه يستمعون إليه ، فوجدوه عالماً فاضلا ، له خلق الصالحين وتواضع العلماء ، فأعجبوا به وأكرموه ، وأحسنوا إليه ، وأنزلوه من أنفسهم مكانة طيبة . يقول الحافظ الذهبي : « ولما دخل إلى الإسكندرية رآه كبراؤها وفضلاؤها ، فاستحسنوا علمه وأخلاقه وآدابه فأكرموه

١ – انظر «المجالس السلماسية » : مخطوط المكتبة الظاهرية مجموع ٦٤ من الورقة ١٥٦ – ١٦٥ .

٢ – الصفحة ٥٠ .

٣ – لا نعرف بالتحديد اسم المسجد ولا مكانه .

وخدموه حتى لزموه بالإحسان »[1] .

أحب « السِّلفي » الإسكندرية وأهلها الذين أكرموا وفادته ، ورأى أنها المكان المناسب لإقامته حيث يمكنه فيها أن يفيد ويستفيد ، فأقلع — مؤقتاً — عن نية مغادرتها إلى بلاد الأندلس ، وقرر أن يتخذها دار إقامته ، ولو إلى حين . وكان قراره هذا يرجع في حقيقته إلى عدة أسباب — بالإضافة إلى إكرام وحب أهل الإسكندرية له — منها ما يلي :

١) موقع الإسكندرية الجغرافي المتوسط لبلدان العالم الإسلامي — وبخاصة بين الحجاز في المشرق وبين المغاربة والأندلسيين في المغرب — جعلها أشبه بملتقى للحجاج الأندلسيين والمغاربة الذين كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر أياماً أثناء توجههم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وكذلك أثناء عودتهم منه إلى بلادهم . فكانوا ينتهزون فرصة استراحتهم فيها فيلتقي علماؤهم وأدباؤهم بعلمائها وأدبائها ، فيُسمعونهم ويَسمعون منهم ، ويتبادلون معهم ضروباً من المعرفة والثقافة فيفيدون ويستفيدون .

٢) كانت الإسكندرية في مطلع القرن السادس الهجري ملتقى كثير من علماء الشام[2] الذين كانت بلادهم مسرحاً للحروب الصليبية ، والتي سقط بعض مدنها في أيدي الصليبيين كالقدس والرملة وكثير من مدن الساحل الفلسطيني[3] مما اضطر أولئك العلماء إلى هجرتها

١ — « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ .

٢ — تعني كلمة الشام هنا كلا من فلسطين وسوريا والأردن ولبنان .

٣ — احتلت القدس سنة ٤٩٢هـ — ١٠٩٩م . واحتل الساحل الفلسطيني كله سنة ٤٩٠هـ — ١٠٩٧م ، انظر « الكامل » لابن الأثير : ١٠ / ١٩٣ ، « تاريخ العرب » لفيليب حتي (مطول) : ٣ / ٧٥٦ .

والنزوح عنهـا .

٣) نزوح عدد كبير من علماء صقلية المسلمين إلى الإسكندرية بعد أن احتل النورمان جزيرتهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري[١]. ونزوح عدد آخر إليها أيضاً من علماء الأندلس على أثر الهزات السياسية المتلاحقة التي أصيبت بها بعض المدن الأندلسية مما دفع الكثيرين من العلماء إلى الهجرة وطلب الأمن كما فعل الفقيه المالكي المشهور « الطرطوشي » وغيره .

٤) تمتع أهل الإسكندرية بحرية الاعتقاد الديني — إذا قورنوا بأهل القاهرة — رغم انطوائهم رسمياً تحت نفوذ الخلافة الفاطمية الشيعية . فقد كانوا سنيين يتمذهبون بمذهب الإمام مالك ، وهذه الحرية النسبية جعلت الوافدين إلى مصر يتوجهون إلى الإسكندرية — بدلا من القاهرة — للإقامة فيها بعيدين عن ضغوط المذهب الفاطمي الشيعي الذي يتنافى مع اعتقادهم السني .

هذه الأسباب — وغيرها — رغّبت الحافظ « السِّلفي » في البداية أن يقيم في الإسكندرية ، ثم ما لبث أن رسخت فيها قدمه ، وتقدمت به سنه ، وأخيراً تزوج — وقد قارب الستين عاماً — من « ست الأهل » الإسكندرانية فثقل بذلك حمله ، ثم ألقى عصا الترحال بعد ذلك نهائياً عندما بنى له والي الإسكندرية العادل بن السلار « مدرسته العادلية » ، وعهد إليه بالإشراف عليها والتدريس فيها ، فاستقر به المقام وطاب له الحال ، ولم يبرح تلك المدينة التي أحبها إلى أن توفاه الله تعالى .

---

١ — انظر « العرب في صقلية » لإحسان عباس : ١٣١ .

٣ - نشاطه العلمي ومدرسته :

بدأ الحافظ « السِّلفي » تدريسه للحديث منذ وصل إليها سنة ٥١١ هـ ، حتى إذا ما توفي - محدث الإسكندرية آنذاك - الشيخ أبو عبد الله الرازي المعروف بابن الحطاب سنة ٥٢٥ هـ ، جلس مكانه وأصبح بذلك شيخ الإسكندرية ومحدثها المتفرد دون منازع ثم أخذت شهرته وسمعته تتزايد يوماً بعد يوم ، وراح حجاج الأندلس يتناقلون أخباره في كل مكان نزلوا به ، فتسامع به طلاب الحديث في مصر وخارجها ، فشدوا إليه الرحال ، وتوافدوا على الإسكندرية من كل حدب وصوب ليلتقوا بمحدثها الكبير وحافظها المتقن ، فنشطت بذلك دراسة الحديث وروايته فيها ، وأصبحت لها مكانتها المرموقة في هذا الميدان من الدراسة ، يقول السخاوي : « والإسكندرية تبع لمصر ، ما زال بها الحديث قليلا حتى سكنها « السلفي » ، فصارت مرحولا إليها في الحديث والقراءات »[١] .

وقد التزم الحافظ السلفي في التحديث طريقة الاعتماد على « أصل » من أصوله المعتمدة ، التي قام بتحقيقها والتأكد من صحة ما ورد فيهـا ومن صحة نسبتها إلى صاحبها . ولم يكن يشترط أن يكون هذا « الأصل » من تأليفه أو تصنيفه ، وإنما كان يختار كتاباً معروفاً ، أو ينتخب من مؤلفات عالم مشهور ، ثم يقوم هو بتدقيق وتخريج ما جاء فيها من أحاديث ، والتعليق عليها من حيث صحتها أو ضعفها ، وتبيان مرتبة رواتها من حيث التوثيق والتجريح ، فإذا ما اطمأن إلى معرفة ذلك كله اعتبر ذلك الكتاب « أصلا » له ، يرجع إليه ويحدث منه ويقابل نسخ الآخرين به عندما

---

١ - « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » : ٢٩٤ .

يقرأون عليه من نسخهم [1] .

وقد أشار ـ رحمه الله ـ إلى التزام هذه الطريقة فقال : « متى لم يكن الأصل بخطي لا أفرح به » [2] . وقد بلغ به التقيد بهذه الطريقة ـ أحياناً ـ درجة التشدد والامتناع عن التحديث من كتاب ليس أصلا من أصوله . روى الحافظ الذهبي عن الحافظ عبد العظيم المنذري قوله : « لما أرادوا قراءة « سنن النسائي » على أبي طاهر « السلفي » أتوه بنسخة سعد الخير [3] ، وهي مصححة قد سمعها من الدوني [4] ، فقال : « اسمي فيها ؟ قالوا : لا . فاجتذبها من يد القارىء بغيظ ، وقال : لا أحدث إلا من أصل فيه إسمي . ولم يحدث بالكتاب » [5] .

إن هذا الالتزام ـ لا شك ـ نوع من الدقة والتثبت ، والحيطة الشديدة ، خشية الوقوع في خطأ لم يتداركه مصنفو تلك الكتب فينسب إليه عند التحديث به . ولعل هذه الطريقة هي التي جعلت الحفاظ يصفونه بالتثبت والإتقان حيناً ، وبالدقة وجودة الضبط حيناً آخر [6] .

---

١ ـ انظر « معجم السفر » : الورقة ٢٠٣ أ ، حيث قال : (وقرأ علي كتاب « السيرة » لابن هشام وقابل نسخته بأصلي) .

٢ ـ « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١

٣ ـ المحدث أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلسي البلنسي ، رحل إلى المشرق ، وسافر إلى بلاد كثيرة . توفي سنة ٥٤١ هـ . انظر ترجمته : « العبر » ٤/١١٢ .

٤ ـ أبو محمد عبد الرحمن بن حمد بن الحسن الدوني ، أحد شيوخ الصوفية راوي « السنن » عن أبي نصر الكسار . توفي سنة ٥٠١ هـ . انظر ترجمته ، « العبر » : ٤ / ٢ ، « اللباب » : ١ / ٤٣١ ، « النجوم الزاهرة » : ٥ / ١٩٧ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٣ .

٥ ـ « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ الورقة ٧ أ ، « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٤٥ .

٦ ـ سيأتي تفصيل ذلك في فصل « مكانته العلمية » الصفحة ٢١٤ .

٤ – المدرسة العادلية (السِّلفية)

أ – إنشاؤها :

ظل « السِّلفي » يلقي دروسه في المسجد حيناً وفي منزله حيناً آخر ، زهاء ربع قرن إلى أن ولي المدينة أبو الحسن علي بن السلار الملقب بالملك العادل ، فاحتفل به وزاد في إكرامه ، وبنى له مدرسة سميت « المدرسة العادلية» نسبة إلى منشئها « العادل» ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة « السِّلفية» نسبة إلى مدرسها « السلفي » .

ذكر ابن خلكان أن هذه المدرسة كانت أول مدرسة للشافعية في مصر ، كما أشار إلى أنها أنشئت سنة ٥٤٦ هـ . يقول : « وبنى له – للسلفي – العادل أبو الحسن علي بن السلار – وزير الخليفة الظافر – في سنة ٥٤٦ هـ مدرسة ، وفوضها إليه ، وهي معروفة به إلى الآن » [١] . وقد تابع ابن خلكان في تحديد هذا التاريخ الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » [٢] والدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « الحركة الفكرية في مصر» [٣] . وخالفهم في ذلك الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه « أعلام الإسكندرية » [٤] ، فقرر أنها أنشئت في سنة ٥٤٤ هـ . وهناك فريق آخر من المؤرخين ذكروا أن ابن السلار بنى المدرسة « للسلفي » ، ولكنهم لم يحددوا لبنائها تاريخاً [٥] .

---

١ – « وفيات الأعيان » : ١ / ٨٧ .

٢ – الصفحة : ١٨٤ .

٣ – الصفحة : ١٥٨ .

٤ – الصفحة : ١٣٧ .

٥ – انظر « المعجم » لابن الأبار : ٤٨ ، « مرآة الزمان » : ٨ / ٣٦١ .

والذي أرجحه أنها بنيت سنة ٥٤٤ هـ وذلك لسببين : أولهما أن ابن خلكان نفسه ذكر أثناء ترجمته لابن السلار عبارة يستنتج منها أن هذه المدرسة أنشئت أثناء ولاية ابن السلار على الإسكندرية ، وليس أثناء توليه أمر الوزارة ، وعبارة ابن خلكان هي : « ولما وصل الحافظ « السلفي » إلى ثغر الإسكندرية ، وأقام به ، ثم صار العادل ابن السلار والياً به ، احتفل به وزاد في إكرامه ، وعمر له هناك مدرسة ، فوض تدريسها إليه ، وهي معروفة باسمه » [١] . ويقوي هذا الترجيح أيضاً أن « السبكي » ذكر في كتابه « طبقات الشافعية » ما نصه : « وكان ابن السلار هذا شافعياً ولي ثغر الإسكندرية مدة قبل الوزارة ، وبنى المدرسة إذ ذاك » [٢] .

وثانيهما أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى أن ابن السلار كان سنياً من أصل كردي [٣] ، وأنه أظهر اعتناقه لعقيدة أهل السنة أثناء ولايته لثغر الإسكندرية ، ثم أخذ يراسل نور الدين محمود حاكم دمشق ، طمعاً في مساندته ضد السلطة الفاطمية ، فتوطدت بينهما صداقة وود ، وأمده بالعون المادي لأن ابن السلار كان سنياً مثله ، ولأن نور الدين كان يطمع أن يحكم مصر أيضاً [٤] ، وربما أشار نور الدين محمود على ابن السلار في مراسلتهما أن يطبق نفس التجربة التي طبقت في سوريا بشأن تقويض المذهب الفاطمي والقضاء عليه عن طريق بناء المدارس ، فبنى ابن السلار هذه المدرسة ، ووكل رعايتها والتدريس فيها إلى محدث الإسكندرية السني الحافظ « السلفي » [٥] ، وكان طبيعياً أن يكون هذا كله أثناء ولاية ابن

١ – « وفيات الأعيان » : ٢ / ٧٦ .
٢ – « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٥ .
٣ – « وفيات الأعيان » : ٢ / ٧٦ .
٤ – انظر « تاريخ الدولة الفاطمية في مصر » : ١٨٣ .
٥ – انظر « الحركة الفكرية في مصر » : ١٥٨ .

السلار على الإسكندرية وقبل أن يستولي على الوزارة في ١٥ شعبان سنة ٥٤٤ هـ .

ولعل مما يزيدنا تمسكاً وترجيحاً بما ذهبنا إليه ، هو أننا أخذنا نحس من قراءتنا للأحداث التاريخية لتلك الفترة ، أن الخليفة الفاطمي « الظافر » أحس بخطورة ابن السلار وأثر مدرسته السنية واستقطاب أهل السنة حوله ، فتخوف منه ، وأخذ يكيد له ، وعهد بالوزارة إلى نجم الدين ابن مصال الوزير الشيعي ، الذي ينحدر من أصل مغربي ، فأغضب ذلك ابن السلار الرجل السني ، فجمع أنصاره من أهل الإسكندرية السنيين وسار بهم إلى القاهرة ، فدخلها بعد أن هزم ابن مصال عند الجيزة في ١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ [1] . وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن السبب الحقيقي بين ابن السلار وبين ابن مصال إنما هو نزاع بين عقيدة أهل السنة التي يساند الدعوة إليها نور الدين محمود ، وبين المذهب الفاطمي الشيعي الذي يمثله الخليفة الفاطمي [2] .

لقد كان لإنشاء هذه المدرسة فرحة عظيمة في نفوس أهل الإسكندرية ، واعتبروا بناءها هدية كبيرة من واليهم ابن السلار من واجبهم أن يشكروه عليها ، فانبرى شعراؤهم يمدحونه ويثنون عليه ، ويعبرون له عما في نفوسهم من الغبطة والابتهاج . ولقد سجل « السلفي » واحدة من تلك القصائد للشاعر الإسكندراني أبي محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب ، يفتخر فيها بتلك المدرسة ويمدح منشئها « العادل السلار » ويشيد بالمشرف عليها الحافظ « السلفي » ، نقتطف منها هذه الأبيات [3] :

---

١ — انظر « الكامل » لابن الأثير : ١١ / ٥٣ .

٢ — « تاريخ الدولة الفاطمية » : ١٨٤ .

٣ — انظر « معجم السفر » : الورقة ١١٥ ب .

لله در العــادل المرتجــى ذي العز والتأييد والنصــر
أنشا لنا مدرسة ، مثلهــا لم يُنْشَ في دهــر ولا عصر
بغدادُ دارُ العلم لم تفتخر بمثلهــا قط على مصــر
فأرضها كالمسك جلت عن الــبسطِ التي تفرش والحصــر
وما تولاها سوى الحافظ المعصوم من عيٍّ ومن حَصْــر
ذي طلعة تقصر عن نورها شمس بدت عصراً على قَصر
خيرُ فقيهٍ في الورى عالم تبصره كالحسن البصــري
أكرم خلق الله في عصرنا أقسم بـ « العصر » و « بالنصر »

تولى الحافظ « السِّلفي » الإشراف على هذه « المدرسة » ، فجعل منها مركز إشعاع لإعادة أهل مصر لعقيدة أهل السنة ، ومنتدى لأهل الفكر والثقافة ، فكان يلتقي فيها علماء الحديث وطلابه ، ورجال الفقه والقراءات والأدباء والشعراء ، ورجال التاريخ وأصحاب الحكايات ، فنمت وازدهرت وكثر روادها والمتأثرون بما يلقى فيها من دروس ، وما يعقد فيها من لقاءات وندوات ومحاضرات . وقد تجلى تأثيرها واضحاً في أهل الإسكندرية بالذات من موقفين واضحين : أولهما يوم خرجوا مع واليهم ابن السلار للاستيلاء على الوزارة في القاهرة ، وثانيهما يوم وقفوا يحاربون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي وحلفائه الصليبيين ، فلم يخذلوه أو يتخلوا عنه رغم الحصار الشديد الذي فرض عليهم ثلاثة شهور ، بل حاربوا معه جنباً إلى جنب ، وبذلوا له كل ما يملكون من قوة ومال ورجال ، إلى أن فك شاور والصليبيون الحصار [1] .

أما كيف أدار « السلفي » رحمه الله – مدرسته ، ومن عاونه في

---

١ – انظر « الخطط » للمقريزي : ٢ / ١٨٩ ، « الكامل » : ١١ / ١٢٢ .

إدارتها ، وما النظام الذي سار عليه في التدريس ، وما المنهج الدراسي الذي وضعه ، فذاك ما سنجيب عليه من خلال ما كتبه « السِّلفي » في كتابه « معجم السفر » ، أثناء ترجماته التي سجلها لبعض الأشخاص الذين كانت لهم علاقة أو مشاركة في الإدارة أو في التدريس .

ب ـ هيئة التدريس :

كان « السِّلفي » ـ رحمه الله ـ في بداية إنشاء المدرسة يقوم وحده بالإدارة والتدريس في آن واحد ، لأن عدد الطلاب في البداية كان قليلا ، فلما تزايد عددهم ، ولم يعد يستطيع القيام بالمهمة وحده ، اضطر أن يعين بعض المدرسين ليعاونوه ، فاختار من بين طلابه الممتازين ، الذين رضي عنهم لعلمهم وصلاحهم ليكونوا معيدين له ، يساعدونه في شرح وإعادة بعض الدروس على الطلاب . وقد ترجم « السِّلفي » لواحد من أولئك المعيدين ، واسمه رافع بن يوسف بن زيدون القيسي فقال : « رافع هذا كان من أهل العلم ، حسن الصحبة ، وقد لازمني عند بناء المدرسة « العادلية » مدة إلى أن توفي ، وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان ، ويصوم الدهر ، ويقوم الثلث الأخير أبداً ، ويؤم في المدرسة الصلوات الخمس ، وقرأ عليَّ كثيراً من الحديث ، وكتب جملة من الأمالي التي أمليتها ... وتوفي سنة ٥٥١ هـ » [١] .

وكان هناك موظف آخر في المدرسة هو المؤذن الذي كان يؤذن فيها للصلاة ، وربما كان يقوم بالإشراف على نظافة المدرسة أيضاً . وقد وجدنا في « معجم السفر » ترجمة لواحد من أولئك المؤذنين ، ويدعى نجا بن علي

---

١ ـ « معجم السفر » : الورقة ٢٧ أ .

ابن الحسن الرملي ، يقول « السلفي » في ترجمته : « أبو القاسم نجا بن علي المؤذن بالإسكندرية شيخ صالح ، كبير السن ، شديد الصمم ، كان يؤذن في دار الفقيه « الطرطوشي » ثم كان يؤذن عندي ، وكان جَـهوَري الصوت » [1] .

جـ ـ نظام الدراسة :

كان للمدرسة نظامان واضحان ، نظام يومي صباحي خصص التدريس فيه لصغار السن . كان يلقي فيه الحافظ « السِّلفي » الدرس على الطلاب أولا ، ثم يعهد لأحد المدرسين المساعدين بإعادته وشرحه لهم ، وقد أشار الحافظ « السلفي » إلى هذا النوع من الدراسة أثناء ترجمته لرافع بن زيدون الذي تقدم ذكره ، بقوله : « كان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان » . أما النظام الثاني وهو بعد صلاة العصر ، فقد كان أشبه بالمحاضرة العامة التي لا يقتصر حضورها على فئة معينة أو أفراد مخصوصين ، فكان يحضره كل من يشاء سن كبار السن وهواة العلم كالأدباء والشعراء وطلاب الحديث ، ورجال الفكر من أهل الإسكندرية والوافدين إليها . وقد أشار « السلفي » لكثير ممن كانوا يحضرون هذا النوع من الدراسة أثناء ترجمته لحياتهم مثل قوله : « وكان يحضر عندي لسماع الحديث » [2] ، « وكان يحضر عندي لكتب الأمالي الحديثية» [3] . « وكان يحضر عندي لسماع الدروس الفقهية» [4] « وكان يحضر عندي ويقرأ » [5] ، « وكان يحضر مواعيدي الجمعية » [6] ،

١ – « معجم السفر » : الورقة ٢٠٨ ب .
٢ – نفس المصدر : الورقة ٧٤ أ ، ٢٤٠ ب .
٣ – نفس المصدر : ٧٦ أ ، ٢٤٠ ب .
٤ – نفس المصدر : ٦٧ أ ، ٧٦ أ ، ١٠٢ أ .
٥ – نفس المصدر : ٧٤ ب .
٦ – نفس المصدر : ١١٠ أ ، ١١٥ أ ، ١٣٤ أ .

« وكان يحضر ويسمع ما يقرأ »[1] .

إن ترديد مثل هذه العبارات في « معجم السفر » يشير إلى أن رواد هذا النظام من الدراسة « بعد الظهر » لم يكونوا مداومين في الحضور ، وإنما كان بعضهم يحضر لسماع الفقه ، وبعضهم كان يحضر دروس الحديث ، وآخرون يحضرون لسماع ما يلقى بغض النظر عن الموضوع ، وجماعة أخرى كانوا يحضرون ليقرأوا بعض الكتب أو يراجعوا في بعض المسائل ، وقسم من الرواد كان مواظباً على حضور المواعيد التي كانت تعقد لإملاء الحديث عصر كل يوم جمعة .

د ــ منهاج الدراسة وطريقة التدريس :

كات الهدف الذي أُنشئت من أَجله المدرسة محدّداً وواضحاً ألا وهو تدريس الفقه الشافعي ، وإظهار عقيدة أهل السنة بعد أن كان الدعاة المسلمون السنيّون يتخوّفون الجهر بذلك خشية الإيذاء من الفاطميين ، ولهذا وضع الحافظ « السِّلفي » لمدرسته منهاجاً دراسياً يخدم الغرض الذي من أَجله أُنشئت ، فكان منهاجاً دينياً واضحاً يدور حول الحديث وما يتعلق به من علوم المصطلح ، وتدريس الفقه الشافعي ، ودراسة التاريخ الإسلامي كـ « سيرة ابن هشام » ، و« فتح مصر وبلاد المغرب » لابن عبد الحكم .

وقد سلك «السِّلفي» في تنفيذ هذا المنهاج طرقاً مختلفة ، يمكن إجمالها

---

١ ــ انظر « معجم السفر » الورقة ٦٩ ب ، ٨٥ ب .

فيما يلي :

١) إلقاء المحاضرات على الحاضرين كما يفعل أساتذة الكليات والجامعات في الوقت الحاضر. وكانت هذه الطريقة تتبع في الموضوعات التي تدور حول السير والتاريخ والمواعظ .

٢) القراءة من كتاب معتمد أو نص مشهور ، ثم يتولى شرحه للحاضرين ، كما كان يفعل في تدريس الفقه ، إذ كان يقرأ من كتاب « الإبانة » للفوراني [١] ثم يشرح ما يقرأه ، وكما كان يفعل في شرح بعض الأحاديث والمسانيد ، وتعليم تجويد القراءات .

٣) الإملاء على الطلاب ، وهذا كان مقصوراً على الحديث فقط ، فقد كان يملي على الحاضرين بعد عصر كل يوم جمعة بعض الأحاديث التي يشرحها أو يرويها ومجالس الإملاء هذه هي التي أطلق عليها اسم « الأمالي الحديثية » نسبة إلى الحديث و « المواعيد الجمعية » نسبة إلى اليوم الذي كانت تعقد فيه .

هـ ـ نوعية تلاميذ المدرسة وعددهم :

أما رواد هذه المدرسة والذين تتلمذوا فيها فقد كانوا يمثلون جميع فئات المجتمع على مختلف مستوياتهم الاجتماعية . ونظرة سريعة في كتاب « معجم السفر » ـ وهو الكتاب الذي ضم تراجم لهم ـ ترينا أنه كان من بينهم علماء الحديث والفقه ، والقضاة [٢] وكبار موظفي الدولة [٣] والأمراء [٤]

---

١ ـ انظر نفس المصدر : الورقة ٢٣ أ . ثم راجع التعريف بالفوراني في هذا الكتاب .
٢ ـ « معجم السفر » : ٤٥ أ ، ١١٢ أ ، ١٨ ب ، ٤٥ أ ، ٧٣ ب ، ١١٢ أ ، ١٥٢ ب.
٣ ـ نفس المصدر : ٦٥ ب ، ٩٢ ب .
٤ ـ نفس المصدر : ٤٦ ب ، ١٢٠ ب ، ١٦٥ أ ، ١٧١ ب ، ٢٢٣ أ .

والمهندسون [1] والأطباء [2] والوعاظ [3] والشعراء [4] والأدبـــاء [5] والوراقون [6] والمجلدون والنساخ والخطاطون والتجار [7] وخطباء المساجد والمؤذنون [8] ، والخياطون [9] ، وغيرهم .

ولم يكن هؤلاء التلاميذ أو الرواد من أهل الإسكندرية وحدها أو من مصر فقط ، وإنما كان هناك الوافدون من الحجاز لاستماع الحديث ، والقادمون من الشام ، وحجاج المغاربة والأندلسيين الذين كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في الاسكندرية فيترددون على المدرسة لسماع الحديث والفقه والقراءات من مديرها الحافظ « السِّلفي » الذي تسامعوا بشهرته في بلادهم .

أما من حيث عدد أولئك الرواد والتلاميذ فليس سهلا أن نحصيه ، ويكفي إذا أردنا أن نعطي إحصاءتقديرياً لهم ، أن نتصور كم يكون عدد تلاميذ مدرسة ناجحة ، استمر التدريس فيها قرابة اثنين وثلاثين عاماً ، وكان مدرسها والمشرف عليها طوال هذه الفترة عالماً مشهوراً سارت الركبان بشهرته شرقاً وغرباً ، وصفه ابن خلكان بقوله : « لم يكن في آخر عمره في عصره مثله » [10] .

---

١ – نفس المصدر : ٢٢٢ أ .
٢ – نفس المصدر : ٥٨ ب .
٣ – نفس المصدر : ٣٨ أ .
٤ – نفس المصدر : ٥٠ أ ، ١١٤ أ ، ١١٥ أ ، ١٥١ أ ، وغيرها .
٥ – نفس المصدر : ١٨٢ أ ، ١٩٦ أ ، وغيرها .
٦ – نفس المصدر : ٢٩ ب ، ٤٤ أ ، ١٣١ ب وغيرها .
٧ – نفس المصدر : ٦٠ أ ، ١٢٩ ب .
٨ – نفس المصدر : ٢٠٨ ب .
٩ – نفس المصدر : ٤٨ ب ، ١٤٣ أ .
١٠ – « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢٠ .

الفصل الخامس

شخصيته وعلاقاته الاجتماعية :

أولا : مميزات شخصيته

١ ـ جديته في الحياة

٢ ـ احترامه لمجلسه

٣ ـ حبه للمطالعة وجمع الكتب .

ثانياً : علاقاته الاجتماعية :

١ ـ علاقته مع المثقفين

٢ ـ علاقته مع العوام

٣ ـ علاقته مع رجال الدولة الفاطمية

٤ ـ علاقته مع رجال الدولة الأيوبية

« واستوطن « السلفي » « الإسكندرية بضعاً وستين سنة ، مكباً على الاشتغال بالعلم والمطالعة وتحصيل الكتب » .

ـ ابن العماد ـ

أولا : مميزات شخصيته

١ – جديته في الحياة :

إن الدارس لحياة الحافظ « السِّلفي » في الاسكندرية منذ أن حل بها إلى أن رحل عنها يعجب كل العجب من حياة الجد والصرامة التي أخذ بها نفسه حتى ألفها ، فهو – رحمه الله تعالى – قد كرس حياته كلها للتدريس والمطالعة والكتابة وإلقاء المحاضرات دون أن يؤثر عنه ملل أو سأم ، أو يعرف عنه أنه كان يتوقف عن ذلك لراحة أو استجمام ، بل لم يره أحد يخرج يوماً بقصد النزهة والترويح عن النفس سوى مرة واحدة ، وإنما كانت حياته كلها جادة صارمة كما وصفها تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي بقوله : « وبلغني أن مدة مقامه بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فرجة سوى مرة واحدة ، بل كان لازماً مدرسته ، وما كنا ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء ... وأنه ما رأى منارة الإسكندرية إلا من طاقة كانت في داره »[1] . ووصفه ابن العماد أيضاً بقوله : « واستوطن « السلفي » الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الإشتغال بالعلم والمطالعة وتحصيل الكتب »[2] .

حقاً إن حياة هذه صفاتها لتدعو إلى الدهشة والاستغراب ، ذلك لأن

---

١ – « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ .

٢ – « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٥٥ .

النفس البشرية إذا داومت العمل تعبت ، وإذا تعبت ملت وسئمت ، ولهذا يلجأ الناس إلى المراوحة والاستجمام لطرد الملل وتجديد النشاط ، ولأننا لا نكاد نصدق بسهولة آن رجلا كان يعيش في مدينة جميلة تطل على البحر ، وتمتاز بجمال مناظرها الطبيعية وبآثارها التاريخية الخالدة ، مدة تزيد على ستين عاماً ولا يخرج بين الحين والآخر إلى شاطىء البحر فيجلس أو يسير على الرمال البيضاء النظيفة ليستمتع بنسمات الهواء العليل ، أو يستمع إلى هدير البحر المهيب أو يمتِّع ناظريه برؤية الأمواج المتعبة وهي تتكسر على الشاطىء فترتد كليلة حسيرة ، أو بزرقة السماء وانكسار أشعة الشمس على صفحة الماء .. إلى غير ذلك من مناظر مدينة الإسكندرية الجميلة التي تثير في النفس البهجة والسرور ، وتبعث فيها الأمل والرجاء ، وتجدد فيهـــا الهمة والنشاط .

إن حياة جادَّة كهذه قد يتهم صاحبها بالتزمت والشذوذ والإصابة بمرض الانطوائية ، ذلك لأن هذا الضرب من الحياة غير مألوف في حياة الأصحاء من الناس ، بل قد لا يوجد من يستطيع التزامه والتقيّد به إلاَّ قلّة نادرة ممن يروّضون أنفسهم على حياة خاصة بعيدة عن ملذات الحياة ، ذلك لأن هذا اللون من الحياة يحتاج إلى عزيمة جبارة وإرادة قوية . ولكننا — رغم جدية حياة « السلفي » وصرامتها — لا نستغرب ولا تنتابنا الدهشة لكون حياته على تلك الشاكلة اذا ما فهمنا البواعث النفسية التي كانت تسيطر على أخلاق المحدثين ، الذين كانوا يتصدرون لتدريس الحديث وروايته ، واذا ما عرفنا الآداب العامة التي كانوا يحرصون على التقيد بها ، ويتشددون في التزامها والتحلي بها كي يكون لهم المهابة والوقار في نفوس مستمعيهم وطلابهم . إنهم — ولا شك — يستشعرون قيمة وعظمة مـــا

يدرسونه ويتحدثون به إلى الناس ، إنهم يدرسون للناس أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — التي تصحح العقيدة في النفوس ، وتحث على التزام الصدق في القول والعمل ومخاطبة الناس بالطيب من القول ، وتنهى عن السفه وبذاءة اللسان ، وتنفر من الكبر والرياء والنفاق ، وتحذر من الافتتان بمباهج الحياة والانسياق وراء مغرياتها . لهذا فرجال الحديث الأجلاء يحرصون كل الحرص على أن يكونوا منسجمين تماماً مع العلم الذي يدرّسونه كي لا يكون هناك تناقض بين سلوكهم وأقوالهم ، بل هم يشددون على أنفسهم كي يكونوا قدوة حسنة لتلاميذهم ، وقد وجدنا بعضهم لا يسمح لنفسه أن يروي عن محدث سفيه يلفظ كلاماً يتنافى مع ما يتوقع من المحدث أن يلفظ به ، فالإمام البخاري — رضي الله عنه — ردّ حديث النضر بن مطرف [1] لأن يحيى بن سعيد القطان [2] ، ترك الرواية عنه . أما يحيى ابن سعيد فقد بيّن سبب إهمال حديث النضر بقوله : « وسمعته يقول : إن لم أحدثكم فأمي زانية ، فتركت حديثه لهذا » [3] .

وروي عن الإمام مالك بن أنس أنه كان يقول : « لا تأخذ العلم من أربعة ، وخــذ ممن سوى ذلك : لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس ، ولا تأخذ من كذّاب في أحاديث الناس إذا جرب ذلك عليه وإن كان لا يُتّهم أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من شيخ له فضل وعبادة

---

١ — محدث كوفي قليل الحديث ، قال عنه النسائي ليس بثقة . انظر ترجمته في « لسان الميزان » : ٦ / ١٦٥ .

٢ — الإمام أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان الحافظ البصري ، أحد الأعلام المشهورين في الحديث . توفي سنة ١٩٨ هـ . انظر ترجمته : « تذكرة الحفاظ » : ١ / ٢٩٨ ، « العبر » : ١ / ٣٢٧ .

٣ — « الكفاية » : ١٨٧ .

إذا كان لا يعرف ما يحدث »[1] .

وروى الخطيب البغدادي خبراً عن شعبة أنه قيل له : « لم تركت حديث فلان ؟ فقال : « رأيته يركض على برذون ، فتركت حديثه »[2] .

هذه إشارات توضح ما يجب أن يتحلى به المحدث من كلام وسلوك وآداب ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما اكتسبه الحافظ « السِّلفي » من أخلاق وصفات تعلمها من مجالسة العلماء ، وما اطلع عليه من كتب المحدثين التي تتحدث عن أخلاق المحدث وآدابه وهيئته . وحرصه على توقير مجلسه وتقدير الحاضرين له ، وإذا ما استحضرنا في أذهاننا أن الحافظ « السلفي » دخل ميدان علم الحديث منذ نعومة أظفاره ، واستمر في هذا الميدان طوال حياته ، لم يخرج منه ولم يبتعد عن دائرته رغم كل ما تجشمه من صعاب ، فاطلع على حياة الأعلام الكبار من أصحاب هذا العلم ، وعرف كيف عاشوا وكيف وصلوا إلى قمة المجد ، فأيقن تماماً أنه لن يبلغ درجتهم إلا إذا أعطى العلم حياته كلها ... هذا بالإضافة إلى ما عرف عنه من رغبة شديدة في العلم والتحصيل والقدرة على مداومة المطالعة وحب الحياة مع الكتب . فإذا ما استحضرنا هذه النقاط في أذهاننا أمكننا أن ندرك أن حياة الحافظ « السلفي » - رحمه الله تعالى - لم تكن ضرباً من الشذوذ أو التزمت ، وإنما كانت حياة طبيعية منسجمة تماماً مع شخصيته وآماله وسلوكه كعالم من علماء الحديث الكبار الذين يستشعرون عظمة وقيمة ما يدرِّسون ، وأنهم يرون أن حفظ هذا العلم لا يكون إلا بالمدارسة والجد والتحصيل وكثرة الاطلاع .

---

١ - نفس المصدر : ١٨٩ .

٢ - مقدمة ابن الصلاح : النوع الثالث والعشرون ، الصفحة ٥١ .

٢ – احترامه لمجلسه :

كان – رحمه الله – حليماً متواضعاً ، موطّأ الأكناف يألف الناس ويألفونه ، يتحمل الإساءة ، ويصبر على جفوة الغرباء ، يحب رواد مجلسه ، ويقبل على الجميع منهم بكل وجهه ومشاعره ، لا يدخر وسعاً في إفادتهم والتلطف معهم والإخلاص لهم ، وصفه خليل الصفدي بقوله : « وكان لا يكاد تبدو منه جفوة في حق أحد ، وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » [١] ، فأحبه الناس ووثقوا به ، وأعجبوا بخلقه وأنزلوه من نفوسهم منزلة عالية أسست على الحب والتقدير .

وكان إذا أراد أن يجلس للتحديث أو الإملاء أو إلقاء درس في السيرة أو الفقه توضأ أولا ، ثم جلس جلسة العلماء الوقورين فيضفي على المجلس من نفسه هيبة ووقاراً ، وكان أثناء الدرس يلتزم آداباً لا يخرج عنها ، فلم يكن يكثر من الحركة ، أو يعلو صوته عند الضحك ، أو يشعر المستمعين له بأنه مل أو تعب ، أو يتململ أثناء الجلوس ، بل كان كما وصفه الحافظ الذهبي بقوله : « وكان لا يشرب ماء ، ولا يبصق ولا يتنخّم ، ولا يتورك ، ولا تبدو منه قدم ، وإن بدت غطاها » [٢] .

ومع ذلك كله فلم يكن يسمح أثناء الدرس لواحد من الحاضرين أن يلهو أو يعبث أو يتحدث مع جاره أو يشغل غيره عن الإصغاء والمتابعة مهما كان شأنه ومكانته ، حتى إذا ما انتهى من عبارته أو فكرته التي يتحدث فيها أتاح للحاضرين الاستفسار والتعليق . روى الحافظ الذهبي أن

---

١ – « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٤ .

٢ – « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ . وانظر أيضاً « الوافي بالوفيات »: ٧ / ٣٥٤ ، و « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٤٥ .

السلطان صلاح الدين وأخاه حضرا يوماً عنده لسماع الحديث ، وأنهما تحدثا معاً بصوت منخفض ، فالتفت إليهما وزبرهما ، وأظهر لهما عدم الرضا ، وقال : « أيش هذا ؟ نحن نقرأ حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — وأنتما تتحدثان ؟ » فأصغيا عند ذلك [1] .

٣ — حبه للمطالعة وجمع الكتب :

وكان — رحمه الله — كثير المطالعة ، واسع المعرفة ، مجداً في التحصيل ، كثير البحث عما يشكل ، لم يكن يشغله بعد الفراغ من التدريس إلا القراءة في كتاب أو النسخ من كتب الآخرين أو التحقيق والتعليق عليها . وقد وصفه تلميذه الحافظ عبد القادر [2] الرّهاوي فقال : « ما نكاد ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء [3] . وقال عنه ابن العماد : « استوطن « السِّلفي » الاسكندرية بضعاً وستين عاماً مكباً على الاشتغال والمطالعة والنسخ وتحصيل الكتب » . وكان يحب الكتب حباً جماً ، ويحرص حرصاً شديداً على جمعها وتملكها ، حتى لقد تجمع لديه منها مجموعات كثيرة منوعة ، لم يسعفه الوقت للنظر فيها ، فلما مات وجدوا معظمها قد عفنت ولصق بعضها ببعض ، نتيجة لرطوبة جو الإسكندرية مما أدى إلى تلف الكثير منها . يقول الحافظ عبد العظيم المنذري ... « كان « السِّلفي » مغرى بجمع الكتب والاستكثار منها ، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه في

---

١ — « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ ، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ

٢ — أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الرهاوي الحنبلي ، ولد بالرها بأرض الجزيرة بالعراق سنة ٥٣٦ هـ . كان محدثاً ثقة . توفي سنة ٦١٢ هـ بمدينة حران . انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٨٧ .

٣ — « سير أعلام النبلاء » . المجلد ١٣ الورقة ٦ ب ، وانظر أيضاً « تذكرة الحفاظ » : ٤/ ١٣٠٢ .

شرائها ، وكان عنده خزائن كتب لم يتفرغ للنظر فيها ، فلما مات وجدوا معظم الكتب في الخزائن قد عفنت ، والتصق بعضها ببعض لنداوة الاسكندرية ، فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها » [1] .

ووصفه الشيخ السبكي في طبقاته ، فقال : « وكان « السِّلفي » مغرماً بجمع الكتب ، حصل منها الكثير ، وكتب بخطه – لا سيما الأجزاء – ما لا يعد كثرة » [2] .

ولعل خير دليل يبين لنا أهمية مكتبة الحافظ « السِّلفي » وما كان فيها من كتب قيمة هو أن أبا الفتوح ناصر بن علي بن خلف الأنصاري سمسار الكتب القاهري المعروف بابن صورة – الذي كان يلتقي في بيته في القاهرة يومي الأحد والأربعاء الرؤساء والفضلاء والعلماء والباحثون عن الكتب النفيسة ، فيعرض عليهم الكتب التي تباع ، ولا يزالون عنده إلى انقضاء وقت السوق – عندما علم بوفاة « السلفي » سافر إلى الاسكندرية بقصد بيع ما كان في تلك المكتبة » [3] .

وقد سلك الحافظ « السِّلفي » في الحصول على تلك الكتب الكثيرة وجمعها طريقين واضحين هما :

١ – الشراء بالمال :

كان من عادته – رحمه الله تعالى – يشتري الكتب من الورَّاقين الذين كان يحسن صلته بهم في كل بلد نزل به ، ومن ورثة العلماء الذين

١ – « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٣ .
٢ – « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٦ .
٣ – انظر « وفيات الأعيان » (طبعة بيروت) : ١ / ١٩٧ .

يتوفون . وقد أشار نفسه في كتابه «معجم السّفر» إلى هذه الوسيلة في أكثر من موضع ، نذكر منها على سبيل المثال هذه الإشارات :

يقول في ترجمته لحياة أبي الحسن علي بن سند بن عيّاش الغسّاني بمصر : « وعندي بخطه مجلدات انتقلت إليّ من تركة أبي عبد الله الروجي وغيره ، ومنها « أعلام الصحيح » لأبي سليمان الخطابي »[1] .

ويقول في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسين بن يحيى الجيزي الكتبي بالثغر : «... وكان أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب ، وقد اشتريت منه كثيراً »[2] .

وذكر في ترجمته لأبي طاهر المهذب بن معضاد الصوري الكتبي هذه العبارة : « واشتريت منه كتباً كثيرة »[3] .

وذكر أيضاً في ترجمته لعلي بن المشرف بن المسلم الأنماطي : « وانتقل إلي منها (أي كتبه) بالبيع جملة كثيرة »[4] .

٢ — النسخ والاستنساخ :

وكان — رحمه الله — يكتب كثيراً ، ويدوّن ما يسمع ويكتب ما يعجبه من كل كتاب يقرأه ، فإذا وقع تحت يده كتاب أعجبه ولا يستطيع شراءه ، أو لا يستغني عنه صاحبه ، نسخه بيده مهما كان حجمه ، أو

---

١ — « معجم السفر » : ١٣٨ ب . وأبو سليمان الخطابي هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي ، كان فقيهاً محققاً ، صاحب تصانيف . توفي سنة ٣٨٨ هـ . انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٣ / ٢٠٩ .

٢ — نفس المصدر : ١٤٢ .

٣ — نفس المصدر : ١٩٥ أ .

٤ — نفس المصدر : ١٠٤ أ .

عدد مجلداته . وكان من عادته أيضاً أن ينتخب الأجزاء التي تروقه من مؤلفات المؤلفين والمحققين المشهورين الذين عاصروه أو سبقوه ، وقد سجل الحافظ الذهبي هذه العادة فقال : « لقد استطاع أن ينسخ بخطه السريع المتقن ما لا يحصى كثرة ، وكان ينسخ الجزء الضخم في الليلة الواحدة »[1] . بل لقد ذكر « السلفي » نفسه أنه كان يكتب إلى قبيل الفجر ثم ينام [2] . وكان يكتب أحياناً في عقب فراغه من النسخ « كتبت جميع هذا الجزء في الليلة الفلانية » .

وقد أورد في كتابه « معجم السفر » إشارات كثيرة تشير إلى ما كان ينسخه بيده ، نجتزئ منها هذه العبارات :

قال أثناء ترجمته لعلي بن المشرف بن المسلم الأنماطي : « وانتقيت من أصوله التي لا أرتاب فيها أكثر من مائة جزء »[3] .

وذكر في ترجمته لأبي الحسن علي بن الحسين بن عمر الفراء الموصلي : « وقد انتخبت من أجزائه زيادة على مائة جزء »[4] .

وفي ترجمته لأبي الحسن علي بن عيسى الطبري ، قال : « وما انتخبته من سماعاته وأجزائه فبسلماس في المحصل من سماعات أذربيجان وأرانية وشروان وباب الأبواب »[5] .

وقد ذكر أيضاً في نفس « معجم السفر » مرات عديدة أنه كان يطلب

---

١ – « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٤ ب .
٢ – « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٤ .
٣ – « معجم السفر » : ١٠٣ .
٤ – نفس المصدر : ١٠٢ ب .
٥ – نفس المصدر : ١٢١ أ .

من بعض النساخ والورّاقين وبائعي الكتب والعلماء والشعراء والأدباء ـ الذين كانت بينه وبينهم صلة طيبة ـ أن يكتبوا له بعض الكتب التي يملكونها أو التي ألفوها أو خرجوها ، نذكر منها على سبيل المثال المقتطفات التاليـــة :

« ونسخ لي بخطه جزيات بدمشق » [1] .

« وجلّد لي مجلدات ، ونسخ لي جزيات » [2] .

« وكتب إلي جزءاً من شعره » [3] .

« ونسخ لي أجزاء ، من بينها كتاب « بداية الهداية » لأبي حامد الغزالي » [4] .

وعن هاتين الوسيلتين ـ الشراء بالمال حيناً والنسخ أو الاستنساخ حيناً آخر ـ استطاع الحافظ « السِّلفي » ـ رحمه الله ـ أن يحصل على تلك المجموعة من الكتب والمنتخبات القيمة التي أغرت ابن صورة الكتبي أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية لشرائها .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الحافظ « السِّلفي » كانت له أيضـاً مجموعتان كبيرتان من الكتب والمسموعات ، جمعهما أثناء رحلته الطويلة في المشرق الاسلامي ، ترك أولهما وديعة في مدينة سَلَمَاس عند حفيد ابن أبي الخير ، لعدم قدرته على حملها معه عند توجهه إلى ديار بكر .

---

١ ـ نفس المصدر : ٦٨ أ (ترجمة أبي المكارم عبدالله بن يوسف الشيباني قاضي دمشق).
٢ ـ نفس المصدر : ٧٧ ب . (ترجمة عبد الله بن سعيد الخولاني) .
٣ ـ نفس المصدر : ٧٧ ب . (ترجمة أبي الحسن عدل بن محمد الغافقي) .
٤ ـ نفس المصدر : ١٥٨ ب . (ترجمة علي بن سند الغساني) .

وهي تشمل كل سماعاته وانتخاباته في أذربيجان وأرمينية وشروان وباب الأبواب ، ويبدو أن هذه المجموعة من الكتب كانت ذات قيمة كبيرة عند « السِّلفي » ، لأنه كرر ذكرها في « معجم السفر » اثنتي عشرة مرة ، كان يرجو ويتمنى من الله في كل مرة أن يهيء له أسباب إحضارها له ، ولكن ذلك الرجاء والتمني لم يتحققا [1] . وأما مجموعة الكتب الثانية فهي التي كان أودعها في مدينة آمد عندما توجه إلى الشام ، وهي تضم كل ما تجمع لديه من انتخابات وسماعات في ديار بكر [2] .

ولعل خير ما نختتم به هذه الفقرة عن حبه للمطالعة ونوعية قراءاته ، أن نذكر هنا قائمة كتب الحديث فقط التي رواها رواية حفظ ودراية ، والتي أسعدني الحظ بالعثور عليها مدونة أثناء كتابه «الأربعين» — نسخة المكتبة الأهلية بباريس — اللوحة ١٢ (أ — ب) ، والتي أرجح أن يكون قد سجلها عنه أحد طلابه ، وتشمل الكتب الآتية :

١ — صحيح البخاري .

٢ - صحيح مسلم .

٣ — موطأ مالك .

٤ — الجامع الصحيح للترمذي .

٥ — سنن أبي داود سليمان السجستاني .

٦ — مسند أحمد .

٧ — مسند سفيان بن عيينة .

---

١ — انظر نفس المصدر ، الصفحات : ٤٠ ب ، ٦٤ أ ، ٦٦ ب ، ٧١ أ ، ٩٤ ب ، ١٢١ أ ، ١٦٨ أ ، ١٧٣ ب ، ١٨٣ أ ، ١٩٣ أ ، ١٩٥ أ ، ٢٠١ ب ، وغيرها .

٢ — انظر نفس المصدر ، الصفحات الآتية : ٣٩ ب ، ٩٩ أ ، ٢٠٠ أ ، ٢٠٠ ب وغيرها .

٨ — مسند سفيان الثوري .

٩ — مسند أبي عوانه .

١٠ — مسند أبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي .

١١ — مسند أبي العباس ابن إسحاق السراج الثقفي .

١٢ — مسند أبي يعلى أحمد بن علي الموصلي .

١٣ — « مسند » عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي .

١٤ — « مسند » مسلم بن إبراهيم الأزدي .

١٥ — « مسند » أنس .

١٦ — « مسند أهل البيت » جمع الإمام أحمد بن حنبل وزيادات ابنه عبدالله .

١٧ — « سنن » أبي عبد الرحمن النسائي .

١٨ — « الاكليل » للحاكم أبي عبدالله النيسابوري (المعروف بابن البيّع).

١٩ — « سنن » الدارقطني .

٢٠ — « سنن » البيهقي .

٢١ — « شعب الإيمان » للبيهقي .

٢٢ — « المتفق » للامام الحافظ أبي بكر محمد بن عبيد الله بن زكريا بن الحسن الجوزقي .

٢٣ — « شمائل النبي » صلى الله عليه وسلم للترمذي .

٢٤ — « المعجم الكبير » للطبراني .

٢٥ — « المعجم الصغير » للطبراني .

٢٦ — « الجمع بين الصحيحين » للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي

٢٧ — « شرح السنة » للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي .

٢٨ — « الرقائق » لعبد الله بن المبارك .

٢٩ — « الترغيب » لحميد بن زنجويه .

٣٠ — « كتاب الرغائب » لأحمد بن سياد القرشي .

٣١ — « غريب الحديث » لأبي عبيد القاسم بن سلاّم

٣٢ — « غريب الحديث » لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

٣٣ — « غريب الحديث » لأبي سليمان الخطابي .

٣٤ — « كتاب الزهد » لهناد بن السريّ .

ثانياً : علاقاته الاجتماعية :

١ — علاقته مع المثقفين :

كانت حلقات الدرس في المسجد أولا ، ثم في المدرسة بعد ذلك هي همزة الوصل بينه وبين كافة فئات المثقفين من الناس ، وقد استطاع من خلال تلك الحلقات أن يكون له صلات واسعة مع عدد كبير جداً من علماء الحديث وطلابه ، ومع رجال الفكر والأدب كالكتاب والأدباء والشعراء ، ومع كبار موظفي الدولة كالولاة والقضاة وغيرهم ، ومع أرباب المهن والحرف المختلفة كالأطباء والمهندسين والتجار والورّاقين ومجلدي الكتب وأئمة المساجد والوعاظ والنسّاخ والمؤذنين ، ومع كثير من حجاج المغرب والأندلس الذين كانوا يفدون إلى الاسكندرية في طريقهم إلى الحج [١] .

وقد كانت علاقته مع أولئك المثقفين — سواء كانوا من أهل المدينة أو من الغرباء الوافدين عليها — علاقة عالم ودود متواضع ، يأنس لحديثه

١ — استخلص صديقنا الأستاذ الدكتور إحسان عباس معظم تراجم الأندلسيين من « معجم السفر » ، ونشرها بعد تحقيقها في كتيب مستقل سماه « أخبار وتراجم أندلسية » ، نشره في بيروت سنة ١٩٦٣ م .

لجالس ويستفيد منه ، ويستمع لمحدثه ولا يأنف أن يأخذ منه ، بل كان ينصت لكل من عنده علم أو حكاية أو أبيات من الشعر ، وكان يترجم لحياتهم ويثبت ما ينقله عنهم بغض النظر عن المكانة الاجتماعية التي كان عليها الواحد منهم ، وكان ينبه في نهاية تراجمهم على الثقة بهم أو على ضعف روايتهم ، أو أنهم لا يقدرون على الإتيان بما يقولون .

وكانت صلاته بالعلماء أحياناً تتجاوز حدود حلقات درسه ، إذ كان أحياناً يراسل العلماء البعيدين الذين يعدون أعلاماً في فنونهم ليجيزوه رواية مؤلفاتهم أو مسموعاتهم ، كما فعل في مراسلته [١] مع المفسر المشهور الشيخ محمود الزمخشري [٢] صاحب « الكشاف » ، أو يطلب من شخص يعرفه أن يأخذ له إجازة العلماء في بلده كما فعل ذلك مع أبي الحسن علي بن إبراهيم بن يوسف الأنصاري [٣] الذي أخذ له إجازات علماء الأندلس كابن عتاب وأبي بحر وابن طريف بقرطبة ، وابن أبي تليد وابن جحدر بشاطبة وخليص ببلنسية وغيرهم . وأحياناً كان هو يرد على رسائل الذين يستجيزونه مروياته كما فعل معه القاضي عياض سن الأندلس [٤] .

وأما علاقته مع الشعراء فقد كانت طيبة متميزة ، يسودهـــا الود

---

١ – عندي نسخة كاملة لتلك المراسلة مصورة عن مخطوط في مكتبة **Prinston** في الولا يات المتحدة .

٢ – أبو القسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري عالم في التفسير والحديث والنحو والبلاغة ، له عدة مصنفات ، وكان معتزلي الاعتقاد . توفي سنة ٥٣٨ هـ . انظـــر ترجمته : « وفيات الأعيان » (بيروت) : ٥ / ١٦٨ ، « الجواهر المضيئة » : ٢ / ١٦٠ وغيرها .

٣ – انظر ترجمته « معجم السفر » رقم ٤٠٩ (بتحقيقنا) .

٤ – انظر « أزهار الرياض » : ٣ / ١٧١ .

والتعاطف ، فقد كان يأنس بهم ويحب مجالستهم والاستماع إليهم ، ويقارضهم القصيد أحياناً ، فقد كان شاعراً مثلهم ، يقول الشعر ويتذوقه وينقده ، وصفه الحافظ الذهبي بقوله : « وكان يستحسن الشعر وينظمه ، ويثيب من امتداحه »[1] .

وقد أشار في مواطن كثيرة من كتابه « معجم السفر » إلى علاقته الطيبة مع الشعراء كقوله : « وقد كاتبني نظماً وجاوبته » ، « وكانت بيني وبينه مشاعرة » ، « وقد كاتبته نظماً وكاتبني » ، « وكتب من شعري جملة » وشبيه بذلك كثير[2] .

وقد أحبه الشعراء كثيراً وقالوا فيه قصائد كثيرة ، بل يكاد قارىء « معجم السفر » يظن أنه لم يبق شاعر من أهل الإسكندرية أو شاعر مرّ بتلك المدينة من المغاربة أو الأندلسيين إلا وحضر عنده وقال شعراً من إنشائه أو من حفظه ومسموعاته .

وسيأتي تفصيل لهذه العلاقة بإذن الله بعد قليل عندما نتحدث عن « السِّلفي الشاعر » .

وعلى الرغم من علاقة الحافظ « السلفي » الطيبة مع فئة المثقفين من الأئمة أمثال العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وغيرهم إلا أنني حرصت كل الحرص على أن أتتبع طباعه النفسية وجوانب سلوكه مع غيره ، وطريقة حديثه ونوعية ألفاظه داخل حلقات الدرس وخارجها ، لعلي أجد في شخصه جوانب غير مرضية ، أو أتعرف على طباع له كانت تنفر الناس منه ،

---

١ – انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب .
٢ – انظر الورقات : ١٥٣ ب ، ٧٠ ب ، ٦٩ ب ، ١٣٥ أ . وانظر للزيادة : ١٤ أ ، ٤٩ ب ، ٥٠ ب ، ١٣٤ ب ، ١٣٥ أ ، ١٥٨ ب ، ١٩٥ أ ، ٢٢٦ ب ، ٢٣٠ أ ، وغيرها.

أو أجد عيباً في تعامله مع تلاميذه خارج الدرس يختلف عن تعامله معهم أثناء الدرس ، أو شائبة مما لا تليق بكرامة العالم وهيبته . ولكنني ــ رغم هذا الحرص الشديد ــ لم أعثر على شيء يشينه أبداً . وكل ما ذكر ضده من أقوال هو حادثة واحدة ، تناقلها أصحاب التراجم عن الحافظ الذهبي ، ومفادها أن « السّلفي » كان يؤذي أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن الديباجي ــ المحدّث . الذي كان دون « السلفي » رتبة في الإسكندرية ــ وأنه كان يرميه بالكذب ، وأن ابن الديباجي كان يقول : « كل ما بيني وبينه شيء فهو في حلّ إلا « السّلفي » ، فبيني وبينه وقفة بين يدي الله » [1] .

والذي أميل إليه أن هذه الحكاية ليست بمستبعدة ولا مستهجنة ، وليست غريبة الحدوث ، بل هي ــ في نظري ــ نوع من الدفاع عن النفس ، لأن ابن الديباجي كان قد تغيرت ذاكرته في أواخر أيامه ، فاتّهم بالكذب . يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه « لسان الميزان » : « إن ابن الديباجي كان قد خرف بآخره ، وتغير ونُسب للكذب والتزوير » [2] .فليس إذاً بمستبعد أن يكون « السلفي » قد وجد على ابن الديباجي في أواخر أيامه ممسكاً في روايته للحديث فضعفه ، وحذر من الاستماع إليه . فانبرى ابن الديباجي يدافع عن نفسه ويشيع في الناس أنه متهم وهو بريء . ويقوي هذا الرأي أن الحافظ « السلفي » سجل في « معجم السفر » بيتين من الشعر رواهما عن ابن الديباجي ، [3] ولم يعلق

١ ــ « العبر » : ٤ / ٢١٤ ــ ٢١٥ . ونقلها عنه ابن حجر العسقلاني في « لسان الميزان » : ٣ / ٣٠٩ ، وابن العماد في « شذرات الذهب » : ٤/٢٤١ ، أثناء ترجمتهما لحياة ابن الديباجي.

٢ ــ انظر « لسان الميزان » : ٣ / ٣٠٩ .

٣ ــ انظر « معجم السفر » : الترجمة رقم ٣١٣ (بتحقيقنا) .

على ابن الديباجي ولم يتهمه بشيء .

وقد لا يستبعد أن يكون مرجع هذه الأحدوثة نوعاً من الحسد الذي يكون عادة بين أصحاب المهنة الواحدة في البلد الواحد . فابن الديباجي كان محدثاً في الاسكندرية ولكنه دون « السلفي » منزلة، وكانت له حلقة يدرس فيها ، بل كان الطلاب الذين لا يرغبون في الحضور عند « السلفي » ، أو يطردهم هو من حلقته يذهبون إلى ابن الديباجي ليتتلمذوا عنده ، وقد ذكر ابن الصابوني ما يؤيد هذا ، فقال أثناء ترجمته للشاعرة تقية [1] الصورية : « وأنشدت لنفسها قصيدة بثغر الإسكندرية تمدح فيها شيخنا الحافظ « السلفي » ، وتعتذر إليه لانقطاع ولدها أبي الحسن علي بن صمدون عن مجلسه ، وملازمته لأبي محمد عبد الله بن أبي اليابس الديباجي ، وكان الحافظ « السلفي » قد غضب عليه بسبب ذلك » [2].

٢ ـ علاقته مع العوام :

أما علاقة « السِّلفي » مع عامة الناس من أهل الاسكندرية الذين لم يكونوا علماء أو مثقفين ، فقد كانت طيبة للغاية ، فهم قد أنزلوه من نفوسهم منزلة عالية ، وكانوا يحضرون عنده في بعض الأوقات ليتبركوا به لتقواه وصلاحه ، بل لقد كانوا يبالغون في تقديرهم واحترامهم له ، وأخذوا يعتقدون فيه « البركة » ، وأن يده « المبروكة » تزيل الهم وتفرج الكرب . ومن لطيف ما رواه الحافظ الذهبي في هذا المقام أن العامة من

---

١ ـ تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري . انظر ترجمتها رقم ٨٩ في « معجم السفر » (بتحقيقنا) .

٢ ـ « تكملة إكمال الإكمال » : ٤٩ .

أهل الإسكندرية كانوا يهرعون إليه — إذا تعسرت امرأة في ميلادها — ليكتب لهم بعض الأدعية في ورقة ، اعتقاداً منهم أن مجرد وضع تلك الورقة المكتوبة بيده « المبروكة » على بطن المعسر سيزول العسر ويسهل الميلاد . وكان الحافظ « السلفي » لا يمانع في كتابة تلك الورقة إرضاء لنفسياتهم ، رغم يقينه أن ما كتبه لا ينفع ولا يضر . ولما تكرر من العامة ذلك ، قرر أحد تلاميذه أن يرى بعينه ماذا يكتب الحافظ لهم . يقول ابن الأوقي[1] : « فلما كثر ذلك نظرت فيما يكتب لهم فوجدته يكتب : « اللهم إنهم قد أحسنوا ظنهم بي ، فلا تخيب ظنهم فيّ » [2] .

وقد بلغ من ثقة العامة به أن العصاة والمذنبين ومقترفي الآثام ومدمني الخمر كانوا يأتونه ويتوبون على يديه . وقد ترجم في كتابه « معجم السفر » لحياة واحد من أولئك التائبين ويدعى أبو الحسن علي بن عبد المعطي الفوطي ، فقال : « وكانت له صَبوة ، ثم تاب على يدي ، وأخذ يجلب إلي واحداً بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » [3] .

٣ — علاقته مع الحكام ورجال الدولة الرسميين :

إن السؤال الطبيعي الذي يطرح نفسه الآن هو كيف كانت علاقة الحافظ « السِّلفي » — وهو محدث سني وفقيه شافعي — مع حكام الإسكندرية وكبار رجال الدولة الرسميين فيها الذين كان معظمهم شيعيين فاطميين أو على الأقل يمثلون مذهب الخلافة الرسمي ؟ ثم كيف كانت علاقته — أيضاً — مع حكام الدولة الأيوبية وأمرائها بعد ذلك ؟

١ — أبو علي الحسن بن أحمد بن يوسف الأوقي . سيأتي تفصيل عن حياته في فصل «شيوخه وتلاميذه » .
٢ — أنظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٧ أ .
٣ — الورقة ١٤٠ ب — ١٤١ أ .

آ – علاقته مع رجال الدولة الفاطمية :

ذكرت – فيما تقدم – أن الحافظ « السلفي » قدم الإسكندرية سنة ٥١١ هـ في خلافة « الآمر » (٤٩٥ – ٥٢٥ هـ) ، وأنه عاش فيها إلى أن رأى بعينه زوال الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وقيام الدولة الأيوبية مكانها . تلك ولا شك – فترة طويلة تعاقب فيها خمسة من الخلفاء الفاطميين هم : الآمر (٤٩٥ – ٥٢٥ هـ) ، والحافظ (٥٢٥ – ٥٤٤ هـ) ، والظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ) ، والفائز (٥٤٩ – ٥٥٥ هـ) ، والعاضد (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ) .

وقد يستغرب الدارسون لحياة الحافظ « السِّلفي » في هذه الفترة الطويلة ألا يعثروا على موقف تحريض أو إثارة وقفه ضد الفاطميين ، أو على إجراء عدائي واضح اتخذه الفاطميون ضده ، ذلك لأنه من البديهي في مثل ظروفه كمحدث سني يعيش في ظل دولة شيعية يخالف مذهبها الاعتقادي مذهبه أن يصطدم أحدهما بالآخر ، لتناقضهما في الاعتقاد والتفكير في إحياء شعائر الإسلام وطريقته في الحكم ، فكون الحافظ « السِّلفي » يقيم في مدينة الإسكندرية إحدى مدن الخلافة الفاطمية ، ويدّرس عقيدة أهـل السنة المتناقضة مع مذهب الفاطميين الشيعي كان هذا وحده كافياً ليعتبر مخالفة صريحة لمذهب الخلافة الرسمي ، بل يعد تهديداً واضحاً لوجود الخلافة نفسها ، لأن وجودها قائم على أساس وجود المذهب .

ويبدو لي من تتبعي لأحداث الحياة السياسية في مصر آنذاك أن موقف الحافظ « السلفي » من خلافة الفاطميين وعدم اصطدامه برجالها الرسميين ودعاتها – الذين كانت مهمتهم نشر مذهبهم بين الناس – يرجع إلى سببين ؛ أولهما أن الحافظ « السِّلفي » قد آثر العافية ، وحرص منذ وطئت

قدماه شواطىء ثغر الإسكندرية أن يتجنب الاصطدام بالفاطميين ما أمكنه ، حتى لا يؤذوه كما آذوا غيره من علماء الإسكندرية على يد جيوش الأفضل ابن بدر الجمالي ، أو يمنعوه من التحديث كما فعلوا من قبل مع المحدث أبي إسحاق الحبال المصري [١] ، فتجنب نقدهم والإساءة إليهم بشكل يثير حفيظتهم عليه ، فابتعدوا عنه وتركوه وشأنه ، واحترم — هو — نفسه بالابتعاد عنهم فاحترموه وأجلوه ، بل إن بعضهم كان يذهب إلى حلقة درسه ويستمع إليه . وقد أشار في ترجمته لحياة أبي الأشبال الضرغام والي الإسكندرية أنه حضر عنده في حلقة درسه مرة — قبل أن يلي الوزارة [٢] للخليفة العاضد — وأنه أنشده أبياتاً من الشعر القديم [٣] . كما ذكر أيضاً أن والي الإسكندرية الامير همام بن سوار اللخمي — شقيق الوزير الضرغام — قد حضر عنده مرة وكان برفقته بعض أمراء الفاطميين ، وأنه — أي الأمير همام — أراد أن يحرجه في تلك الجلسة ، فسأله عن رأيه الصريح في خلافة الفاطميين للبلاد ، فأجابه — وقد عرف مغزى السؤال — إجابة غير صريحة ، فيها تلاعب لفظي وحسن تخلص . يقول : « قال لي يوماً الأمير همّام بن سوار اللخمي — قبل أن ولي أخوه الضرغام الوزارة . وهو والي الإسكندرية : ما الخلفاء عندي سوى العلماء — وذلك بمحضر من جماعة من الأمراء — فتداركت الأمر ، وقلت : « ما أبعد الأمير وفّقه الله ، فقد روي عن النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « اللهم ارحم خلفائي » . قالوا : يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : « قوم يأتون من بعدي يروون

---

١ — المحدث الثقة إبراهيم بن سعيد بن عبد الله الحبال ، منعه الفاطميون من الرواية وتهددوه ، فلم ينتشر من حديثه كثير ، توفي سنة ٤٨٢ ه ، انظر ترجمته « حسن المحاضرة » ١ / ٣٥٤ ، « تذكرة الحفاظ » : ٣ / ١١٩١ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٣٦٦ .

٢ — وزر الضرغام للخليفة العاضد من سنة ٥٥٨ — ٥٥٩ ه .

٣ — انظر « معجم السفر » الورقة ٤٧ أ .

أحاديثي وسنّتي ، ويعلمونها للناس » . لكن النبي — عليه السلام — لما توفي ورث العلم والسيف ، فالعلم للعلماء يقولون ما أمر به الشارع ، والسيف للأمراء وجيوش الإسلام ، يأتمرون ذلك ، لكن بين من يقول « إفعل » وبين من « يفعل » بَون بعيد وفرق ظاهر . ونحن الآن وأنتم — وإن اختلفنا في الزي — فوارثان لإرث النبوة وكجسم واحد » [١] .

ويعلق الحافظ « السلفي » بعد أن أورد هذه الحكاية ، فيقول : « فاستحسنوا هذا ، وأثنوا بخير ، وأرضيتهم بهذا الفصل خوفاً من التشعيث » [٢] .

وثانيهما أن الخلافة الفاطمية في تلك الفترة (من ٥١١ — ٥٦٧ هـ) قد أخذ نجمها ينحدر نحو الأفول والزوال ، وأن الخلفاء أنفسهم كانوا ضعافاً مسلوبي الإرادة والإدارة ، يتحكم في أمورهم ومصائرهم الوزراء المتصارعون على كرسي الحكم ومركز القوة والسلطان ، وأن أولئك الوزراء لم يكونوا حريصين على رعاية المذهب الفاطمي والمحافظة عليه بقدر ما كانوا حريصين على السيطرة والبقاء في سدنة الحكم ، بل كان بينهم وزراء سنيون كبدر الجمالي [٣] وولده الأفضل وحفيده شرف المعالي بن الأفضل [٤] ، ووزراء آخرون نصارى كبهرام الأرمني المسيحي وغيره [٥] . وهؤلاء الوزراء جميعاً — على اختلاف مذاهبهم الاعتقادية —

---

١ ، ٢ — نفس المصدر : ٢٢٣ أ — ب .

٣ — تولى بدر الجمالي الوزارة للخليفة المستنصر من ٢٨ جمادى سنة ٤٤٦ هـ إلى ربيع الأول سنة ٤٨٧ هـ .

٤ — تولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة بعد وفاة والده ، ثم جاء بعده ابنه شرف المعالي فوزر للخليفة المستعلي والخليفة الآمر من سنة ٤٨٧ — ٥١٥ هـ .

٥ — تولى بهرام الوزارة في زمن الخليفة الحافظ من سنة ٥٢٩ هـ — ٥٣١ .

لم يكن يهمهم أمر المذهب الفاطمي في كثير أو قليل .

هذان السببان – في نظري – جعلا الحافظ « السِّلفي » يظل بمأمن من الاصطدام مع رجال الدولة الفاطمية . بل أكثر من هذا وجدناه يلقى من رجال الدولة الفاطمية الرسميين كل تقدير واحترام .

يقول تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي : « وكان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة ، مع مخالفته لهم في المذهب (وقلة مبالاته بهم في أمر الدين لعقله ودينه ، وأدب نفسه واعترافه بالحقوق وشكره لها) »[1] .

وليس يعني هذا أن « السِّلفي » بعلاقته الحسنة مع الفاطميين كان يحبهم أو يرضى عن جانب معين من مذهبهم ، بل وجدناه في كثير من التراجم التي تبين له أن أصحابها كانوا يتشيعون سراً ، أو كانت لهم صلات وقربى مع الحكام الفاطميين ... وجدناه يرثي لحالهم وينوه صراحة بما بلغه عنهم . بل أكثر من هذا كله لا نكاد نجد في « معجم السفر » – الذي بلغت تراجمه ما يقارب سبعمائة وأربع وثمانين ترجمة – تراجم لأشخاص مشهورين بولائهم أو اعتناقهم للمذهب الفاطمي سوى عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة كانت له معهم حكايات ، منهم الضرغام وأخوه همّام اللذان تقدم ذكرهما . وهذا التجاهل الواضح لا شك أنه أمر مقصود تعمده « السِّلفي» لعدم رضاه عن الفاطميين ومذهبهم الشيعي .

أما صلته بولاة الإسكندرية « السنيين » من قبل الفاطميين ، الذين لم يتمذهبوا بالمذهب الفاطمي ، وظلوا على اعتقادهم « السني » ، فقد كانت

---

١ – انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ ، « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٤٥ « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٤ ، وقد انفرد الأخير بالزيادة التي بين المعقوفين .

حسنة طيبة فهم كانوا يحبونه ويجلونه ، ويعرفون له قدره ، ويحضرون دروسه ، ويقرأون عليه . فالوالي قَسطة الآمري كانت بينه وبين « السلفي » مودة ومكاتبة . قال عنه في « معجم السفر » : « وقسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل ، المثابرين على مطالعة الكتب ، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين ، وكانت بيني وبينه مودة ومكاتبة » [1] . أما نائب والي الاسكندرية أبو الرضا عبد الله بن الفضل بن دُليل الحضرمي فقد قال في ترجمته : « ... وكان يلازمني ويراجعني في المسائل التي يتشكك فيها ، وقرأ عليّ « البخاري » لابن بطّال [2] قراءة درايـــة لا رواية » [3] .

أما والي الإسكندرية العادل بن السلار ، فقد أكرمه ، ووضعه في مكانة عالية تليق بـــه ، وبنى له المدرسة « العادليـــة » [4] ، وعهد إليه إدارتها والتدريس فيها ، وكفاه الإنفاق عليها بأن وقف لها أوقافاً تدرّ عليها وتسد نفقاتها واحتياجاتها .

هذه أمثلة لصلة الحافظ « السلّفي » برجال الدولة الفاطميين الرسميين المتشيعين منهم والسنيين ، وهي كما تبدو علاقة طيبة ، واضح فيهـــا التقدير والاحترام رغم أنه لم يزر واحداً منهم في بيته أو مقر عمله .

---

١ — « معجم السفر » : ١٧١ ب .
٢ — أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبي ، مؤلف « شرح البخاري » ، توفي سنة ٤٤٩ ﻫ ، وقيل سنة ٤٤٤ ﻫ . انظر ترجمته : « الديباج » : ٢٠٤ ، « العبر » : ٣ / ٢١٩ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٢٨٣ ،
٣ — « معجم السفر » : ٦٥ ب .
٤ — راجع « السلفي في الاسكندرية » ، ص ٩٥ .

ب ـ علاقته مع رجال الدولة الأيوبية :

مما لا ريب فيه أن الحافظ « السِّلفي » فرح فرحاً عظيماً لزوال الخلافة الفاطمية الشيعية ، وقيام دولة الأيوبيين السنية على أنقاضها ، الذين شرعوا منذ اللحظة الأولى من قيام دولتهم يدعون إلى إعادة اعتناق عقيدة أهـل السنة ، وإلى إزالة كل مظهر من مظاهر الاعتقاد الفاطمي ، وإلى تخويف كل من يحاول إعادة المذهب الفاطمي أو الدعوة لإحيائه .

ولكن سرور الحافظ « السلفي » بقيام دولة السلطان صلاح الدين لم يخرجه عن النهج السلوكي الذي ارتضاه لنفسه وحياته كعالم يصون علمه ، وهو نهج يقوم على الاعتزاز بالعلم واحترام النفس والبعد بها عن العيش في ظل أصحاب السلطان والترفع بها عن التردد على عتبات قصور أصحاب الشأن بين الحين والآخر . فهو ـ رحمه الله ـ ظل محترماً لنفسه ، معزاً لها ، فلم يقرع باب أحد من السلاطين الأيوبيين أو أمرائهم لا مهنئاً ولا شاكراً ، تماماً كما كان يفعل مع خلفاء الفاطميين وأمرائهم من قبل .

أكبر سلاطين بني أيوب وأمراؤهم في « السِّلفي » هذا السلوك ، وأخذوا يسعون هم إليه ، ويحضرون حلقات دروسه ، فيستمعون إليه كما يستمع غيرهم ، بكل تقدير وإجلال وإكبار . فالسلطان صلاح الدين ـ على مهابته وجلال قدره وعلو مكانته كحاكم لمصر كلها ـ ذهب بنفسه من القاهرة إلى الإسكندرية ـ يصحبه ولداه الأفضل « علي » والعزيز « عثمان » وأخوه « العادل » وسكرتيره « العماد الأصفهاني » ، وكبار رجال دولته ـ لزيارته وليسمع الحديث منه [1] .

---

١ ـ انظر «كتاب السلوك» للمقريزي : القسم الأول من الجزء الاول ص١٩١ و ١٤٤ .

يقول القاضي ابن شداد في وصف تلك الزيارة أثناء حديثه عن أخلاق السلطان صلاح الدين ، وعن حبه لسماع الحديث الشريف : «وكان السلطان شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع منه ... وقد تردد إلى الحافـظ « السلفي » بالإسكندرية ، وروى عنه أحاديث كثيرة »(١) .

وقد نقل المؤرخ أبو شامة صاحب كتاب « الروضتين » عن العماد الأصفهاني – وكان السكرتير المرافق لصلاح الدين – وصفاً تفصيلياً لتلك الزيارة ، فقال : « ثم خرج السلطان من القاهرة يوم الأربعاء الثـاني والعشرين من شعبان، واصطحب معه ولديه الأفضل « علياً » والعزيز « عثمان » ... ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلفي ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان ، واغتنمنا فرصة الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر .. »(٢) .

ومن ألطف ما حدث في تلك الزيارة أن الملك العادل كان يجلس في أحد تلك الأيام الثلاثة بجوار أخيه السلطان ، فمال عليه ، وهمس في أذنه بكلام غير مسموع ، فلما رآهما الحافظ « السلفي » زبرهما ، وأظهر لهما

---

١ – « النوادر السلطانية » : ٧ .

٢ – « كتاب الروضتين » : ١/ ٢٦٨ – ٢٦٩ .

عدم الرضا ، فأصغيا [1] .

ويبدو أن تلك الزيارة قد تركت في نفس العزيز « عثمان » — الذي كان هو وأخوه « علي » برفقة والدهما — ذكريات طيبة ، جعلته يحب مدينة الإسكندرية وأهلها ، فلما أصبح ملكاً على مصر لم ينس تلك المدينة وذكرياته فيها ، وإنما أخذ يتردد عليها لزيارتها بين الحين والآخر [2] . وقد شاءت الأقدار أن يكون سبب وفاته أنه خرج للصيد يوماً في صحراء الإسكندرية قريباً من الفيوم ، فلاح له ظبي فركض ، بفرسه خلفه ، فكبا الفرس ، فدخل قربوس السرج في صدره ، فأصابته الحمى من ذلك ، وحمل إلى القاهرة ، فتوفي بها [3] .

* * *

١ — راجع فقرة « احترامه لمجلسه » ، الصفحة ١١٨ .
٢ — انظر كتاب « السلوك » للمقريزي ، القسم الأول : ١٩١ ، ١٤٤ .
٣ — انظر « النجوم الزاهرة » : ٦ / ١٢٩ .

الفصل السادس

علوم السِّلفي الأخرى :

١ ـ « السِّلفي » العالم بالقراءات

٢ ـ « السِّلفي » الفقيه

٣ ـ « السِّلفي » المؤلف الناقد

٤ ـ « السِّلفي » الجغرافي

٥ ـ « السِّلفي » الشاعر وعلاقته بالشعراء .

اشتهر الحافظ « السلفي » – رحمه الله – بأنه محدث كبير متصدر ، وقد استطاعت هذه الشهرة أن تحجب عن الكثيرين مواهبه الفكرية ، وإجادته لألوان أخرى من الثقافة والمعرفة . ومع إقرارنا له بمكانته العالية في علم الحديث والتي سنورد بعد قليل أقوال العلماء الدالة على علوها وعظمتها ، فإن من حقه علينا أن نكشف للقارىء المواهب الأخرى التي كان يتمتع بها كي تتضح الصورة كاملة . فهو – رحمه الله – بالإضافة إلى تصدره في ميدان علم الحديث كان عالماً بالقراءات وحروفها ، وفقيهاً شافعياً مارس التدريس والإفتاء ، وشاعراً ينظم الشعر ويتذوقه وينقده ، ومؤلفاً ناقداً له مؤلفاته وأسلوبه في النقد ، ورحالة جغرافياً أطلعنا على أشياء وأماكن كثيرة من البلاد وآثارها .

١ – السِّلفي العالم بالقراءات :

بدأ الحافظ السلفي – رحمه الله – دراسة القراءات والتجويد في بلده « أصبهان » على أيدي شيوخ القراءات المشهورين فيها آنذاك . فهو قد قرأ على الشيخ المعمر أبي الفتح أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد الحداد الأصبهاني المتوفي سنة ٥٠٠ هـ ، وقرأ القرآن الكريم بحرف « عاصم »[١] على الشيخ أبي سعد محمد بن محمد بن المطرز مقرىء « أصبهان » وشيخها في القراءات ، وقرأه أيضاً على عبد الله بن أحمد بن عبد الله الخرقي الأصبهاني . ثم قرأ بعد ذلك في بغداد على شيوخ القراءات فيها ، منهم :

---

(١) ستأتي ترجمته .

أبو منصور محمد بن أحمد بن عبد الرزاق الخياط المقرىء الزاهد صاحب كتاب « المهذب في القراءات » والذي كان يقرىء العميان في المسجد بدون أجر حتى بلغ من أقرأهم من العمياز سبعين ألفاً ، وقد قال عنه « السلفي » : « ختم في ثاني جمعة من وفاته على قبره مائتين وإحدى وعشرين ختمة » . ومنهم مقرىء العراق أبو طاهر أحمد بن علي بن عبيد الله بن سوار صاحب كتاب « المستنير » و « المفردات في القراءات العشر » ، والذي أقرأ خلقاً كثيراً ، شهد له العلماء بالثقة والجودة ، ومنهم أبو الخطاب علي ابن عبد الرحمن بن هارون بن الجراح المقرىء الشافعي ، الذي كان يلقب بالرئيس ، وكان أديباً شاعراً ، نظم القراءات في منظومة طويلة له .

وقال الحافظ الذهبي : « نقلت من خط الحافظ عبد الغني المقدسي نقل خطوط المشايخ « للسلفي » بالقراءات ، وأنه قرأ بحرف « عاصم » [١] على أبي سعد المطرز ، وقرأ برواية حمزة [٢] والكسائي [٣] على محمد بن أبي نصر القصار ، وقرأ لقالون [٤] على نصر بن محمد الشيرازي ، وقرأ برواية

---

١ – أبو بكر عاصم بن أبي النجود بهدلة مولى بني جذيمة بن مالك ، أحد القراء السبعة المشار إليه في القراءات . توفي في الكوفة سنة ١٢٧ هـ . انظر ترجمته : « وفيات الأعيان » : ٢ / ٢٢٤ ، « الفهرست » : ٤٣ ، « غاية النهاية » : ١ / ٣٤٦ .

٢ – هو حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي المعروف بالزيات ، أحد القراء السبعة ، أخذ عنه الكسائي والفراء والأعمش . توفي سنة ١٥٦ هـ . انظر ترجمته : « وفيات الأعيان » : ١ / ٤٥٥ ، « الفهرست » : ٤٤ ، «غاية النهاية» : ١/ ٢٦١ .

٣ – هو أبو الحسن علي بن حمزة المعروف بالكسائي ، أحد القراء السبعة. توفي سنة ١٨٩ هـ. بالري وقيل سنة ١٨٢ هـ . كان أثيراً لدى الخليفة هارون الرشيد ومؤدباً لولديه الأمين والمأمون . قال الرشيد عن موته : « اليوم ذهب الفقه واللغة » . انظر ترجمته : « وفيات الأعيان» : ٢ / ٤٥٧ ، « معجم الأدباء » : ٥ / ١٨٣ هـ ، « غاية النهاية » : ١ / ٥٣٥ .

٤ – هو عيسى بن مينا بن وردان الزرقي ، الملقب بقالون ، قارىء المدينة المنورة . انظر ترجمته « غاية النهاية » : ١ / ٦١٥ .

قُنْبل [1] على عبد الله بن أحمد الخرقي ، وقد قرأ على بعضهم في سنة ٤٩١ هـ » [2] .

وقد تابع « السِّلفي – رحمه الله – دراسته للقراءات وإتقانها ، وتدريسها لتلاميذه بعد أن استقر به المقام في مدينة الإسكندرية . فقد التقى فيها بعالم القراءات أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف المعروف بابن الفحام الصقلي ، صاحب كتاب « التجريد في القراءات » ، والذي انتهت إليه رئاسة الإقراء علواً ومعرفة في مدينة الإسكندرية ، وقال عنه « السلفي » : « كان حافظاً للقراءات ، صدوقاً متقناً عالماً ، وقد قال لي أبو الربيع سليمان بن عبد العزيز المقرىء الأندلسي : « ما رأيت أحداً أعلم بالقراءات ووجوهها منه لا بالمغرب ولا بالمشرق ، وإنه ليحفظ القراءات كما نحفظ نحن القرآن » [3] .

وقال السِّلفي أيضاً : « وله تأليف حسن سماه « التجريد في بغية المريد » ، كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة »[4] .

وبعد وفاة ابن الفحام سنة ٥١٦ هـ ، قرأ على مقرىء آخر في الإسكندرية هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد بن سكر ، وكان معمراً كبير السن ، ثم قرأ بعد ذلك على المقرىء أبي محمد عبد الله بن حسن بن عشير العَبْدَري اليابسي الذي كان مصدَّراً في جامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو .

١ – قنبل عبد الرحمن بن خالد المكي . كان يلي الشرطة بمكة ، وكان لا يليها إلا أهل العلم والفضل . قرأ على عبد الله بن كثير وكان من جلة أصحابه ومن جهته انتشرت قراءته . توفي سنة ٢٩١ هـ. انظر ترجمته : « معجم الأدباء » : ٦ / ٢٠٦ .
٢ – انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب .
٣ – انظر ترجمته بنفصيل في « معجم السفر » : الورقة ٥٤ ب .
٤ – نفس المصدر : ٥٥ آ .

وسمع أيضاً أبا العباس أحمد بن الحطيئة اللخمي الفاسي رئيس القراء بالسبع ، الذي جاء من فاس واستقر به المقام أخيراً في مصر ، وتوفي بها سنة ٥٦٠ هـ .

وقد درّس الحافظ « السلفي » في مدرسته علم القراءات لتلاميذه . وكن قد اختار له كتيباً صغيراً من أصول أبي الحسن علي بن المشرف بن المسلم المصري نزيل الإسكندرية ، حققه وعلق عليه واعتمده أصلا له يدرس منه . ويتحدث هذا الكتيب عن قواعد علم القراءات كالوقف والوصل ، والمد والإشباع ، والإخفاء والإظهار ، والترقيق والتفخيم ، وغير ذلك من القواعد » [1] .

ومما يدل على اهتمام « السلفي » بالقراءات وإتقانه لها أن الذين ترجموا لحياته وصفوه بأنه كان عالماً بالقراءات ووجوهها . يقول ابن الجزري في كتابه « غاية **النهاية** في طبقات القراء » : « كان أعلى أهل الأرض إسناداً في الحديث والقراءات ، وسمع الحروف من أبي طاهر بن سوار من كتابه « المستنير » ، وفاته شيء سن آخره ، وسمع من محمد بن محمد بن عبد الرحمن المديني كتاب أبي عُبيد في القراءات بفوت شيء من سورة قٓ » [2] . وقال الشيخ السبكي صاحب « طبقات الشافعية» : « وقرأ القرآن بالروايات » [3] . ووصفه خليل بن أيبك الصفدي بقوله : « وكان إماماً مقرئاً ، مجوداً » [4] .

---

١ – توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتيب في مكتبة Chester Beatty بدبلن تحت الرقم Ms. 3764 وعندي صورة عنه .

٢ – « غاية النهاية » ١ / ١٠٢ .

٣ – « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٣ .

٤ – « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٢ .

ومن أشهر تلاميذ « السلفي » في القراءات المقرىء عيسى [1] بن عبد العزيز بن عيسى الذي كان مقرئاً « للسلفي » في مدرسته « السلفية » ، والمقرىء ابن الصفراوي [2] الإسكندراني المالكي الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء والإفتاء بالإسكندرية ، وإمام القراء أبو محمد القاسم [3] بن فيره الشاطبي الضرير صاحب التصانيف الكثيرة ومؤلف القصيدة « الشاطبية » المشهورة في القراءات .

وقد روى القراءات عن « السلفي » بالإجازة العامة الكمال الضرير .

هذا الاستعراض الموجز لاهتمام « السلفي » بالقراءات ومعرفته بها ، يقدم لنا صورة واضحة عن جانب آخر من جوانب شخصيته الفكرية .

٢ ـ السلفي الفقيه :

بدأ السلفي دراسته للفقه الشافعي في المدرسة « النظامية » ببغداد عند رحيله إليها سنة ٤٩٣ هـ ، على يد شيخ الشافعية ألكيا الهراسي مدرس الفقه الشافعي بالنظامية آنذاك ، ثم تفقه بعد ذلك على يد الشيخين يوسف بن علي الزنجاني ، وأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري الذي تولى تدريس الفقه الشافعي بعد وفاة ألكيا الهراسي .

وبعد أن استقر به المقام في الاسكندرية ، أخذ يدرس الفقه للناس ، فأقبلوا عليه واطمأنوا لقدرته على ذلك . فلما بنى له العادل السلار ـ والي الإسكندرية ـ المدرسة العادلية « السلفية » طلب منه أن يدرس فيها الفقه الشافعي ، فاستجاب لذلك واختار الكتاب « الإبانة » الذي ألفه عبد الرحمن

١ ـ ٣ ـ انظر فصل « تلاميذه » .

ابن محمد بن أحمد بن فوران الفوراني [1] في الفقه الشافعي ، ليكون له أصلا يدرس منه . واستمر على ذلك عشرات من السنين حتى توفي ، فاكتسب بذلك سمعة طيبة ، وأصبح متمكناً من مادة الفقه تمكناً جعل تلميذه أبا الحسن المقدسي ـ قاضي الإسكندرية وفقيهها الذي تولى التدريس بعده في المدرسة السلفية ـ يصفه بقوله : « الحافظ مفتي المسلمين » .

ولم يكن « السلفي » يقصر اطلاعه الفقهي على كتب المذهب الشافعي وحده وإنما اطلع اطلاعاً واسعاً على كتب المذهب المالكي ، وخاصة بعد أن استقر به المقام في الاسكندرية ، لأن معظم أهلها كانوا مالكيين ، وكان معظم من يفدون إليها من الأندلس والمغرب كذلك . وقد أشار كثيراً إلى أولئك المالكيين الذين كانوا يقرأون عليه كثيراً في الفقه المالكي . يقول في ترجمته لحياة ابن ملوك الأندلسي : « وسمع عليَّ رسالة أبي محمد بن أبي زيد في فقه مالك » [2] . وذكر في ترجمة ابن فَيْد القرطبي أنه كتب عنه كتاب « المجالسة » لابن مروان المالكي [3] . أما «موطأ مالك » الذي شرحه أبو القاسم الجوهري فقد ذكر الذين نقلوه عنه أو سمعوه منه مرات عديدة [4] .

وقد ترجم « السلفي » في كتابه « معجم السفر » لعدد من الأشخاص الذين كانوا يحضرون دروسه الفقهية . فترجم لعبدالله بن محمد بن يوسف الزناتي وقال عنه : « وكان يحضر عندي عند إلقائي الدروس الفقهية في المدرسة العادلية » [5] .

---

١ – انظر ترجمته : « طبقات الشافعية » (تحقيق الحلو والطناحي) : ٥ / ١٠٩ .
٢ – « معجم السفر » : الورقة ٦٥ أ .
٣ – نفس المصدر : ١٤٨ أ .
٤ – نفس المصدر ، انظر الورقات : ٢ أ ، ١٠٠ أ ، ٢٠٣ أ وغيرها .
٥ – نفس المصدر : الورقة ٦٧ أ .

وقال في ترجمته لحياة المهذب بن القطاع القروي : « وكان يحضر عندي في المدرسة لتعليق الدروس الفقهية »[1] .

وقال في ترجمته لحياة أبي الحسن علي بن محمد المخزومي الحجازي : « وقد قصدني من مكة إلى الإسكندرية ، وبقي مدة يسمع الدروس الفقهية وكتبها ورجع إلى الحجاز »[2] .

وقال في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن محمد بن علي : « وكان يحضر عندي لسماع الفقه والحديث »[3] .

ولعل خير دليل يشهد بمكانة « السلفي » الفقهية وتمكنه في ذلك هو استفتاء صلاح الدين له ضمن الفقهاء الذين استفتاهم في أمر اليهود ، الذين طلبوا منه أن يتحاكموا في أمر ميراثهم وفق شريعتهم وحسب عادتهم ، وإن كان في الورثة صغير أو غائب كان المحتاط على نصيبهم مقدمهم في شريعتهم أي حاخامهم . فكتب أبو طاهر السلفي في فتواه يقول : « الحكم بين أهل الذمة إلى حاكمهم ، إذا كان مرضياً باتفاق منهم كلهم ، وليس لحاكم المسلمين النظر في ذلك ، إلا إذا أتاه الفريقان ، فهو إذن مخير كما هو في التنزيل « فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم »[4] . وأما مال الغائب والطفل فهو مردود إلى حاكمهم ، وليس لحاكم المسلمين فيه نظر ، إلا بعد جرحه ببينة عليه وجناية ظاهرة ، وبالله التوفيق »[5] .

---

١ — نفس المصدر : ٧٦ أ .
٢ — نفس المصدر : ١٠٢ أ .
٣ — نفس المصدر : ٢٤٠ أ .
٤ — سورة المائدة : آية ٤٢ .
٥ — « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٨ .

ولكن الذي لا شك فيه أن اهتمام الحافظ السلفي بالفقه كان أقل بكثير من اهتمامه بالحديث ، ولهذا اشتهر بأنه الحافظ المحدث . ولم يشتهر في العالم الإسلامي بأنه فقيه . ويرجح هذا الرأي أننا لا نكاد نجد له آراء وفتاوي فقهية سوى رأي واحد وفتوى واحدة . فالرأي الفقهي الذي أثر عنه ، أنه جاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا ، فمنعهم من ذلك ، وقال : « هذه القراءة بدعة ، بل اقرأوا ترتيلا . فقرأوا كما أمرهم »[1] . وأما الفتوى فهي ما أفتى به في أمر اليهود عندما استفتاه السلطان صلاح الدين .

وقد ناقش الشيخ السبكي (والد صاحب طبقات الشافعية) مضمون هذه الفتوى وعلق عليها بقوله : « وأما « السلفي » فهو محدث جليل ، وحافظ كبير ، وماله وللفتوى ، وما رأيت له فتوى غير هذه وما كان له أن يكتب فإن لكل عمل رجالا » .

إن انتقاد الشيخ السبكي لهذه الفتوى قد يوحي بأن الحافظ السلفي كان محدثاً جليلا وحسب ، وأنه لم يكن شيخاً فقيهاً متصدراً للإفتاء . ولكننا إذا فهمنا أن اعتراض السبكي ، لم يكن لأن الفتوى غير صحيحة ، ولا لأنها أقرب إلى رأي المالكية ، وإنما لأنها صدرت عن محدث وليست عن فقيه ، أمكننا أن نفهم وجهة نظر السبكي وسبب انتقاده . فالمعروف أن فروع العلوم الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد استقلت بعضها عن بعض رغم ما بينها من تداخل واتصال وثيق ، وأصبح لكل فرع منها علماؤه ورجاله المتخصصون الذين لا يكادون يُعرفون إلا به . بل لقد

---

١ – « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٢ .

بلغ استقلال هذه الفروع الإسلامية حداً أصبح لا يتقبل بالرضا قول فقيه في علوم الحديث ، ولا يستحسن من محدث أن يفتي في مسألة فقهية . وكما قال السبكي : « وما كان له أن يفتي فإن لكل عمل رجالا » . ومهما يكن من أمر فلقد كان « السلفي » فقيهاً شافعياً متمكناً ، وكان يعتز ويفتخر بأنه يتبع الإمام الشافعي ، ويدرس فقهه ويفتي على مذهبه ، وقد أوضح ذلك في أبيات شعرية له يقول فيها[1] :

إمامي (الشافعي) وحين أفتي ... بمذهبـــه المهذب طـــاب عيشي
وإني لا أبالي بانفـــــــرادي ... وبقوة حجتي في ألف جيش

وقال يمدح الإمام الشافعي [2] :

فعليك يا من رام دين محمـــد ... (بالشافعي) وما تـــلاه وقالا
أعني (محمد بن ادريس) الذي ... فاق البرية رتبـــة وكمـــالا
وعلا على النظراء طراً واغتدى ... شمس الهدى والغير كان هلالا

٣ ـ السلفي المؤلف الناقد :

ان المستعرض لمؤلفات « السلفي » يلحظ بوضوح مدى اهتمامه البالغ بتدوين حياة الرجال والتأريخ لهم ، لما لهذا اللون من التأليف من صلة وثيقة بالحديث الشريف ، الذي كرّس حياته لخدمته ودراسته والتخصص فيه . وقد ظهرت بدايات تعلّقه بتاريخ الرجال والترجمة لهم أيام كان فتى صغيراً لم يبلغ العشرين من عمره ، حين صنّف كتابه الأول « معجم

---

١ ـ البلوى « الف باء » : ٢ / ٢٩٤ .
٢ ـ مخطوط برلين : رقم 1 / 7697 .

أصبهان [1] » الذي ترجم فيه لجميع شيوخ بلده الأصبهانيين الذين لقيهم وأخذ عنهم . ثم ازداد تعلقه به حين قوي عوده واشتد ساعده ورحل رحلته الأولى في طلب العلم إلى بغداد . فأخذ يؤرخ لحياة شيوخه البغداديين الذين روى عنهم وجلس في حلقات دروسهم ، ثم جمع كل ما كتبه عنهم في كتاب ضخم أسماه « المشيخة البغدادية » [2] فكان كتاباً مفيداً ودقيقاً لشيوخ بغداد في القرن السادس الهجري ، ذكر لنا فيه أسماءهم والأماكن التي لقيهم فيها ، وتواريخ ميلادهم ووفياتهم وبلدانهم التي ينتسبون إليها ، وكفاءة كل واحد منهم في العلم الذي تخصص فيه ، وأسماء المقابر التي دفنوا فيها .

أما تراجم حياة شيوخه ورفاقه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم في رحلته الطويلة التي طاف فيها العالم الإسلامي الفسيح في الشرق ، أو الذين التقى بهم في أرض الجزيرة وآمد وديار بكر في العراق ، أو الذين التقى بهم في دمشق أثناء إقامته فيها ، أو الذين عاش بين أظهرهم أهالي الإسكندرية منذ استقر عندهم إلى أن ودعهم إلى مثواه الأخير ، أو أولئك الوافدين إلى الإسكندرية من الحجاج المغاربة والأفارقة والأندلسيين الذين التقوا به في بيته أو مسجده أو مدرسته فقد ترجم لحياة أولئك في كتاب كبير أسماه « معجم السفر » .

ولقد استطعنا من خلال هذه التراجم الثلاثة التي ترجم فيها : « السلفي » لشيوخه ورجال الفكر والثقافة الذين التقى بهم وروى عنهم أن نحصل على معلومات كثيرة ودقيقة ، وأن نتعرف على أشخاص كثيرين من الأصبهانيين والعراقيين والشاميين والصقليين والأندلسيين والمصريين وأهالي

---

١ ، ٢ — انظر تفصيلا عنها في فصل « كتبه وأعماله الأدبية » .

الإسكندرية بوجه خاص لم يعرف بهم أحد قبل « السلفي » بل انفرد هو بترجماتهم دون سواه .

ويكفي الحافظ « السلفي » فخراً في مجال « علم الرجال » أن تراجمه التي دونها لرجاله ظلت مورداً ثراًّ ، ومرجعاً أصيلا يرجع إليه المؤرخون وينقل منه مؤلفو كتب الأدب والتاريخ والمعاجم والطبقات . فقد استرشد بمادة كتبه ونقل منها كل من ياقوت الحموي في كتابيه « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » ، والحافظ الذهبي في كتابيه « تذكرة الحفاظ » و « العبر » وابن خلكان في « وفيات الأعيان » ، والقفطي في « إنباه الرواة » ، والسخاوي في « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ، وابن عبد الملك في كتابه « الصلة » ، وابن الأبار في كتابيه « المعجم » و « التكملة » ، وعبد العظيم المنذري في « تكملة وفيات النقلة » ، وابن حجر العسقلاني في كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » ، وابن خير في « فهرسته » ، وابن الفوطي في « معجم الألقاب » والسيوطي في « بغية الوعاة » ، وابن العماد في « شذرات الذهب » ، وغير هؤلاء كثيرون ممن اشتهروا بالتأليف في تراجم الرجال .

بل أكثر من هذا أن مؤلفي كتب التاريخ وتراجم الأشخاص اتخذوا ما كتبه « السلفي » في كتبه وتراجمه حجة دونها ما سواها ، وحكماً فصلا يحتكمون إليه عند تعارض أقوال المؤلفين أو اختلاف الروايات . وكمثال على هذا نورد ما قاله ابن خالكان عندما اختلفت الأقوال في تاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة . يقول : « وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد في كتابه الذي وسمه بـ « سيرة صلاح الدين » : إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة

ثمان وخمسين وخمسمائة ، والقول الأول (فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر في رجب من نفس السنة) أصح ، لأن الحافظ أبا طاهر « السلفي » ذكر في « معجم السفر » أن الوزير المصري الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة .... وقد اتفقوا على أن الضرغام إنما قتل عند قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر ، فما يمكن أن يكون دخولهم مصر في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لأن الضرغام لا خلاف على قتله في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وأنه كان في أول وصولهم ، والحافظ « السلفي » أخبر بذلك ، لأنه كان مقيماً في البلاد أول وصولهم ، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره ، لأن هذا فنه ، وهو من أقعد الناس فيه »[1] .

وأما عند الاختلاف في ضبط بعض الأسماء أو تشابهها سواء كان ذلك في أسماء الأشخاص أو البلدان فيكفي حسماً للخلاف في ضبطها أن يقال : « وضبطها السلفي كذا » ، أو هكذا أوردها السلفي »[2] .

أما منهجه في التأليف – وبخاصة في المعاجم التي صنفها – فلم يسر فيه على الطريقة التقليدية التي سلكها المؤلفون السابقون له ، ذلك لأن همه من التأليف لم يكن محصوراً في جمع المادة وتسجيلها ثم تبويبها وعرضها فحسب ، وإنما كان همه أن يترجم لرجال عصره ترجمات حقيقية صادقة ، تحوي معلومات دقيقة ووافية توضح حقيقة الأشخاص بما لها وبما عليها من غير ظلم لها ، أو مجاملة في ثناء لا تستحقه .

---

١ – « وفيات الأعيان » (طبعة بيروت) : ٧ / ١٤٦ .

٢ – انظر « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » : ١ / ٣٠٥ ، ٢ / ٥٢١ ، ٥٧٥ ، ٦٨٠ ، ٣ / ٨٨١ .

ولهذا فقد اتخذ لنفسه منهجاً خاصاً به يقوم على المقابلة والمشافهة وتدقيق الرواية ونقد الرواة . وقد التزم بهذا المنهج التزاماً شديداً لم يخرج عنه في قليل أو كثير ، فهو — رحمه الله — لم يصنِّف معاجمه حسب سني وفيات المترجم لهم ، ولا حسب طبقاتهم أو فئاتهم أو نوعياتهم كما فعل كثير من المؤلفين ، ولم يجمع مادة كتبه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ، بل ولم يسجل أي ترجمة دون أن ينقدها أو يبدي رأيه فيما نقله عن صاحبها ، لقد كانت طريقته أن يلقي المترجم له فيسأله عن اسمه ، وعن بلده ، وعن لقبه ، وعن شيوخه ، وعن عمره حتى إذا ما انتهت المقابلة سجل كل ما سمعه في مذكراته . فيذكر اسم المترجم له ولقبه كما سمعه من فم صاحبه ، ويذكر اسم بلده ، والزمن والمكان الذي تمت فيه المقابلة ، ثم يذكر أسماء شيوخه ، ثم يسجل ما رواه له سواء كان حديثاً أو خبراً أو حكاية ، أو عبرة ، مبدياً رأيه في ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلا للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيراً ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التي تتشابه مع غيرها .

ولهذا ، واستناداً إلى استعراضنا لتراجم كتابـي « معجم السفر » و« المشيخة البغدادية » نستطيع الجزم بأن معاجم «السلفي» كلها عبارة عن تراجم لأشخاص قابلهم « السلفي » وتحدث معهم وعاشوا معه في زمنه ، فهم إما شيوخه الذين روى عنهم ، أو تلاميذه الذين رووا عنه ، وإما أناس جمعته بهم الصدفة ، أو أفراد كانت له بهم صلة ، ليس بينهم ترجمة لصحابي أو تابعي أو محدث أو عالم أو إمام من الأئمة المشهورين الذين ماتوا قبله . بل وليس بينهم ترجمة لشخص لم يلقه « السلفي » ، أو نقلت مادة ترجمته من كتاب .

ويمكن لقارىء كتبه – الموجودة الآن – أن يلحظ من خلالها صفات عامة واضحة تميز بها عن غيره من المؤلفين ، منها :

١ – ضبط أسماء الأشخاص بالشكل وذكر الأسماء التي قد تتشابه معها في النسبة ، وكذلك ضبط أسماء الأماكن وتحديد مواقعها كقوله :

النابلي ويذكر في مشتبه النسبة مع البابلي والناتلي [١] .

والشُبُرْبي ويذكر مع الشبوبي [٢] .

والدُنبلي ويشتبه بالديبلي والدبيلي [٣] .

والواغري ويذكر مع الزاغوني في مشتبه النسبة . [٤]

المعلم ريشة ويذكر في المختلف والمؤتلف مع رُسته [٥] .

وابن الصَّعدي نسبته مستفادة مع الصُغدي – بالغين المنقوطة – ومع الصَّعدي ، وصَعده مدينة باليمن [٦] .

ابن هرَّاش وربما قيل فيه ابن الهرَّاش بالتعريف فيذكر حينئذ مع الكيا الهرَّاسي [٧] .

وثنية في نسبه مستفاد يذكر مع بُنَيّة وبتنّة ونبيه [٨] .

وسألته عن نابل فقال : إقليم من أقاليم إفريقية بين تونس وسوسه [٩] .

وصَرِيفين مدينة صغيرة بواسط تعرف بقرية عبد الله ، وهو عبد الله ابن طاهر [١٠] . ورأيته بجوبر قرية من قرى الغوطة [١١] .

وهارون البَرْوَجي الهندي من بَرْوَج مدينة من بلاد الهند ، ويقال لبَرْوَج بَرْوَص أيضاً [١٢] .

---

١ – ٨ – انظر « معجم السفر » : ١٣ أ ، ١٨ أ ، ٢٢ أ ، ٣٩ أ ، ٥٣ أ ، ٦٤ ب ، ٧٥ أ ، ٧٧ ب ، وانظر أيضاً : ٨٠ أ ، ١٨٢ ب ، ١٨٣ ب ، وغيرها .

٩ – ١٢ – انظر نفس المصدر السابق : ١٣ أ ، ٢٦ ب ، ٥١ ب ، ٢٢٤ ب ، وغير ذلك كثير .

٢ – النقد لكل من نقل عنهم ، مع تبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان منهم ثقة ، ويضعِّف من كان منهم ضعيفاً ، مبيناً سبب ضعفه وعلته.

هذه الصفة واضحة كل الوضوح في كتابه « معجم السفر » الذي كثرت فيه عبارات النقد والتجريح كثرة غالبة ، وهي عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات أحكام عامة ، عرف بها أسلوب المحدثين في مجال الجرح والتعديل . ومن أمثلتها في مجال المدح والتوثيق قوله :

« وكان جيد الضبط » [١] ، « وكان من أهل الإتقان في القراءات » [٢] ، « وكان من أهل الأدب البارع والشعر الفائق » ، [٣] « وأمارات الصدق على أجزائه حين تأملتها وانتخبت منهـا واضحة » [٤] ، « وكان ثقة » [٥] « وكان أجودهم عبارة » [٦] « وكان صدوقاً » [٧] ، « وكان حفظة ومن الذكاء على درجة» [٨] ، « وكان من أهل العلم يتحرى الصدق » [٩] ، « وله طبع في معرفة الشعر » [١٠] ، « وكان ذكياً متقناً » [١١] « وكان من أهل العلم والدين » [١٢] ..... وغير ذلك كثير .

ومن أمثلتها في مجال الجرح والتضعيف قوله : «وأستبعد أن يكون الشعر له فقد كان يكذب كثيراً » [١٣]، « ولم يكن بعالي السند »[١٤]، « وطريقة غيره أحمد من طريقته » [١٥] « كذاب لا يعول عليه » [١٦] ، « قليل الرواية والسماع » [١٧] ، « والعهدة في ذلك عليه » [١٨] .

---

١ – ١٢ – انظر على الترتيب الصفحات الآتية : ٣ أ ، ٨ أ ، ٩ ب ، ٢٠ ب ، ٢٠ ب ، ٤٤ أ ، ٦٨ ب ، ٩٢ أ ، ١١٩ أ ، ١٣٤ أ ، ٢١٧ أ .

١٣ – ١٨ – انظر على الترتيب الصفحات الآتية : ٥ أ ، ١٤ أ ، ٥٢ ب ، ٦٨ ب ، ٨٩ أ ، ١٠٥ ب .

« ولم يكن له أصل يرجع إليه » [1] ، « وشعره يقصر عن مثلها » [2] ، « وكان أدبه يقصر عن نظم مثل هذا الشعر » [3] ، وكان غيره أوثق منه » [4] ، « وخلط في روايته » [5]... وغير ذلك كثير .

٣ — السؤال والتحرّي عن أحوال الذين نقل عنهم أو ترجم لهم ، ليعرف مدى الثقة بهم ، أو ليقف على آخر أحوالهم وأخبارهم . فقد كان يسأل الحفاظ الثقاة عن أحوال من روى عنهم الحديث ، كما كان يسأل من يلتقي بهم من الغرباء — وبخاصة غرباء المغرب والأندلس — عن أولئك الذين ترجم لهم وكتب عنهم بعض الأخبار والفوائد الأدبية . وقد أشار الحافظ ابن نقطة [6] إلى هذه الصفة عند « السِّلفي » فقال : « وكان جيّد الضبط ، كثير البحث عما يُشْكل ... سأل عن أحوال الرجال شجاعاً الذُّهلي ، والمؤتمن الساجي ، وأبا علي البَرَدَاني ، وأبا الغنائم النَّرْسي ، وخميساً الحَوْزي ، سؤال ضابط متقن » [7] .

وقد أشار الحافظ « السِّلفي » نفسه في « معجم السفر » إلى هذه الصفة بقوله : « وسألته — أي خميس الحَوْزي — عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبتُّه في جزء ضخم هو عندي » [8] ، وسألت عنه الحافظ ... فقال :

---

١ — ٥ — انظر الصفحات : ١١٣ أ ، ١٦٠ ب ، ١٩٨ أ ، ٢٣٤ أ ، ٢٣٩ ب .

٦ — محدث العراق أبو بكر محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع الحنبلي المعروف بابن نقطة ، مصنف كتاب « التقييد في رواة الكتب والمسانيد » ، و « المستدرك على إكمال ابن ماكولا » . توفي سنة ٦٢٩ هـ . انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٤١٢ .

٧ — « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب .

٨ — هذا الجزء مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٤٩ (حديث) . وعدد أوراقه ٢٦ ورقة . وفي مكتبتي صورة مصورة عنه .

« هو كثير السماع من البغداديين »[١] ، « وسألت عنه ... فقال : هو كذاب لا يُعوّل عليه في شيء »[٢] ، « وسألت عنه خميساً فقال ... »[٣] «وسألت أبا صادق المديني عنه فقال ...»[٤]، « وسألت عنه جابر اليمني ، فقال : ... »[٥] ، « وبلغني عنه أنه تقدّم في بلده »[٦] ، « وتوفي على ما حكاه لي من أثق به من أهل المغرب ... »[٧] ، « وقد جرى ذكره ، فقال لي أبو بكر الطرطُوشي ... »[٨] ... وشبيه بهذه العبارات كثير .[٩]

٤ ـ الانفتاح والتيسير والتوسع في المصادر : وأعني بذلك أن الحافظ « السِّلفي» كان متوسعاً في جمع المادة التي ألّف منها كتبه ، فهو لم يحصر نقوله أو ترجمانه على طائفة معينة أو مذهب معين ، أو على الرجال دون النساء ، وإنما كان ينقل عن كل من يلقاه وعنده فائدة ، ويترجم لكل من يأخذ عنه بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة ، وبغض النظر عن كونه مشهوراً أو مغموراً . فهو في كتابيه « المشيخة البغدادية » ، « ومعجم السفر » قد روى عن النساء[١٠] كما روى عن الرجال ، وروى عن المحدثين المشهورين كما روى عن أناس مغمورين ، وترجم في كتابه «معجم السفر » خاصة لكل فئات المجتمع الذين اجتمع بهم كالأمراء والقضاة والتجار وعلماء الحديث والفقهاء والشعراء والكتّاب وأرباب المِهَن ،

---

١ – ٨ – انظر على الترتيب : ٥ أ ، ٦٩ ب ، ١٤٨ ب ، ٨١ ب ، ١٤٤ أ ، ٣٧ ب ، ٦٩ ب ، ١٦٩ أ .

٩ ـ انظر للاستزادة الصفحات : ٢٢ ب ، ١٣١ أ ، ١٤٨ أ ، ١٦٦ب ، ١٩٣ ب ، ٢٠٤ ب ، وغيرها كثير .

١٠ – روى في « المشيخة البغدادية» عن ثمان شيخات ، وفي «معجم السفر» عن تسع عشرة شيخة .

ورجال العامة البسطاء [1] الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، بل ولبعض الأشخاص لمجرد غرابة أو طرافة أسمائهم [2] ، أو لبركة المكان الذي التقى بهم فيه [3] .

وفي كتابه « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » نراه ييسّر ويتساهل في منح الإجازة في الرواية ، فيبيحها لكل إنسان حتى ولو كان طفلاً صغيراً ، ولا يجد أي مبرِّر لمنعها ، بل يعيب على أولئك الشيوخ الذين يتشدّدون في منح إجازاتهم لمن يطلبها مهما كانت الأسباب التي يتعللون بها . يقول : « ومذهبي في الإجازة ـ الذي أذهب أنا إليه ، وعليه أدركت الحفاظ من مشايخي ، سفراً ، وحضراً ، اتباعاً لمذهب شيوخهم في ذلك ـ أن الإجازة تصحّ لمن يجاز له ، صغيراً كان أو كبيراً ، فهي فائدة إليه عائدة »[4] .

٥ ـ التجديد :

وأعني به التجديد في طريقة عرض المادة التي تكوِّن الكتاب ، فقد حاول الحافظ « السِّلفي » أن يعرض مادة كتبه عرضاً جديداً يتميّز بـه عن غيره من المؤلفين الذين سبقوه أو عاصروه ، ولكن هـذا العرض الجديد ، لم يكن تجديداً في أصول منهج التأليف التقليدي عنـد المحدثين خاصة إذ لم يعد فيه مجال للتجديد ، والسبب في ذلك أن التأليف في علم الحديث وجمعه وروايته قد استقرت أركانه في القرون الثلاثة

---

١ ـ انظر الصفحة ٤١ أ ، حيث يترجم لشداد بن شريف النجار .

٢ ـ انظر ترجمة خزرج بن عبيد الأنصاري . الصفحة ٢٣ أ ، ترجمة الضرغام : الصفحة ٤٧ أ .

٣ ـ انظر ترجمة الربيع بن سليمان العمري : الصفحة ٢٨ أ .

٤ ـ الورقة ٥ أ .

الأول للهجرة ، حيث وضعت كتب الحديث المشهورة ، وتعارف الناس عليها واطمأنوا لها ، مثل « صحيح البخاري » ، « وصحيح مسلم » ، « وسنن أبي داود » و « الترمذي » و « النسائي » . واعتمدت هذه الكتب أصولاً لدراسة الحديث وما يستنتج منه من أحكام فقهية أو تشريعية . ثم أخذ رجال الحديث في القرن الرابع والخامس والسادس يؤلفون في علوم الحديث المختلفة كنقد الرواة ، وتجريد الأحاديث من أسانيدها ، ومعرفة صحيحها من ضعيفها ، وشرحها أو اختصارها ، ومعرفة الغريب والناسخ والمنسوخ منها . يقول ابن خلدون : « انصرفت العناية بهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنّفيها ، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفيها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام ، لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها . ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في الأقل »[1] .

فالحافظ « السِّلفي » إذن لم يكن سهلاً عليه أن يضع منهجاً جديداً للتأليف وبخاصة في الحديث الذي يعتمد على النقل والرواية ، وليس للبحث والفكر فيه مجال كبير . وما التجديد الذي حاول أن يعرضه في كتبه التي ألفها إلا تجديد في عرض المادة لا في أصول منهج التأليف والبحث .

ونستطيع أن نلحظ التجديد عنده — بهذا المعنى — في كتابيه : « كتاب الأربعين البلدانية » وهو الذي سماه « كتاب الأربعين المستغني بتعيين ما فيه عن المعين » و كتاب « معجم السفر » . ففي الأول حاول أن يأتي بطريقة جديدة في تأليف الأحاديث « الأربعينية » التي سبقه في التأليف

---

١ — « المقدمة » : ٣ / ١١٤١ (الطبعة الثانية — تحقيق علي عبد الواحد وافي) .

فيها كثير من المحدثين ، الذين ساروا على تقليد متوارث ، وهو أن يجمع كل واحد منهم لنفسه أربعين حديثاً في أي موضوع يختاره ، وذلك طمعاً في الأجر والمثوبة من الله تعالى ، وأملاً في أن يبعث يوم القيامة فقيهاً عالماً ، استناداً إلى حديث روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من طرق عدة ، يقول فيه : « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من دينها ، بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » . فالحافظ « السِّلفي » — رحمه الله — عندما أراد أن يجمع لنفسه أربعين حديثاً ، رأى أن يأتي بجديد لم يسبقه إليه أحد ، فقرر أن يخرِّج لنفسه أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من شيوخه ، كل شيخ منهم من مدينة . يقول في مقدمة الكتاب : « ... فسألني خواص أصحابي الفقهاء الذين إلى العلم اعتزازهم ... إملاء كتاب في المعنى تكون فيه الكفاية ... فأجبتهم إلى ملتمسهم وفق طلبتهم ، رغبة في سلوك سبل المتقدمين واقتفائهم ... وخرَّجت في هذا الإملاء أربعين حديثاً ، عن أربعين شيخاً ، بأربعين مدينة ... وهو نوع لم يسبقني مؤلف — فيما أظن — إلى مثله ، مع تشوقه إليه ومثله ، إذ لا يقدر عليه كل واحد إلا من عرف بالرُّحلة الوافرة ، والرحلة المتواترة من بلد إلى بلد في عنفوان شبابه ... »[1].

وأما مظهر التجديد في كتاب « معجم السفر » — وهو كتاب تراجم ليس خاصاً برجال الحديث وحدهم — فهو اعتماده المقابلة والسماع شرطاً أساسياً لكل من ترجم له ، وعدم الاعتماد على أي كتاب لأي مؤلف سابق . فالكتاب — رغم ضخامته وكثرة عدد الأشخاص الذين ترجم لهم — لا نجد ترجمة واحدة منقولة من كتاب ، أو هي لشخص لم يقابله « السِّلفي » ، ولهذا نراه يبدأ كل ترجمة بإحدى هذه الألفاظ التي يستعملها

---

١ — مقدمة كتاب « الأربعين » : الورقة ٨ ب .

المحدثون : حدثني أو حدثنا إذا كان المروي حديثاً ، أو أنشدني إذا كان المقول شعراً ، وأخبرني أو أخبرنا إذا كان الأمر يتعلق بحكاية أو خبر ، أو قال لي ، أو ذكر لي إذا كان صاحب الترجمة يقص نادرة أو طرفة ، وهذه الطريقة — لا شك — تخالف طريقة كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم على الأخذ أو الاقتباس من مؤلفات من سبقهم أو عاصرهم .

أضف إلى ذلك أن التراجم التي حواها هذا الكتاب لم تكن محصورة في فئة معينة من المجتمع ، وإنما حوت كل الفئات وأصحاب المهن وأرباب الصناعات وأهل العلوم والآداب ورجال الإدارة والحكم ، والعامة والبسطاء . ولهذا السبب يعد « معجم السفر » وثيقة تاريخية هامة لا يتسرب إليها أدنى شك ، ومصدراً أصيلا يعتمد عليه في تاريخ الحياة الفكرية والأدبية لأهل الإسكندرية خاصة ، وللمصريين والأندلسيين والمغاربة والشاميين والصقليين الوافدين عامة ، في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

وأما أسلوبه في الكتابة فسهل واضح ، لا غموض فيه ولا تعقيد ، صحيح العبارة مستقيم التركيب ، يميل إلى الإيجاز ، واستعمال الجمل القصيرة ، التي يربط بينها حرف العطف « الواو » غالباً ، ويكثر من الجمل الاعتراضية ، والأحكام النقدية المركزة في كلمات قليلة — على طريقة المحدثين — ولكنها أحكام كافية وذات مدلول واضح . ويتميز في كتب التراجم بتخففه من قيود المحسنات اللفظية وبخاصة السجع ، الذي كان ميزة واضحة ومقصودة لذاتها في أساليب كتاب العصر المشهورين أمثال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أستاذ مدرسة الكتاب في وقته ، والعماد الأصفهاني صاحب كتاب « خريدة القصر » ، وابن الصيرفي

صاحب ديوان الإنشاء في أواخر العصر الفاطمي .

وأما أسلوبه في غير كتب التراجم فيخضع إلى أسلوب العصر ومؤثراته ، فيميل إلى التزام السجع إلى حد ما ، ولكنه سجع مقبول غير متكلف ، ليس بثقيل ولا ممجوج .

وكنماذج لأسلوبه في كتب التراجم نجتزىء هذه المقتطفات :

١ — ... « رافع [١] هذا كان من أهل العلم ، حسن الصحبة ، وقد لازمني عند بناء المدرسة « العادلية » مدة مديدة ، إلى أن توفي ، وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان ، ويصوم الدهر ، ويقوم الثلث الأخير أبداً ، ويؤم في الصلوات الخمس » .

٢ — « ... شبل [٢] هذا كان ظاهر الخير ، ونبغ له ولد نجيب سماه « الخضر » ، ويكنى أبا البركات ، وتفقه على شيوخ بلده ، وانقطع إلي عند دخولي دمشق ، وأفادني جملة صالحة عن ابن الحنائي والموازينيين وغيرهم ، وكانت قراءته حسنة معربة . وفارقته سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ثم بلغني أنه تقدم بعد موت شيوخه ، ودرّس في مدرسة من مدارس البلد ، وصار خطيباً في الجامع . وذكر لي أنه توفي سنة ثلاث وستين في أوائل شهورها » .

٣ — « .... أبو عمرو عثمان [٣] بن الحجاج الصقلي من سكان الثغر ، تفقه على مذهب مالك على الكبر ، وكتب كتباً كثيرة من الفقه ، ولم يكن له تصرف فيه ، وكان يحضر عندي كثيراً . وقد علّقت أنا عنه شيئاً يسيراً

---

١ — انظر « معجم السفر » : الورقة ٢٧ أ .
٢ — نفس المصدر : الورقة ٣٧ ب .
٣ — نفس المصدر : الورقة ٩٥ ب — ٩٦ أ .

مما كان يحكيه . وتوفي في العشر الأول من المحرم ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وصلى عليه عند الباب الأخضر ودفن في مقبرة « وعلة » ، ووقفت على شيء من ترساله ، وكان فاضلا ذا أدب بارع وشعر فائق » .

ومن كتبه غير التراجم نجتزىء من مقدمته لكتاب « الاستذكار » لابن عبد البر » :

« أما بعد [1] ، فقد سألتموني — سنة — سنة ست وأربعين وخمسمائة — معشر الفقهاء المالكية والشافعية بالثغر المبارك ثغر الإسكندرية ... أن أملي عليكم من الحديث — الذي عليه مدار الشرع ، الأصل منه والفرع — ما ما يمكنني إملاؤه ، ويخف علي إلقاؤه ، فأمليت في المدرسة « العادلية » — التي لم يبن قط مثلها شرقاً وغرباً وبُعداً وقرباً ، والله تعالى يكافىء منشئها الحسنى ، ويبوئه جنات عدن في العقبى — مجالس من رواياتي عن شيوخي يتضمن من الحديث الصحيح والمشهور الكثير ، ومن الفرد والغريب اليسير ، مع الكلام على الأكثر وفق ما كان الخاطر يسمح به ويمليه ، بلا ارتياء تام كما ارتضيه ، وفي آخر كل مجلس ما تيسر من حكاية وشعر لي ولغيري من النوازل والعوالي ، على ما جرت به العادة في الأمالي ، فلما بلغت الثلاثين وجزتها قطعتها ، إلى أن أرى رأيي فيما بعد من ضم مجالس أخرى إن شاء الله إليها ... » .

٥ — ومن مقدمة كتاب الأربعين قوله [2] :

« ... فإن نفراً من العلماء وفقهاء الاسلام لما رَووا قول أطهر منسل

---

١ — مقدمة كتاب « الاستذكار » : الورقة الأولى أ .

٢ — كتاب « الأربعين » : الورقة الأولى أ .

وأظهر مرسل : « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » من طرق وثقوا بها وركنوا إليها ، وعرفوا صحيحها وعوّلوا عليها ... أضحى كل واحد منهم على تخريجها عازماً ، رغبة في بعثه يوم القيامة فقيهاً عالماً ، فخرج من روايته عن شيوخه — الذين كتب عنهم — كتاباً ، جعله أربعين باباً ، ذكر في كل باب حديثاً واحداً ، ليكون له يوم القيامة شاهداً .. » .

* * *

٤ ـ السلفي الجغرافي :

لا شك أن رحلة « السلفي » الطويلة التي استغرقت من عمره سبعة عشر عاماً ، واستقراره في الإسكندرية مدة خمسة وستين عاماً ، أكسبه معرفة كبيرة بمواقع البلاد ، وتحديد أسماء مدنها وقراها . فهو قد زار في رحلته تلك مئات من المدن والقرى ، فرأى مكانها بعينه ، وسمع نطق اسمها باذنه ، وجالس أهلها ، وترجم لبعض أشخاص ينسبون إليها . وأتاحت له إقامته بالإسكندرية أن يلتقي مع مئات من المصريين والشآميين والصقليين والمغاربة والأندلسيين فعرف منهم أسماء بلدانهم والمكان الذي توجد فيه . ولهذا يمكن القول بأن ما ذكره « السلفي » من أسماء الأماكن أو البلاد في كتابه « معجم السفر » خاصة ، يعد أدق ضبطاً وأكثر تحديداً من أي معجم جغرافي آخر .

ولقد عرف مؤلفو كتب المعاجم الجغرافية القدامى أهمية هذا الكتاب فرجعوا إليه واستفادوا منه . وخير دليل على ذلك أن ياقوت الحموي صاحب كتاب « معجم البلدان » اعتمد عليه اعتماداً كبيراً ، فنقل منه مائة وعشر مرات ، أشار في كل مرة منها أنه نقلها منه .

ولكن ياقوت ــ رغم أنه كان أميناً في النقل عنه ، وفي نسبة ما نقله منه إلى مؤلفه ــ إلا أنه لم يذكره في مقدمة كتابه « معجم البلدان » ضمن المصادر التي اعتمد عليها في جمع مادته [1] . وهذا لا شك تقصير كبير ، يستدرك على ياقوت ، ويلام عليه .

وليس تحديد مواقع البلدان وضبط أسمائها هو كل ما يمكن أن نستفيده جغرافياً من معاجم « السلفي » بل إن القارىء«للمشيخة البغدادية » و « معجم السفر » يستطيع أن يرسم خريطة تفصيلية لكل من معالم مدينتي بغداد

---

١ ــ انظر مقدمة « معجم البلدان » : ١ / ٨ .

والإسكندرية ، وأن يحدد فيها أسماء وأماكن الشوارع والطرقات ، ودور العلم ومراكز العلماء ، ومواقع المقابر والمزارات ، والربط والمساجد وكثيراً من المعالم الأثرية .

ولكن رغم دقة المعلومات الجغرافية التي ذكرها « السلفي » وبخاصة في كتابه « معجم السفر » فإننا لا نكاد نجد – كما أعلم – كاتباً واحداً ممن عُنوا حديثاً بمعاجم البلدان وكتب الرحلات ينوّه بأهميته كمصدر من المصادر الجغرافية العربية أو الاسلامية التي يعتمد عليها في تحديد مواقع البلدان ، أو على الأقل يذكره ضمن المصادر التي يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها [1] .

أما الطريقة التي سلكها « السلفي » في ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها فقد كان يذكر اسم المدينة أو القرية أو المكان بعد أن يذكر اسم الشخص الذي يترجم له أو في نهاية ترجمته . وكمثال على ذلك نورد فيما يلي بعض أسماء البلاد والأماكن التي ذكرها في « معجم السفر » :

– أبو العباس الزرهوني هذا من فقهاء **مكناسة الزيتون** بالعدوة من أرض المغرب [2] .

– أبو نصر هذا كان من فضلاء أذربيجان ... وسكناه **وراوي** مدينة قريبة بأهر ... من مدن أذربيجان [3] .

– وسألته – أحمد بن علي بن عمار النابُلي – عن **نابُل** فقال : إقليم من أقاليم أفريقية بين تونس وسوسة [4] .

– سمعت أبا محمد رزق الله ... **بالزبيدية** على فراسخ من واسط [5] .

---

١ – انظر على سبيل المثال « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » تأليف كراتشكوفسكي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

٢ – ٥ – انظر « معجم السفر » بالترتيب : ١ أ ، ٣ أ ، ١٣ أ ، ٢٦ أ .

- **وصريفين** مدينة صغيرة تعرف بقرية عبدالله، وهو عبد الله بن طاهر[1].
- قال لي إبراهيم بن نبهان بن كعب المضري الماكسيني بالإسكندرية : **زِبْدَقان** ضيعة من ضياع سِنجار [2].
- وكان رضوان بن إبراهيم يؤم في مسجد من مساجد الثغر بناحية مقبرة « وَعْلة » [3].
- وقريته تعرف بقرية **سنجر هارون** على أربعة فراسخ من الدينور [4].
- ولم أسمع عليها – سعدى بنت أبي علي الكرماني – غيره بباب المراتب من شرقي بغداد [5].
- **وحطين** التي منها الفقيه هيّاج ، قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع ابن نون [6].
- سمعت أبا الحسن علي الرجي **بالذنبة** من مضافات دمشق [7].
- وهو ابن مسافر بن يوسف بن الحجاج التاجومي المغاغي ، **وتاجوس** قصر على البحر بين برقة وطرابلس [8].
- أبو حفص عمر بن الحسن بن عمر الخرماباذي ... فقيه شافعي المذهب، **وخراماباذ** ضيعة من ضياع الري [9].
- سمعت أبا زرعة عمر بن محمد بن عمر الأنصاري **ببالوان** ، وبينها وبين بالوانة أربعة فراسخ ، وهما من أعمال الدينور[10].
- قال أبو حفص : والغديري هذا كان يودّب الصبيان ، وفي مكتبه تعلمت أنا القرآن ، **والغدير** قرية على نصف يوم من القلعة أي قلعة بني حماد [11].
- أبو حفص عمر الباجي كان رجلا صالحاً وقد سألته عن مولده فقال :

١–١١ – « معجم السفر » ٢٦ ب ، ٢٧ ب ، ٣٠ أ ، ٣٥ أ ، ٣٧ أ ، ٤٦ أ ، ٥٢ ب ، ٥٦ ب ، ٥٨ ، ٥٨ أ ، ٥٨ ب ، ٥٨ ب .

في رجب سنة أربع وثلاثين وأربعمائة **بباجة** القمح بأفريقية لا باجة الأندلس [١] .

– توفي أبو حفص هذا – عمر بن يوسف الصقلي – في المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وصلّي عليه بمقبرة « **وَعْلة** » عند الباب الأخضر ودفن بقرب قبر أبي بكر الحنيفي [٢] .

– حدثني أبو محمد عبد الله بن محمد بن ملوك التنوخي الفَليشي بالإسكندرية بعد رجوعه من مكة . **وفليش** قرية من قرى لُرْقة بشرق الأندلس [٣] .

– أنشدني أبو محمد عبد الله بن محمد بن مَعْدان الركاني – **ورُكانة** مدينة لطيفة من نظر بلنسية بالأندلس – بالإسكندرية ، قال : ... [٤] .

– رأيته **بالزّز** في رباط من رُبَط داود الخادم سنة خمسمائة [٥] .

– وكان قد وصى – أبو محمد عبد الله بن الحسن بن عشير العبدري اليابسي بأن أصلي عليه ، فصليت عليه ، ودفن بمقبرة **باب البحر** [٦] .

– أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حزم الأنصاري ، أبوه مقرىء نحوي ، وأصلهم من **شارقة** حصن بقرب سرقسطة [٧] .

– **وشُرُّيون** – على ما قاله لي أبو مروان عبد الملك بن عبد الله الشريوني – حصن من حصون بلنسية بالأندلس [٨] .

– وعبد الكريم بن دشتمربار الوَفرَاوندي رأيته ببغداد سنة تسع وتسعين في رباط عقاب بقرب **الشونيزية** من الجانب الغربي [٩] .

– أبو القاسم قاضي **النّيل** ، مدينة بين الحلة والنعمانية على الفرات [١٠] .

– عتيق هذا يعرف بالأوريولي ، **وأوريول** مدينة من ناحية تدمير بشرق الأندلس [١١] .

---

١ – ١١ – « معجم السفر » ٦٠ أ ، ٦٢ أ ، ٦٥ أ ، ٦٩ أ ، ٧٤ أ ، ٧٤ ب ، ٩٦ أ ، ١١٢ أ ، ١٢٨ أ ، ١٤٥ ب ، ١٥٢ أ .

– وسألت عباداً هذا عن مولده فقال : ولدت **بحلمة بن الداروش** – قرية من قرى قيسارية – وأسكن الآن مصر ، وقد قاربت الستين [1] ،

– أخبرنا أبو الفارس عسكر بن الحسن الشَيْفَيَاني **بالفاروث** ، وهي قرية تحت واسط بسبعة فراسخ [2] .

– دخل غريب بن عبدالله المُوَسْوِس علينا رباط **شيفيا** – قرية على سبعة فراسخ من واسط [3] .

– قال : ومدينتنا **بلغي** من شرقي ثغور الأندلس ما بعدها مدينة يوحِّد الله فيها ، ملاصقة لبلاد الفرنج [4] .

– قَتَهِج من قرى الأعلم ، و**الأعلم** ناحية كبيرة بقهستان مضافة إلى همذان [5] .

– أنشدني أبو الحسن نفيس القشبي المقرىء .. **وقشب** حصن من نظر سرقسطة [6] .

– وسألته (يعني أبا زكريا يحيى بن علي الكتامي) عن مولده فقال : ومولدي بقسنطينة مدينة كبيرة بقرب الوسط بقرب قلعة بني حماد [7] .

– حدثني أبو الوليد يوسف بن المفضل القِبْذَاقي .. **وقِبْذاق** مدينة في مضافات قرطبة [8] .

– أبو الحسن الرندي ، ورندة على ما قاله لي حصن إشبيلية ومالقة [9] .

* * *

١–٩ – « معجم السفر » ١٥٧ ب ، ١٥٩ أ ، ١٦٢ ب ، ١٧٨ أ ، ٢٠٣ب ، ٢١٠ ب ، ٢٣٧ أ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ أ .

٥ ـ السلفي الشاعر وعلاقته بالشعراء :

كان الحافظ السلفي ـ رحمه الله ـ شاعراً ، ينظم الشعر ويتذوقه ، وينقده عن دُرْبَةٍ ودراية ، وكان يحب الاستماع للشعراء والمنشدين ، ويجزل العطاء لمن يمدحه ، ووصفه الحافظ الذهبي بقوله : « وكان يستحسن الشعر وينظمه ويثيب من امتدحه » [١] . وقال عنه ابن الأبار : « وكان يحب الشعر ويجيز عليه بأسنى الجوائز » [٢] .

لقد كان شاعراً فصيحاً مع أنه لم ينشأ في بيئة عربية ، ولم يكن من أصل عربي ، مما جعل بعض العلماء كأبي جعفر علي بن الباذش الأندلسي يستغرب فصاحته فيقول : « وهو على عُجْمته يقرض الشعر ، ويحييه منه ما ليس برديء ولا جيد » [٣] . ولكن فصاحته ـ رحمه الله ـ واستقامة لسانه ، وتمكنُّه من ناصية القول بالعربية رغم عجمته ليس أمراً مُستهجناً ولا مُستغرباً ، إذا عرفنا أنه ولد في بيت مسلم متدين يحب رواية الحديث ويداوم على تلاوة القرآن الكريم ، وأنه نشأ في بلد إسلامي اشتهر بكثرة علمائه ، وبالحرص الشديد على إحياء تراث النبوة حفظاً ورواية ودراية ، وأنه أدرك ـ منذ اللحظة التي بدأ فيها دراسته ـ أن تعلم اللغة العربية هو أول ما يجب أن يبدأ به ، لأنه المفتاح الوحيد الذي لا مندوحة عنه لفهم أسلوب الحديث ومرامي معانيه ، ولدقة استنباط الأحكام والتشريعات منه ، وللتمييز بين الصحيح منه والمعلول . فبدأ دراسته الأولى للغة العربية في بلده « أصبهان » ، ثم عندما رحل إلى بغداد سنة ٤٩٣ هـ في أول رحلة

---

١ ـ « سير أعلام النبلاء » : ١٣ / ٦ ب .
٢ ـ « المعجم » لابن الأبار : ٤٨ .
٣ ـ نفس المصدر : ٥٢ .

علمية له ، التحق بالمدرسة « النظامية » التي كانت أشبه بكلية تخصص عليا للدراسات العربية والإسلامية ، فدرس فيها اللغة العربية وآدابها ونحوها وصرفها وبلاغتها على : العالم اللغوي المشهور أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي شيخ الأدب في « النظامية » آنذاك : ثم انتقل إلى حلقة علي بن محمد الفصيحي الذي تولى تدريس الأدب والنحو بعد وفاة التبريزي ، ثم درس بعد ذلك على : أبي الكرم بن فاخر . وبعد دراسته للغة العربية وآدابها في « النظامية » مدة تزيد على أربع سنوات ، رحل إلى الشرق الإسلامي في طلب الحديث فاتخذ اللغة العربية وسيلته للقراءة الكتابة والتفاهم ، فكان يروي بها أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويملي بها أماليه الحديثية ، ويسجل بها كل ما كان يسمعه من شيوخه .

كل ذلك كان له أثر كثير في إتقانه للغة العربية وفي فصاحته وتقويم لسانه على النطق الفصيح دون أن تظهر فيه أدنى عُجْمة .

أما «السلفي الشاعر» فقد كان شاعراً مطبوعاً ، أدرك في نفسه القدرة على قول الشعر منذ بداية حياته العلمية في بغداد ، فأخذ يدرب نفسه على القريض بنظم البيت والبيتين والثلاثة ، يشجعه على ذلك ما كان يراه من شيوخه علماء الحديث الذين كانوا يختمون مجالس أماليهم الحديثية بأبيات قليلة من الشعر يضمنونها النصائح والعظات لتلاميذهم ، وما كان يجده في سيرة الإمام الشافعي — رحمه الله — الذي كان يتمذهب بمذهبه ويحفظ له كثيراً من أشعاره ويرويها عنه في المناسبات .

لم يهمل « السلفي » شاعريته ، ولم يتركها فريسة بين مخالب النسيان ، إنما كان يتعهدها بالدربة والمران بين الحين والحين فينظم الأبيات القليلة

والمقطوعات القصيرة ، وكان ينميّها بحفظ ورواية ما يروقه من أشعار الآخرين ، فصقلت وهذّبت واتسعت دائرة كلماتها العربية ، وأصبح له مع الأيام حس شاعر مرهف ، تستثير مكامنه العظة والعبرة ، وتحرك أشجانه كلمات النوى والحنين ، ويهيج عواطفه أطياف الذكريات ، ويعجبه الشعر المعبر ، ويروقه الجرس الجميل .

وكان — رحمه الله — يحب حفظ الشعر وروايته ، والاستشهاد به في مجالسه ، وترديد ما كان يعجبه على مسامع جلاسه . فهو كثيراً ما كان يردد قول « الشاعر »[1] :

قالوا نفوس الدار سكانها — وأنتم عندي نفوس النفوس

وقول الشاعر[2] :

نحن نخشى الإله في كل كرب — ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجو استجابة لدعاء — قد سددنا طريقَهُ بالذنوب

وقول الثعالبي[3] صاحب « يتيمة الدهر » في أبي سليمان الخطابي صاحب كتاب « معالم السنن » :

آنا سليمان سرْ في الأرض أوفأقم — سيّان عندي دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيري فأخشى أن تفارقني — فديت روحك بل روحي ، فأنت أنا

وقول الشاعر في المشيب[4] :

حل المشيب بعارضي ومفارقي — بئس القرين أراه غير مفارقي

---

١ — انظر « وفيات الأعيان » : ١ / ٨٨ .
٢ — « الف باء » : ١ / ٢٣٣ .
٣ — « مقدمة معالم السنن » للسلفي . انظر « مختصر وشرح وتهذيب سنن ابي داود » : ٨ / ١٦٢ .
٤ — « الف باء » : ١ / ٣٤٣ .

رحل الشباب فقلتُ : قف لي ساعة حتى أودع . قال : انك لاحقي

وقول الشاعر في عزة النفس [1] :

منزلي منزل الكرام ونفسي نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا
واذا ما قنعت بالقوت دهري فلماذا أزور زيداً وعمرا

وكان يعجبه قول أبي إسحاق الشيرازي في الصديق الوفي فيردده عندما يشعر بعدم الوفاء بين الأصدقاء : [2]

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ فقالوا ما الى هذا سبيل
تمسك ان ظفرت بودّ حُرٍّ فإن الحُرَّ في الدنيا قليل

أما علاقته مع الشعراء المعاصرين له فقد كانت علاقة طيبة ، يسودها التقدير والاحترام والود المتبادل . فهو — رحمه الله — كان يحبهم ويلاطفهم ويقارضهم الشعر ، ويفسح لهم في مجلسه ، فيستمع لأشعارهم ويثني عليهم ويثيبهم . ولعل خير دليل نقدمه على حسن سلوك العلاقة هو كثرة ما أورد « السلفي » في « معجم السفر » من أبيات ومقطوعات شعرية أنشدها أمامه أصحابها أو رواتها ، وكثرة الشعراء الذين ترجم لحياتهم في نفس الكتاب ، حتى ليظن القارىء لهذا « المعجم » أنه لم يبق شاعر من أهل الإسكندرية ، أو شاعر مر بها من المغاربة أو الأندلسيين أو الشاميين إلا وقد حضر عنده وقال أمامه شعراً من إنشائه أو من حفظه ومسموعاته . وقد أشار الحافظ « السلفي » نفسه إلى علاقته الطيبة بالشعراء مراراً ، وذلك بتكرار مثل هذه العبارات :

---

١ — نفس المصدر : ١ / ٤٥٣ .
٢ — « معجم السفر » : الورقة ١٧٧ ب ، ٢٠٠ أ .

« وقد كاتبته نظماً وكاتبني »[1] ، « وكانت بيني وبينه مشاعرة »[2] ، « وكتب من شعري جملة وكتبت أنا من شعره مقطعات »[3] ، « وقد كاتبني نظماً وجاوبته »[4] .

وقد حفظت لنا بعض الكتب حكايات ونكات ظريفة ، حدثت له مع بعض الشعراء ، نروي منها هذه الحكاية ، لما كان لها من أثر في تحريك عواطفه ، وإثارة مكامن الشوق والحنين لأهله وبلده أصبهان .. يقول[5] أبو محمد عبد الله بن محمد التجيبي الأندلسي المعروف بابن المليح : إن أبا الحجاج ابن الشيخ أنشد أبا طاهر « السلفي » هذه الأبيات :

أيا من حلّ نور عينـــي ... ويا مَنْ حاز كلّ علاً وزيْنِ
أنا مُذْ صرْتُ عبدك زدت فخراً ... وزال بملككم نقصي وشَيْني
أتيتكم لأقــرأ أو لأروي ... فعدت لمنزلي صِفر اليَـدَين
قريح القلب لم أظفرْ بشيء ... كأني لم أكنْ أهلاً لـــذين
يروح الناسُ عنك بكل خيْر ... وأرجعُ لابساً خُفَّيْ حُنَيْنِ
وما ذنبي سوى أني غريب ... وقومي حيل بينهُمُ وبَيْني

يقول أبو محمد ابن المليح : قال لي أبو الحجاج : «لما وقف الشيخ أبو طاهر على هذه الأبيات وبلغ قولي :

وما ذنبي سوى أني غريـــــب ... وقومي حيل بينهم وبيني

تواجد وبكى ، وصاح بأعلى صوته : « وقومي حيل بينهم وبيني » حنيناً إلى وطنه أصبهان ، وشوقاً إلى ما خلف من القرابة والاخوان ،

---

١ — ٤ — انظر « معجم السفر » : الوُرقات ٦٩ ب ، ٧٠ ب ، ١٣٥ أ ، ١٥٣ ب . وللاستزادة أنظر أيضاً : ١٤ أ ، ٤٩ ب ، ١٣٤ ب ، ١٥٨ ب ، ١٩٥ أ ، ٢٢٦ ب ، ٢٣٠ أ ، وغيرها .

٥ — انظر هذه الحكاية في « برنامج شيوخ الرعيني » : ١٤٥ .

وغشي عليه ، فجعل طلبته يلومونني ويقولون لي : ما هذا الذي جنيت علينا اليوم ؟ وأدخل الشيخ — رضي الله عنه — داره فلم يخرج إلا بعد أربعة أيام » .

ولقد أفادت علاقة الحافظ « السلفي » بالشعر الأدب العربي وتاريخ الحركة الأدبية والفكرية فائدة كثيرة لم تكن مقصودة لذاتها ، فهو قد ترجم لحياة كثير من الشعراء المجيدين الذين لا يكاد يعرفهم كثير من مؤرخي الأدب العربي ودارسيه ، بل لا يكاد يعرفهم أحد إلا من خلال ما كتبه هو عنهم . نذكر منهم على سبيل المثال الشاعر ظافر الحداد (ت ٥٢٤ هـ)[١] أحد مفلقي شعراء ديار مصر ، والذي شهد له فقيه الإسكندرية أبو طاهر ابن عوف بقوله : « ما عرفنا له خرمة كمثل الشعراء » . والشاعر أبا الحسن أحمد بن علي بن إبراهيم الغساني الأسواني (ت ٥٦٣ هـ)[٢] صاحب ديوان الاسكندرية « الذي كان يعد من أفراد الدهر فضلا في فنون كثيرة من العلوم ، والذي كان له تواليف ونظم التحق بها بالأوائل المجيدين الأفاضل » . والشاعرة تقية بنت غيث الأرمنازي الصورية (ت ٧٥٩)[٣] التي مدحت « السلفي » بقصائد كثيرة ، « وكانت شاعرة مجيدة ، لها نظم جيد ومقطوعات حسان » . والشاعر عبد العزيز بن إسماعيل بن توهيب (ت ٥٢٣ هـ)[٤] الأديب الموهوب الذي علق عنه أبو طاهر « السِّلفي » كثيراً من شعر متأخري شعراء مصر . والشاعر المفلق عبد الوهاب بن اسماعيل بن توهيب (ت ٥٤٧ هـ)[٥] أخا عبد العزيز ، الذي مدح «السلفي»

---

١ — انظر ترجمته في « معجم السفر » : الورقة ٥٠ ب .
٢ — نفسه : ١٢ أ .
٣ — نفسه : ٩ ب .
٤ — نفسه : ١١٤ ب .
٥ — نفسه : ١١٥ أ .

بأكثر من خمسين قصيدة ، ولم يكن في شعراء الإسكندرية أكبر منه سناً . والشاعر علي بن عيّاد بن صدقة الأسدي (ت ٥٢٦ هـ) [١] الذي كان من فحول شعراء مصر رغم صغر سنه . وهناك غير هؤلاء كثيرون [٢] .

أما الشعراء الذين عرفوا « السلفي » وعاشوا معه ، فقد مدحوه بمقطوعات وقصائد تربوا على المئات ، ذلك لأنهم وجدوا فيه المثال الصادق للعالم المتمكن المتواضع ، والرجل الصالح التقي الذي زهد في الدنيا ومفاتنها ، ولم يُعر مغرياتها أدنى اعتبار ، كما وجدوا فيه الأب العطوف الودود لكل من عرفه ، والمعين الجواد لكل محتاج ، والمغيث لكل ملهوف ، والمضياف لكل غريب . خصه تلميذه الشاعر ابن قلاقس الاسكندراني بأكثر مدائحه ، نختار منها هذه القصيدة التي مطلعها [٣] :

قَرَنْت بواو الصّدْغِ صاد المُقبلِ — وأغْرَيت بي لام العذار المسلسلِ

وفيها يقول :

وهل أنا الا نبعة يمنيّـــــة — منضّرة الأفنان في رأس يذبل
سقى أصلها النعمان ماء مفاخر — فأثمر منها كلّ فَرْعٍ بأفضل
ومن كان صدر الدين (أحمد) شيخه — أطال بها باعَيْ يمين ومقــول
امام لقيْتُ الدهرَ أدهم دونه — فألبَسَهُ وصف الأغرّ المحجل
أقام به الله الشريعة فاعتلت — دعائمها فوق السّماك وتعتلي
يفسّر من ألفاظها كل مُبْهَمٍ — ويفتح من أغراضها كل مقفل

---

١ – نفسه : ١٥١ أ .

٢ – انظر نفس المصدر : ١٦ ب ، ٢٧ أ ، ٣٠ ب ، ٤٥ أ ، ٥٢ أ ، ٩٣ أ ، ٩٨ أ ، ١٠٥ أ ، ١١٠ أ ، ١٢١ أ ، ١٢٢ أ ، ١٣٠ ب ، ١٣٣ أ ، ١٦٠ أ ، ١٦٥ أ ، ١٨٤ ب ، ٢٣٧ ب ، ٢٤٠ ب ؛ وغيرها .

٣ – ديوان ابن قلاقس : القصيدة ٨٥ .

وما كان لولا (أحمد) دين أحمد ... ليُدْري صحيح سالم من معلل
ولا عَرفَتْ حفّاظه بين مسند ... بعنعنة رفعاً ولا بين مرسل
لسرّ العطايا في أسارير وجهه ... مخايل برق العارض المتهلل
فلله ألفاظٌ جلاها يراعُه ... لعقد على جيد الزمان مفصّل
لآلىء لو كانت نجوماً لغادرت ... لياليَها والصبح ما لاح ينجلي

وامتدحه الشاعر ابن سناء الملك بقصيدة طويلة مطلعها [1] :

حمدتُ السُّرى وهي الحقيقة بالذم ... لفُرْقَةِ أرضٍ غاب عن أُفقها نجمي

وفيها يقول :

نسيت سوى دارٍ بكيتُ برسمها ... وذلك رسمي إن وقفت على رسمي
وديعة مسك في ثراها وجدتها ... فصيَّرْتُ لثمي للوديعة كالختم
على سنة العشاق أو بدعة الهوى ... حلمت بجهلي أو جهلت به حلمي
ولكنني أنشرْتُ فهمي من البلى ... كما أنني أيقظتُ حلمي من الحُلْم
وأقبل نُسْكي حين ولّتْ شبيبتي ... وآخى اعتزامي حين عاينه حزمي
فجئت الى الإسكندرية قاصداً ... الى كعبةِ الإسلام أو علَمِ العِلم
الى خير دين عنده خيرُ مرشدٍ ... وخيرِ امامٍ عنده خيرُ مُؤْتَمِّ
الى (أحمد) المحيي شريعة أحمدٍ ... فلا عدمت منه أبا أمّةُ الأمي
حمى بدعاء أو همى بفوائد ... فبورك مما زال يحمي كما يهمي
تقوّس تقويس الهلال تهجداً ... وذاك هلال يفضحُ البدر في التمِّ
اذا ما شياطين الضلال تمردت ... جدالا فمن أقواله كوكب الرَّجْم
تكاد لديه العربُ والفخر فخرها ... تُقر له أن المفاخر في العُجْمِ
أبو الدهر عمراً واعتزاماً ومنصباً ... فلا ذاق منه دهره فَجْعَةَ اليتْمِ

---

١ – «ديوان ابن سناء الملك» : القصيدة ٦٧٩ .

ويطول المقام بنا لو حاولنا أن نذكر مديح الشعراء فيه ، ولهذا سنكتفي بهاتين القصيدتين ، ومن أراد الاطلاع على المزيد فليرجع إلى اشعار تلاميذه التي سجلها لهم مؤلفو كتب التراجم والطبقات أثناء ترجمات حياتهم أو في دواوينهم التي جمعوها لأنفسهم .

وحري بنا أن نسجل هنا – بكل تقدير وتبجيل لشخصية الحافظ « السِّلفي » وما تحلت به من مروءة وتواضع – أنه – رحمه الله – لم يثبت في كتبه التي ألفها أي قصيدة أو مقطوعة من تلك القصائد والمقطوعات التي مدحه الشعراء بها ، وإنما كان يكتفي أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذي يمتدحه بقوله : « وله إلي غير قصيدة » (١) ، « ومدحني بعدة قصائد » (٢) ، « وله فيّ مقطوعات » (٣) ، « وله فيّ قصائد بديعة » (٤) ، « وله فيّ أكثر من خمسين قصيدة ومن المقطعات شيء كثير » (٥) ، « وله فيّ شعر كثير »(٦) ، «وله إليّ قصائد ومقطعات كثيرة»(٧) ، «وله فيّ غير قصيدة»(٨) ، « وله فيّ أكثر من مائة قصيدة » (٩) .

أما شعر الحافظ « السِّلفي » الذي استطعت العثور عليه – سواء المنظوم منه قبل مجيئه الإسكندرية أو بعد استقراره فيها – فجميعه يتكون من مقطوعات قصار ، تتراوح أبيات المقطوعة بين البيتين والثمانية ، ولا يكاد يشذ عن ذلك إلا قصيدتان : ذكر الأولى الحافظ الذهبي في كتابه « سير أعلام النبلاء » (١٠) وعدد أبياتها سبعة وستون بيتاً ، عدد فيها الثقـــاة المشهورين من رجال الحديث مع ذكر بعض صفاتهم الحميدة وحث على تقبل رواياتهم والاعتماد عليها ، ويبدو أن القصد من نظم هذه القصيدة

---

١ – ٩ – انظر ٣٠ ب ، ٤٣ ب ، ٤٥ أ ، ٥٢ أ ، ١١٥ أ ، ١٣٤ ب ، ١٨٢ ب ، ٢٣٧ ب ، ٢٤٠ ب .

١٠ – المجلد ١٣ ، الورقة ٧ – ٩ .

كان تسهيل الحفظ على طلاب الحديث كما فعل كثير من علماء النحو العربي حين نظموا « ألفياتهم » . وأما القصيدة الثانية وعدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتاً ، فقد مدح فيها الإمام الشافعي ، ورد على بعض الفرق الدينية « كالمشبهة » ، و « المعطلة » ، وهي توجد ضمن مجموعة أشعار أخرى في مكتبة برلين [1].

أما من حيث الأغراض الشعرية فيغلب على شعره الطابع التعليمي والتهذيبي ، فهو يدور حول الحديث وروايته ومكانته بين العلوم الأخرى ، وحول صفات رجاله ودرجة توثيقهم ، والدعوة إلى الاقتداء بهم . ويتناول كثيراً من الحكم والنصائح التعليمية للطلاب والدارسين .

وهو في مجموعه شعر يكاد يخلو معظمه من الصور الفنية والجمالية والتناسق الصوتي بين تتابع الكلمات ، وإنما يغلب عليه طابع النظم الذي قل أن تجد فيه تعبيرات بلاغية كتلك التي يتحلى به عادة الشعر العربي الجيـــد .

ولكي نقدم صورة صادقة لما نقول نعرض الأبيات التالية كنماذج من شعره :

يقول في مدح أهل الحديث وطلابه [2] :

ان علم الحديث علمْ رجــالٍ تركوا الابتداع للاتبــــاع
فإذا جَنّ ليلهم كتبـــــوه واذا أصبحوا غــدوْا للسماع

---

١ — مجموعة رقم 1 / 7697 وأيضاً مجموعة رقم : 739 / 8471 .

٢ — انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٩ أ ، « تهذيب تاريخ ابن عساكر » / ٤٥٠ ، « المعجم » لابن الأبار : ٥١ ، « تاريخ إربل » (مخطوط) : ٤١٣ ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٣ .

وقال معتزاً وفخوراً بانتساب لأهل الحديث (١) :

أنا من أهل الحديث وهمو خير فئه
جزت تسعين وأرجو أن أجوزن المئه

وقال يمدح رجال الحديث (٢) :

أهل الحديث هم الرجال البزّل ومن المعالي في الأعالي نزل
هل يستوي السمك الذي تحت الثرى أبداً مقيم والسماك الأعزل

وقال يوضح لطلابه أن علو الحديث وحده لا يكفي ، وإنما أعلى مراتب الحديث هو ما ضبط سنده وعلا إسناده (٣) :

ليس حسن الحديث قرب رجال عند أرباب علمه النقاد
بل علو الحديث عند أولي الإتقان والحفظ جودة الإسناد
فإذا ما تجمعا في حديث فاغتنمه فذاك أقصى المراد

وقال معتزاً بما أكرمه الله به من معرفة بعلم الحديث (٤) :

اذا ذكرت بحار العلم يوماً فقول المصطفى لا غير بحري
هو البحر المحيط وما عداه فأنهار صغار منه تجري

وقال يرد على من أراد أن يختبر حفظه عندما تقدمت به سنه (٥) :

أنا ان بان شبابي ومضى فلربي الحمد ذهني حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمي كبراً غصن علومي ناضر

١ — انظر « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤/ ٤٦ .
٢ — « الف باء » : ١ / ٢٣ .
٣ — « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٩ أ ، « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤/ ٤٦ . وقد أورد نساخ « الطبقات » البيت الثاني غير مستقيم في وزن عروضه .
٤ — انظر « برنامج شيوخ الرعيني » : ١٦٥ .
٥ — « النجوم الزاهرة » ٦ / ٨٧ .

وقال مفتخراً بمكانته وعلو منزلته في ميدان تخصصه [1] :

ليس على الأرض في زماني ... من شأنه في الحديث شاني
علماً ونقْداً ولا عُلُواً ... فيه على رغم كل شاني

وقال في علو مكانة الحديث بالنسبة للعلوم الأخرى وفي الحث على تعلمه وتسفيه رأي من ذمّه [2] :

يا قاصداً علم الحديث يذمُّه ... إذ ضلّ عن طرق الهداية وهْمُهُ
إن العلوم كما علمت كثيرةٌ ... وأجلُّها فقه الحديث وعلمُهُ
من كان طالبه وفيه تيقُّظٌ ... فأتَمُّ سهم في المعالي سهْمُهُ
لولا الحديث وأهله لم يَسْتَقِمْ ... دين النبي وشذّ عنا حكْمُهُ
وإذا استراب بقولنا مُتَحَذْلِقٌ ... ما كان فَهْمٌ في البسيطة فهْمُهُ

وقال ساخراً بمن اغترّ بنفسه وأمن غدر الزمان وتقلباته [3] :

أتأمن إلمامَ المنيّة بغتةً ... وأمنُ الفتى جهلٌ وقد خَبَرَ الدّهرا
وليس يُحابي الدهرُ في دورانه ... أراذلَ أهليه ولا السادة الزهرا
وكيف وقد مات النبي وصحبه ... وأزواجه طُراً وفاطمةُ الزّهْرَا

وقال يعجب من تقلبات الزمان وكيف يتقدم فيه الأشرار أحياناً ويتخلف الأخيار [4] :

قد نالَ صفوةَ دهرنا شرِّيرُه ... حتى تزايد تيهُهُ وغروره

1 – « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٣ ، « أزهار الرياض » : ٣ / ١٧٠ ، « المعجم » لابن الأبار : ٥٢ .
2 – « تهذيب تاريخ ابن عساكر » : ١ / ٤٥٠ ، « الف باء » : ٢ / ٣٠٧ .
3 – « تهذيب تاريخ ابن عساكر » : ١ / ٤٥٠ ، « البداية والنهاية » : ١٢ / ٣٠٧ .
4 – « تهذيب تاريخ ابن عساكر » : ١ / ٤٥٠ .

واختصَّ خَيِّرُهُ بفقرٍ مُدْقعٍ حتى استُذِلَّ وزال عنه سروره

وقال يصف أقواماً لا يدل مظهرهم على حقيقة نفوسهم الشريرة [1] :

أرى بين الورى قوماً عليهم ثيابٌ قد تروق وهم ذِئابُ

فلا تعبأ بهم في اللهِ واحسِب مدى ما عشت أنهم ذُبابُ

وقـال : [2] :

ما إن تنال الجنان بالكد والكدح ، ولا الاجتهاد في العمل

فالرب سبحانه بحكمته قدَّر ما قد يكون في الأزل

وقال يشكو مما فعل الزمان به وما سبب له من متاعب أثناء رحلته في طلب الحديث [3] :

لجَّ الزمانُ مبالغاً في شاني فأزاحني عن موطني ومكاني

وغدا يعاندُني معاندة العِدا متعمداً ، حتى لقد أعياني

وقال في شكوى الزمان والحنين إلى وطنه حيث أصحابه ورفاق صباه [4] :

يا دهر كم لهذا الشتات تعنتاً وإلى متى التعذيب بالهُجران

سُقياً لأيام مضت لي وانقضتْ في خدمة الأصحاب والخلاَّن

أهل الفصاحة والبراعة معشرٌ فاقوا الشيوخ وهم من الفتيان

( ) [5] في الحديث وعلمه والفقه والتفسير والقرآن

ومناشدات بعدُ فيما بَيْنَنَا أزكى من الأزهار والريحان

يا ليتَها دامت ولم أفجع بها فعلى الحقيقة كنت في بستان

---

١ – « تاريخ إربل » (مخطوط) : ٤١٤ .

٢ – « معجم السفر » : ٢٣٤ أ .

٣ – « برنامج شيوخ الرعيني » : ١٦٥ .

٤ – انظر مخطوط برلين مجموع رقم : 1 / 7697

٥ – كلمة لم أتمكن من قراءتها لعدم وضوحها .

وكتب إلى صديقه ورفيقه في دراسة الفقه في بغداد أبي الحسن علي بن محمد ابن سهل الغزنوي رداً على قصيدة أرسلها إليه ، يقول [1] :

وخُصَّ بها الزين عند لقائه ... بألف سلام لا تكن عنه غافلا
وسائلْه عني ـ طال في النصر عمره ـ ... وإن لم يكن عني وحالي سائلا
وذكره ما قد كان بيني وبينه ... ببغداد في وقت التفقه كاملا
وبلغه عني قول من هو ناصح ... على جملة الأحوال إن كان قابلا
كأنك بالدنيا تولّت وبالذي ... ينافس فيها قد غدا الكل زائلا
فلا رمتما في المجدِ والعزِّ والعلا ... كما ترتجيه عاجلا ثم آجلا

أما الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وأصحابه فقد مدحهم في قصيدة طويلة نجتزىء منها هذه الأبيات [2] :

فعليك يا من رام دين محمد ... بالشافعي وما أتاه وقالا
أعني محمد بن إدريس الذي ... فاق البرية رتبة وكمالا
وعلا على النظراء طرّاً واغتدى ... شمسَ الهدى والغيرُ كان هلالا
وابحث كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جلالا
وتجملن بهم وكن من حزبهم ... فهُمُ الجمّال لئن أردْتَ جمالا

وهذه القصيدة هي القصيدة الثانية مما وجدت من شعر «السِّلفي» من حيث عدد الأبيات ، ردّ فيها على أصحاب التجسيم ، والمعطلة ، وتناول فيها مشاهير المذهب الشافعي واحداً واحداً إلى أن وصل إلى قوله :

واعلم بأن أعزهم وأجلهم ... شيخُ الأنام سجيّة وفعالا
من لم يخف في الله لومة لائم ... وبما رآه من الأذى ما بالا

---

١ — « معجم السفر » : ١٣٨ ب .
٢ — مخطوط برلين مجموع رقم : 1 / 7697

ذاك ابن حنبل الإمام المقتدى ... من فاق بين العالمين خصالا

وقال أيضاً معتزاً باقتدائه بالإمام الشافعي وبإفتائه على مذهبه [١] :

إمامي الشافعي وحين أُفتي ... بمذهبه المهذب طاب عيشي
إني لا أبالي بانفرادي ... لقوة حجتي في ألف جيش
وقد قال النبيُّ وصح عنه ... « ألا إنّ الأئمة في قريش »

ومن أشعاره الرقيقة قوله في الوصال [٢] :

قد قلت إن رفع الصباح ... ذيولَ ليل الوصل عنا
يا ليت هذا الدهر دام ... الدهرَ للصبّ المعنى
فالليل أستر للمتيم ... والظلامُ عليه أحنى

وقوله [٣] :

عفتم من الحُبِّ بداياته ... وعبتُمُ أقصى نهاياته
ولمتموني فيه واللوم لا ... يصلحُ في أهل ولاياته
فبالغوا في لومكم وابلغوا ... أقصى تناهيه وغاياته
فوالذي أرجوه في محشري ... وحرمة الذكر وآياته

وله أيضاً [٤] :

إذا بدا فرط تجافيه ... وعذل عُذّالي معاً فيه
دعوا ملامي وانظروا ظرفه ... في طرفهِ والدر في فيه
ولاحظوا الحسن بألبابكم ... كي تعذبوا قلب مُصافيه

---

١ — « الف باء » : ٢ / ٢٩٤ .
٢ — « تاريخ ابن عساكر » : ١ / ٤٥٠ .
٣ — « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٣ .
٤ — نفس المصدر والصفحة .

ثم اعذلوني بعدُ إن كان ما أصابني العقــل ينـــافيه

وله أيضاً [1] :

لم تذق عيني مذ أبصرتــه من شقائي طول ليلي وسنـــا
ولها في ذاك عذر واضح فهو كالبدر سَناءً وسنـــا

وقال في صفة الصديق الذي يريده صديقاً له [2] :

غرضي من الدنيا صديق لي صدوق في المِقَـــه
يرعى الجميـــل وعينُـــه عن كل عيبٍ مُطْرِقــه
وإذا تغيّـر من تغيّـــــر كنتُ منه على ثقَـــه

وله أيضاً : [3]

كم جُبْتُ طولاً وعرْضاً وجُبْتُ أرضاً فأرضـــاً
ومـــا ظفرت بخـــلٍّ من غير غلٍّ فأرضـــى

ومن أقواله الحكيمة في المزاح [4] :

المزْح حقاً رأسُ كلٍّ قطيعة والمزح منقصةٌ تشين فظيعه
فاتركْهُ فهو يشين من يعتاده واهجرْه فهو إلى الفراق ذريعه

وقال في تعليل إجابة دعوة الكريم ورفض إجابة البخيل :

لا تجب دعوة البخيل لأكـــل فطعام البخيل في الجـــوف داء
واذا ما دعاك شخصٌ سخيّ فأجبْه وكلــه فهو شفـــاء

١ — نفس المصدر والصفحة .
٢ — « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٤٦ .
٣ — «الوافي بالوفيات» : ٧ / ٣٥٣ .
٤ — « الف باء» : ١ / ٤٠ .

وقال في وصف بناء مدينة تدمر وكان قد مر بها :[1]

كم قد رأيت من البلاد فلم أجدْ فيها كتدمر بنْيَةً وأساسا
بلد من الحجر المنقّش كلّه فإذا تُؤمِّل فيه هال الناسا
والمدْن في الإحكام أعضاء وقد أضحى الحقيقة للجميع الراسا

أما رجال الحديث الكبار الذين تركوا لهم تآليف في ميدان الحديث وعلومه فقد كان لهم ولكتبهم حظ وافر من المديح والتقريظ . ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف كتب الخطيب البغدادي[2] :

تصانيف ابن ثابت الخطيب ألذ من الصّبا الغضّ الرطيب
تراها اذ حواها من رواها رياضاً تَرْكها رأسُ الذنوب
ويأخذ حُسْن ما قد صاغ منها بقلب الحافظ الفَطِنِ الأريب
فأيّةُ راحةٍ ونعيم عيشٍ يوازي كتبه أم أي طيب

وقال : نظمت في مدح كتاب « السنن » لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني مقطعات من الشعر من جملتها[3] :

أولى كتاب لذي فقهٍ وذي نظر ومن يكون من الأوزار في وزر
ما قد تولّى (أبو داود) محتسباً تأليفه . فأتى كالضوء في القمَرِ
لا يستطيع عليه الطّعْن مبتدعُ ولو تقطّع من ضِغْنٍ ومن ضجَرِ
فليس يوجد في الدنيا أصح ، ولا أقوى من السنة الغرّاء والأثَرِ
وكل ما فيه من قول النبي ومن قول الصحابة أهل العلم والبَصَرِ
يرويه عن ثقة عن مثله ثقة عن مثله ثقة ، كالأنجم الزهرِ

---

١ – « معجم السفر » : ٢٢٦ ب .
٢ – « معجم الأدباء » : ١ / ٢٥٥ ، « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤/ ٣٣ .
٣ – مختصر « سنن أبي داود » ، مقدمة « معالم السنن » (للسلفي) ، تحقيق محمد حامد الفقي : ٨ / ١٥٧ .

وكان في نفسه قيماً أحق ، ولا أشك فيه ، اماماً عالي الخطر

يدري الصحيح من الآثار يحفظه ومن روى ذاك من أنثى ومن ذكر

محققاً صادقاً فيما يجيء بـه قد شاع في البدو عنه ذا وفي الحضر

والصدق للمرء في الداريْن منقبةٌ ما فوقها أبداً فخر لمفتخـــر

وقال ناظماً عبارة إبراهيم الحربي : « لما صنف أبو داود هذا الكتاب ، يعني كتاب « السنن » ألين لأبي داود الحديد كما ألين لداود النبي — صلى الله عليه وسلم — الحديد »[1] :

لان الحديث ، وعلمه بكماله لإمام أهلـــه ، أبي داودا

مثل الذي لان الحديد وسبكـه لنبي أهـل زمانــه : داودا

وقال في مؤلفات أبي سليمان الخطابي البستي يوم كان في ثغر « خيرة » لشغفه بها ورغبته في تحصيل مصنفاته سنة ٥٠٠ هـ[2] :

ظن هذا الخطّاء في الخطـابي شيخ أهل العـلوم والآداب

مَنْ على كتبه اعتماد ذوي الفضل ومَن قوله : كفصل الخطاب

أن يجوز الفردوس اذ أتعب النفـس لهـا العرش غاية الإتعاب

وتعنى في الأخذ حدا وفي التصـنيف من بعد رغبة في الثـــواب

نضّر اللهُ وجهه من امـام أَلْمعيٍّ أتى بكل صـــواب

ولعمري قد فاز بالرّوْح والريحان من غير شبهة وارتيـــاب

فلقد كان شمس متبعي الشر ع على الزائغين سوط عذاب

وقال أيضاً في مدح الخطابي عندما أملى « مقدمته لمعالم السنن » في الإسكندرية

---

١ — نفس المصدر والصفحة .

٢ — مقدمة « معالم السنن » للسلفي . انظر مختصر « سنن أبي داود » : ٨ / ١٦٢ .

سنة ٥٦٢ هـ[1] :

ما[2] اطلعت فيما اطلعت عليه من كلام على حديث النـبي
كالذي عن أبي سليمان قـد با ن الإمـام العلامـة الألمعـي
في كتـابيه حين أملاهما« الأعـلام » في شرح كل معنى خـفي[3]
عدة الموقوف بين يـدي خـا لقه البـاري العليـم العلـي
وكتاب « المعالم » المرتضى ، اذ هـو يرضـاه كل ندب رضي
فاق في شرحـه كتاب أبي دا ود أصحابه صدور النـدي
رضي الله جل عنه وجـازا ه عن الدين والمقـال التقي
الذي ينفع الفقيه مـدى الدهـر وكل امرىء زكي تقـي

هذه بعض نماذج متفرقة من شعر الحافظ « السِّلفي » في موضوعات متفرقة ، أوردتها كأمثلة حتى يستطيع القارىء أن يتبين من خلالها طابعه الفني العام للأغراض التي قيل فيها ، وأحسبها أمثلة كافية لاثبات ما أردت التدليل عليه .

* * *

---

١ – نفس المصدر والصفحة .

٢ – في مختصر « سنن أبي داود » : « لم أطلع » وهذا جعل الوزن غير مستقيم .

٣ – في مختصر «سنن أبي داود » البيت الآتي :

في الصحيح الذي البخاري قـد صنف قدامنا على أتم روي

الناشر

الفصل السابع

كتبه وأعماله الأدبية

١ – مؤلفاته .

٢ – انتخاباته وتعاليقه .

٣ – كتب رواها عن أصحابها واشتهرت بانها له .

لقد ذكر الحافظ الذهبي في كتابيه « تذكرة الحفاظ » ، و « سير أعلام النبلاء » أن للحافظ « السِّلفي » – رحمه الله – « تصانيف كثيرة »[1] . ووصفه ابن خلكان بقوله : « وكان قد كتب الكثير ونقلت من خطه فوائد جمة .. وأماليه وتعاليقه كثيرة » [2] .

هاتان العبارتان تدلان على أن الحافظ « السِّلفي » كان قد ألف كتباً كثيرة ، وأملى على طلابه كثيراً من الأمالي الحديثية ، وأن له تعاليق وانتخابات من كتب أخرى . وقد كان لهاتين العبارتين أثر كبير عندي ، إذ كانتا بمثابة حافز قوي يحثني دائماً على البحث والتنقيب عن تلك المصنفات والتعاليق ، أملا في العثور على بعضها ، ورغبة في إثباته والاستفادة منه .

وبعد استعراض شامل لفهارس المكتبات العالمية بغرض حصر أعمال « السِّلفي » كلها كخطوة أولية ، تبين لي أن جميع ما عثرت عليه لا زال مخطوطات لم تسعد بنور المطبعة بعد ، وأن ما هو معروف منهـا – حتى كتابة هذه السطور – لا يتناسب مع ما ذكره الحافظ الذهبي وابن خلكان وغيرهما من حيث الكم والعدد . وهذا يعني أن الكثير من أعماله قد ضاع ، أو لا يزال مختبئاً في إحدى زوايا المكتبات الخاصة في العالم العربي بالذات ، والتي قد تتاح فرصة لمعرفتها في المستقبل عندما تفهرس تلك

---

١ – « تذكرة الحفاظ » : ٤/١٣٠٠ ، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب وانظر أيضاً « حسن المحاضرة » : ١ / ١٦٥ .

٢ – « وفيات الأعيان » : ١ / ٨٨ .

المكتبات أو تضاف إلى المكتبات العامة التي ترعاها الحكومات أو المؤسسات العامة التابعة لها .

إن كل ما استطعت العثور عليه من مخطوطات كتب « السِّلفي » وأعماله حتى الآن يبلغ العشرين عملا ، بعضها موجود في مكتبات عدة ، وبعضها نسخة لا ثاني لها ، وغير هذا لا يزال مفقوداً لم نعثر عليه . وفيما يلي قائمة بأسمائها كلها – الموجود منها والمفقود – ووصف مختصر لكل واحد منهـــا :

أولا : مؤلفاتـــــه :

١ – « أخبار أبي العلاء المعري » :

مفقـــود

وهو عبارة عن ترجمة لحياة أبي العلاء المعري ، وذكر لبعض أشعاره . ذكره ابن الوردي في كتابه « مختصر تتمة أخبار البشر » ، ونقل عنه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » والصفدي في « نكت الهميان » ، وجامعو كتاب « آثار ذكرى أبي العلاء » [١]

٢ – الأمالي الحديثية :

لقد أملى الحافظ السِّلفي على طلابه كثيراً من الأمالي الحديثية ، معظمها لا يزال مفقوداً والنزر اليسير هو الذي عثرنا عليه ، وهذا بيان بما عثرنا عليه أو أرشدنا إليه .

أ – الجزء الأول :

توجد نسخة منه في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقـــم **٩٣٩٩**

١ – انظر الصفحات الاتية : ٣٣ ، ٥٥ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢١٢ .

(مجموع عام) . ويحتوي على ١٢ لوحة ، بخط عبد الغني المقدسي . ينقص منها اللوحة الأولى على الأرجح .

ب — أمالي حديثية :

مفقودة

وهي عبارة عن سبعة مجالس أملاها « السِّلفي » على علي بن فَيْد الأندلسي . ذكرها ابن خير في فهرسته [1]، وقال عنها : « فيها أحاديث وحكايات ومحاسن » .

ج — أمالي حديثية أخرى :

مفقودة

وهي جزء حديثي يضم خمسة مجالس . انتقاها عمر بن إسماعيل بن عمر بن إسماعيل ذكرها ابن خير في فهرسته [2] .

د — أمالي حديثية أخرى :

توجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم (مجموع) ٦٢ ، من اللوحة ١٢ — ٢٠ . وهي نسخة مخرومة من الأول ، وفي آخرها سماع لعبد الله بن محمد بن خلف سنة ٥٧٤ هـ .

هـ — حديث « العيدية » المسلسلة :

توجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم (مجموع) : ٨٥ من اللوحة ١٣٣ — ١٤٠ .

وهو عبارة عن حديث يتعلق بالتخيير لسماع خطبة العيد .

---

١ — الصفحة ١٧٨ .

٢ — الصفحة ١٧٩ .

٣ – « تراجم الأبهريين » :

توجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم (مجموع) ٧٣ ، من اللوحة ١٣٢ – ١٣٧ . والورقة الأولى مستجدة . كتبت هذه النسخة بخط نسخ جيد . وهذه التراجم عبارة عن تراجم لبعض مشايخ « السِّلفي » الذين التقى بهم في مدينة « أبهر » ، وذكر بعض الحكايات والأخبار التي نقلها عن أولئك المشايخ . ومكتوب على الغلاف هـذه العبارة : « كتب لصاحبه عبيد الله بن موسى بن محمد بن موسى بن إسماعيل الأنصاري نحو سنة ٦٦٠ هـ » . وعلى الغلاف أيضاً سماعات عن الأصل .

٤ – « ترجمة حياة أبي المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي » :

مفقود

ذكره السخاوي [١] في « باب التراجم التي أفردت للأشخاص » ، وقال : أفردها «السِّلفي » الحافظ . وقال السبكي : « وترجمه الحافظ « السلفي » في جزء منفرد وعظّمه كثيراً » [٢] .

٥ – « ترجمة حياة أبي نُعَيْم الأصبهاني :

مفقود

ذكره الحافظ الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » [٣] ، نقلاً عن ابن المفضّل (تلميذ السلفي) ، وقال : « قد جمع شيخنا « السِّلفي» أخبار أبي نعيم ، وذكر مَن حدّثه عنه وهم نحو ثمانين رجلاً » . وذكره السخاوي أيضاً في « باب التراجم التي أفردت للأشخاص » [٤] ، وقال :

---

١ – « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » : ٣٧٨ .

٢ – « طبقات الشافعية » (تحقيق الحلو والطناحي) : ٦ / ٨٣ .

٣ – ٣ / ١٠٩٣ .

٤ – « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » : ٣٧٠ .

« ... وأبو نعيْم الأصبهاني جمعها « السِّلفي » ، وفيها مَن حدَّثه من شيوخه عنه ، وهم نحو ثمانين رجلاً » .

٦ — « سؤالات خميس الحَوْزي عن جماعة من أهل واسط » :

توجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (٣٤٩ حديث) وتحتوي على ٢٦ لوحة ، كتبت بخط نسخ جيد .

وهذا المخطوط عبارة عن استفسارات واستيضاحات وجهها الحافظ « السِّلفي » إلى شيخه الحافظ خميس بن علي الحَوزي عن جماعة من أهل واسط ، وعن الغرباء الذين قدموا إليها في طلب العلم .

وهذا المخطوط رواية جعفر بن علي بن بركات بن جعفر الهمداني عن شيخه الحافظ « السِّلفي » : أوله : بسم الله الرحمن الرحيم . أخبرنا الشيخ الإمام أبو الفضل جعفر بن علي بن بركات الهمداني قراءة عليه وأنا أسمع في ثالث عشري رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ... الخ

وآخره : آخر الجزء والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين . كتبه أحمد بن رضوان بن إسماعيل المقدسي ، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، نقل من خط شيخنا الهمداني بسماعه عن « السِّلفي » . وهناك سماعات أخرى كثيرة بعد ذلك .

٧ — « شرط القراءة على الشيوخ » :

مفقـــود .

ذكره الحافظ الذهبي في « سير أعلام النبلاء » [١] ، وحاجي خليفة في

١ — المجلد ١٣ ، الورقة ٦ أ .

«كشف الظنون»[1] ونقل عنهما عمر كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»[2].

٨ – « الفهرسة » :

مفقود

ذكره أبو بكر بن خير في «فهرسته»[3]، وقال: «وفهرسة الشيخ الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني. روايتي لها من غير واحد من أصحابه عنه. وعنه أيضاً إجازة كتب بها إلي من الإسكندرية بخط يده لي ولجماعة من أصحابنا رضي الله عنهم».

وهو عبارة عن فهرسة لشيوخه الذين أخذ عنهم.

٩ – « فوائد حسان » :

يوجد منها نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم مجموع ٢٦ (حديث) من اللوحة ٢٤٥ – ٢٦٠.

وهذه الفوائد عبارة عن أحاديث وأخبار مفيدة، انتقاها الشيخ عبد القادر الرهاوي عن شيخه الحافظ «السِّلفي».

وفي نهايتها سماعات وإجازات كثيرة.

١٠ – « كتاب الأربعين المستغني بتعيين ما فيه عن المعين » ويعرف بالاربعين البلدانية :

يوجد من هذا المخطوط ست نسخ في ثلاث مكتبات هي :

١ – المكتبة الظاهرية بدمشق، وفيها أربع نسخ، أرقامها كالآتي :

أ – مجموع رقم ١٨ من اللوحة ٣٦ – ٤٣.

ب – مجموع رقم ٧٦ من اللوحة ٦ – ٢١.

---

١ – الصفحة ١٠٤٤.

٢ – ٢ / ٧٥.

٣ – الصفحة ٤٣٠.

جـ ـ حديث رقم ٥٣٢   من اللوحة ١ ـ ١٠ .

د ـ حديث رقم ٥٣٧   من اللوحة ١ ـ ١٦ .

٢ ـ المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ـ بالقاهرة ـ تحت رقم ٤٢٢ (حديث) . ويتكون من ١١ لوحة .

٣ ـ المكتبة الأهلية بباريس : Bibliothepue Nationale

مجموع رقم ٧٢٢ ـ ١

وتتكون هذه النسخة من ١١ لوحة في كل صفحة ١٩ سطراً ، وتنقطع عند الحديث رقم ٣٤ ، ثم يكمل بعد نهاية مخطوط « المحمدون » الذي هو ضمن المجموع ذي الرقم نفسه ٧٢٢ ـ ١ .

ومخطوط كتاب الأربعين هذا عبارة عن أربعين حديثاً محققة ومخرجة ، جمعها الحافظ « السِّلفي » عن أربعين شيخاً من شيوخه ، كل شيخ منهم من بلدة .

يبدأ المخطوط ، بهذه العبارة [١] : أخبرنا الشيخ الفقيه مجد الدين أبو الوفاء عبد الملك بن عبد الحق بن عبد الوهاب الأنصاري الحنبلي ، قراءة عليه، ونحن نسمع ، قيل له : أخبرك الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني قراءة عليه وأنت تسمع بثغر الاسكندرية ؟ فأقرّ به .

قال : أما بعد ، حمداً لله المنعم على الأنام ، المحسن إليهم مدى الأيام ... وينتهي بنهاية الحديث الأربعين .

وقد تردد ذكر هذه الأحاديث الأربعينية وروايتها عند الأندلسيين

---

١ ـ هذه عبارة مخطوط الظاهرية مجموع رقم ٧٦ . ولكل نسخة بداية مختلفة تبعاً للراوي الذي رواها عن « السلفي » .

كثيراً [1] . كما قام بشرحها والتعليق عليها والتعريف برواتها ودرجاتهم من حيث الجرح والتعديل أبو محمد القاسم بن أبي القاسم بن عساكر « ابن محدث الشام وصاحب التاريخ المشهور » [2] .

١١ – « كتاب الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » :

توجد منه نسخة في مكتبة The Chester Beatty Library – في مدينة Dublin بايرلندا ، تحت الرقم 4874 .

ويتكون هذا المخطوط من ٢١ لوحة ، في كل لوحة ٢٧ سطراً ، بمعدل اثني عشرة كلمة في كل سطر ، وهو مكتوب بخط نسخ جيد .

يتحدث الحافظ « السِّلفي » في بدايته عن « الإجازة » وأنواعها وفوائدها وآدابها ، والشروط التي يجب أن تتوفر فيها ، وألفاظها الخاصة بها ، ثم يعرض – بعد ذلك – آراء علماء الحديث واختلاف وجهات نظرهم في منح « الإجازة » أو منعها ، ثم يبدي رأيه بعد مناقشة تلك الآراء ، فيجيزها ، وأنه لا يرى مبرراً لمنعها أو التشدد في منحها لكل من يطلبها متى كان واعياً سليم العقل .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى ذكر شيوخ الحديث الذين أجازوا له ولم يلتق بهم ، فيترجم لكل واحد منهم ترجمة قصيرة ، يذكر فيها اسمه وبلده وشيوخه وتاريخ وفاته وشيئاً من مروياته .

يبدأ المخطوط بعبارة : « أما بعد ، حمداً لله مولى النعم ، ومقدرها في القدم ، الموصوف بالعطاء مناً منه والكرم ... فإني لما فرغت من ذكر

---

١ – انظر « المعجم » لابن الأبار : ٥١ .

٢ – انظر مخطوط رقم ٢٧٩ (حديث) بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

ممّن لقيته مِن الرواة وكبار الحفاظ الوعاة ، وإثبات من علّقت عنه شيئاً من الحديث ... الخ .

وينتهي بهذه العبارة : « آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً طيباً سباركاً فيه إلى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين » .

١٢ ــ المجالس السّلَمَاسيّة :

ويوجد منها نسختان في المكتبة الظاهرية بدمشق :

الأولى : مجموع رقم ٦٤ . من اللوحة ١٥٦ ــ ١٦٥ .

والثانية : مجموع رقم ٣٨٧ (حديث) من اللوحة . ٢٣٠ ــ ٢٤١

وهذه المجالس عبارة عن تلك الأحاديث التي أملاها المؤلف على طلاب الحديث في مدينة سَلَماس سنة ٥٠٦ هـ في خمسة مجالس . يحتوي كل مجلس على أربعة أحاديث وبيتين من الشعر في نهايتها من تأليفه .

آخر المخطوط رقم ٦٤ : « آخر المجالس الخمسة المعروفة بالسّلَمَاسية والحمد لله حق حمده ، وصلاته على خير خلقه محمد وصحبه » . ثم يوجد بعد ذلك سماع لأبي الحسن مرتضى بن العفيف عن « السِّلفي » .

١٣ ــ « المشيخة البغدادية » :

وتوجد منها نسختان إحداهما في مكتبة « الأسكوريال » في مدريد تحت الرقم ١٧٨٣ . وعدد أوراقها ٣٤٧ لوحة . ومكتوبة بخط نسخ رديء .

ويتكون هذا المخطوط من ٣٥ جزءاً غير متساوية في عدد الصفحات ، وفي كل صفحة عشرون سطراً ، بمعدل اثنتي عشرة كلمة .

وهو كتاب تراجم مفيد ، ألفه الحافظ « السِّلفي » لشيوخه الذين التقى بهم في بغداد فقط في الفترة ما بين سنة ٤٩٣ ـ ٤٩٧ هـ . فذكر أسماءهم ، وكناهم وبعض ما رواه عنهم ، أو اختاره من كتبهم من أحاديث شريفة ، وأشعار حكمية وزهدية ، وحكايات فيها عظات واعتبار [١] .

يبدأ المخطوط بهذه العبارة : « أنبأنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفه السِّلفي الأصبهاني الحافظ الفقيه الشافعي الصوفي ، نزيل الإسكندرية في كتابه إلينا منها في ربيع الآخر سنة ٥٧٤ هـ ، رحمه الله ، قال : أنبأنا أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبدالله بن البَطِر القارىء ببغداد بقراءتي عليه في صفر سنة ٣٩٤ هـ ... الخ .

وينتهي بهذه العبارة : « فرغ من تعليقه إبراهيم بن عثمان بن عيسى ابن درباس الماراني ـ عفا الله عنه ـ ليلة السبت سادس عشر من رجب سنة تسع وستمائة بحران من نسخة الشيخ حماد الحراني بخطه ووقفه وسماعه من أبي طاهر « السلفي » رحمه الله . وعلقتها أنا بإجازتي من أبي طاهر « السِّلفي » كتابة من الإسكندرية في ربيع الآخر ، سنة أربع وسبعين خمسمائة .

وأما النسخة الثانية لهذا المخطوط فتوجد في مكتبة فيض الله باستانبول تحت رقم ٥٣٢ .

هذا وقد انتقى بعض العلماء من « المشيخة البغدادية » بعض أجزائها . ويوجد من تلك الانتقاءات جزءان بمكتبة Leiden بهولندا هما :

---

١ ـ لهذا المخطوط أهمية كبيرة لدراسة الحركة الفكرية في بغداد في أواخر القرن الخامس الهجري ، ونتمنى أن تقوم بعض المؤسسات العلمية في العراق بتحقيقه أو المساهمة المالية في طبعه ونشره .

١ – الجزء رقم OR. 2490

وهو من انتقاء أحمد بن اللبُّودي (القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي) الذي يقول في آخره : « فرغ من تعليقه أحمد بن اللبودي ليلة الجمعة سابع من ربيع الأول الميمون سنة ٨٧٦ ه بمنزله بصالحية دمشق والحمد لله رب العالمين » .

٢ – الجزء رقم OR. 2452

وهو بخط أبي محمد عبد الجليل بن محمد بن تغري الطحاوي المالكي ، وعليه إجازة عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله ، من نسخة كتبها محمد ابن عبد العظيم سنة ٦٣١ ه بالقاهرة .

١٤ – « معجم أصبهان » :

مفقود .

وهو عبارة عن جزء ضخم ، ترجم فيه الحافظ « السِّلفي » لشيوخه الأصبهانيين فقط وذلك قبل مغادرته بلده « أصبهان » متوجهاً إلى بغداد عام ٤٩٣ ه .

وقد ذكره كثير من المؤرخين الذين رأوه أو نقلوا منه أمثال :

١ – الحافظ الذهبي ، وقد وصفه بقوله : « وله (للسلفي) معجم لمشيخة أصبهان ، في مجلد يكون أزيد من ستمائة شيخ » [١] . وقال عنه في مكان آخر : « وله كتاب المشيخة الأصبهانية في جزء ضخم رويناه » [٢] .

٢ – والشيخ تاج الدين السبكي صاحب « طبقات الشافعية » ، وقد ذكره بقوله : « وعمل معجماً حافلا لشيوخه الأصبهانيين » [٣] .

---

١ – « تذكرة الحفاظ » : ٤/ ١٢٩٩ .

٢ – « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب .

٣ – « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٤ .

٣ ــ والسخاوي صاحب كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ، وقد أورد ذكره أثناء الحديث عن أصحاب كتب المعاجم والمشيخة فقال : « ومنهم » « السلفي » له « معجم أصبهان » [١].

٤ ــ والحافظ ابن حجر العسقلاني ، وخليل الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » وقد ذكراه أثناء ترجمتهما للحافظ « السِّلفي » ، وعندما اقتبس الأول من نفس المعجم [٢] .

١٥ ــ معجم السّفر :

وهو أهم كتب « السِّلفي » دون نزاع ، وله قيمة تاريخية عظيمة لكل دارس يهتم بتاريخ الأدب والحركة الفكرية والأدبية في القرن السادس الهجري . وقد قمت بتحقيق القسم الأول منه كجزء من أطروحتي التي تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كامبردج ، ثم أتممت ــ بعون الله بعد ذلك ــ تحقيق الكتاب كله ، وسينشر قريباً بإذن الله .

وقد أوردت تفصيلا شاملا لهذا المخطوط في مقدمة الجزء الأول الذي حققناه ، وفي القسم الثاني من أطروحتي باللغة الانجليزية [٣] ، فليراجع هناك خشية الإطالة هنا .

١٦ ــ مقدمة « كتاب الاستذكار » لابن عبد البر الأندلسي :

يوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، تحت الرقم مجموع ٧١ ، من اللوحة ١١٦ ــ ١٢٢ وهي مكتوبة بخط نسخ جيد .

---

١ ــ « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » : ٢٣٧ .

٢ ــ أنظر « تبصير المنتبه » : ٢ / ٧٤٥ ، و« الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٢ .

٣ ــ انظر: Abû Tahir Al-Silâfi : His life aed Works, accompanied By A critical edition of A part of nu'jam Al-Safar part. 11.

وقد ذكر فيها الحافظ « السِّلفي » إملاءه للحديث في مدرسته ، ثم إقباله على « موطأ » مالك ، ومَيْلَه إلى العناية بكتاب « الاستذكار » وهو شرح لمعاني « الموطأ » ثم كتابته لهذه المقدمة الحسنة عن ابن عبد البر مؤلف الكتاب ، ذاكراً له فيها كتبه التي ألفها .

تبدأ هذه « المقدمة » بهذه العبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، رب يسر ، قرىء على الشيخ الإمام العالم الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السِّلفي الأصبهاني ، وأنا أسمع في يوم الجمعة الثالث عشر من شوال من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بثغر الإسكندرية بالمدرسة العادلية » .. الخ .

وتنتهي بهذه العبارة : « سمع هذا الجزء على الشيخ العلامة الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني المصنِّف له ...» الخ .

ثم يأتي بعد هذه العبارة سماع لحماد بن هبة الله بن حماد الحراني سنة ٥٧٣ هـ عن الشيخ « السِّلفي » ، وهو الذي كتب المقدمة بخطه . ثم يأتي بعد ذلك سماع آخر .

١٧ – مقدمة كتاب « معالم السنن » لأبي سليمان الخطابي البستي :

هذه المقدمة عبارة عن ترجمة وافية لحياة أبي سليمان الخطابي مؤلف « معالم السنن » الذي شرح فيه « سنن أبي داود » وفيها بيان لأهمية الكتاب ودقة معلوماته .

وقد ذكر هذه المقدمة قديماً الحافظ الذهبي في كتابه « سير أعلام

النبلاء »[1] وياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان »[2] .

وأخيراً قام بطبعها المرحوم الشيخ محمد حامد الفقي في نهاية الجزء الثامن من كتاب « معالم السنن »[3] .

ثانياً : انتخاباته وتعاليقه :

انتخب « السِّلفي » كثيراً من كتب العلماء التي كان يرى فيها فائدة لنفسه ولطلابه . وكانت عادته أن يحقق تلك الانتخابات ويعلق عليها ، ثم يأخذ في التدريس منها ، وهو واثق من كل ما ورد فيها . ومن بين تلك الانتخابات التي استطعنا العثور عليها ، والتي لا تزال مخطوطات لم يسبقنا إلى نشرها أحد ، ما يلي :

١ ــ الأربعون الوَدْعانية :

وهي عبارة عن أربعين حديثاً ، تنسب إلى القاضي أبي نصر محمد بن علي بن عبيد الله بن ودعان (ت : ٤٩٤ هـ) حاكم الموصل[4] .

ويوجد من هذه الأربعين الودعانية عدة نسخ مخطوطة ، متناثرة في المكتبات العالمية الآتية :

١ ــ دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ويوجد فيها ثلاث نسخ تحت الأرقام التالية :

---

١ ــ « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٢ .

٢ ــ « معجم البلدان » : ٢ / ٨٢ .

٣ ــ الجزء الثامن : من ١٣٨ ــ ١٦٣ .

٤ ــ ويقال ان هذه الأحاديث الأربعين ليست من اختيار ابن ودعان، وإنما هي لغيره ونسبها إلى نفسه .

أ — مجموع رقم ٢٣٠٤٢ [١] ، من الورقة ١ — ٤٦ . وهذه النسخة مكتوبة بخط نسخ معتاد ، وفي كل صفحة ١٩ سطراً . وبهوامشها بعض التعليقات . نسخها عبد الجواد بن علي الأبياري في يوم الجمعة ٢١ جمادي الآخرة ، سنة ١٠٤٠ هـ .

ب — مجموع رقم ٢٣١٨٣ [٢] ، من الورقة ١٢٤ — ١٧٤ . وهذه النسخة مكتوبة أيضاً بخط نسخ معتاد ، وفي كل صفحة ١٣ سطراً .

فرغ من نسخها محمد بن محمد الشهير بابن زيتون في ١٤ شعبان سنة ١٠٦٧ هـ .

جـ — مجموع رقم ١٣١ [٣] من الورقة ٦٦ — ١١٢ . وهذه النسخة مكتوبة أيضاً بخط نسخ معتاد .

فرغ من كتابتها أحمد بن الحاج إسماعيل الفحماوي بالأزهر في غرة محرم سنة ١٢٧١ هـ .

٢ — مكتبة الأوقاف ببغداد [٤] .

مجموع رقم ٣٩٥٣ — ١ . من الورقة ١ — ٣٩ . وهذه النسخة مكتوبة بخط نسخ ممتاز ، وفي كل صفحة ١٥ سطراً [٥] .

---

١ ، ٢ — انظر « فهرس دار الكتب للمخطوطات » : ٢ / ١٠ .

٣ — انظر « فهرس الكتبخانة الخديوية المصرية » : الجزء السابع ، مجموع ١٣١ .

٤ — زعم مؤلف فهرس « الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف » أن الشارح لهذه « الأربعين الودعانية » هو أبو الطاهر السلفي . وهذا زعم باطل ، والصحيح أن الشارح مجهول .

٥ — هذه النسخ الأربع « للأربعين الودعانية » الموجودة في بغداد والقاهرة هي شرح للأحاديث . وطريقة الشارح أن يذكر الحديث أولا ثم يشرحه .

٣ – مكتبـــة Oriental public library بمدينة بانكيبور بالهند رقم ٢٧٤ ، في ٢٥ ورقة في كل صفحة ٢٣ سطراً . وهي مكتوبة بخط نسخ عادي .

٤ – مكتبة Koniglichen Bibliothek بمدينة برلين بألمانيا .

مجموع رقم 4/1460 من الورقة ٩٧ – ١١٨ .

٥ – مكتبة باريس الأهلية :

مجموع رقم ٧٢٢ . من الورقة ١٠٠ – ١١٠ وهذه النسخة مكتوبة بخط نسخ جيد ، علقها لنفسه محمد بن أبي الشيخ محمد بن منصور ابن علي بن هاشم بتاريخ الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ٨٨١ هـ .

٢ – الإرشاد إلى معرفة علماء الحديث (أو البلاد) :

لأبي يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي (ت ٤٤٦هـ – ١٠٥٤م) .

وتوجد منه أربعة أجزاء تحت ثلاثة أرقام هي :

١ – مجموع رقم OR. 2451 ويشمل الجزئين الثامن والتاسع من الكتاب .

٢ – مجموع رقم OR. 2452 ويشمل الجزء الخامس من الكتاب .

وهذان المجموعان موجودان في مكتبة ليدن بهولندا .

٣ – مجموع رقم ٩٩١٩ ويشمل الجزء السادس فقط ويوجد في مكتبة Koniglichen Bibliothek ببرلين .

والكتاب – كما هو واضح من الأجزاء المذكورة أعلاه – عبارة عن تراجم لبعض علماء الحديث وذكر لبعض النقول والأحاديث والحكايات عنهم .

وقد ختم الجزء الثامن بهذه العبارة : « فرغه نسخاً من الأصل المصحح على أصل « السِّلفي » محمد بن عبد الله بن تغري الطحاوي نزيل مصر بها يوم الثلاثاء تاسع وعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٦٣١ هـ .

٣ – السداسيات :

التي خرجها لشيخه أبي عبد الله الرازي المعروف بابن الحطاب وتوجد منها نسختان .

الأولى : في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم مجموع ٧٣ ، وعدد أوراقها عشر ورقات من ١١ – ١٢ ، وفي الصفحة ٢١ سطراً . وهي مكتوبة بخط نسخ رديء .

والثانية : توجد في مكتبة الأسكوريال بمدريد تحت الرقم مجموع ١٨٠٠ – ٩ من الورقة ٨٩ – ٩٩ . وفي الصفحة ٢١ سطراً . وهي مكتوبة أيضاً بخط نسخ رديء .

وهذه السداسيات عبارة عن مجموعة أحاديث من اختيار الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي ، سلسلة الرواة في كل حديث ستة أشخاص فقط خرج أحاديثها « السلفي » .

يبدأ المخطوط بقوله : « الحمد لله المنعم المنان والصلاة والسلام على المصطفى المنعوت بالحكمة والبيان » .

وينتهي آخر السداسيات بقوله : « آخر الجزء المخرج والحمد لله رب العالمين وصلواته على المصطفى محمد وآله وصحبه أجمعين » .
ثم يعقب ذلك سماعات عدة .

٤ ــ السِّلَفيات :[١]

هذه مجموعة أجزاء مختلفة انتخبها الحافظ « السِّلفي » من كتب شيوخه أو كتبها عنه مَن حضر عنده من تلاميذه . قال في وصفها حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » : وجملتها تزيد على مائة جزء[٢] . أما ما عثرت عليه فهو الآتي :

أ ــ الجزء الثاني من انتخابات « السِّلفي » :

وتوجد منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت الرقم مجموع : ٢٨٤١ . ويتكون من ٦ لوحات ، في كل صفحة ١٨ سطراً ، ومكتوب بخط نسخ كبير ، غير منقوط في كثير من الكلمات .

وهو انتخابات من أصول أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج . ويشتمل على أشعار وحكايات وأخبار ، يرويها جعفر الهمداني عن الحافظ « السِّلفي » عن ابن السراج .

يبدأ ــ بعد البسملة ــ « أخبرني أبو الحسن علي بن أبي المجد الجوزي بقراءتي عليه ظاهر القاهرة ، أنبأنا سليمان بن حمزة بن أبي عمر القاضي ، أنبأنا جعفر بن علي الهمداني سنة ٦٣٤ هـ ، أنبأنا أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ السلفي قراءة عليه وأنا أسمع في ثالث عشر المحرم إحدى وسبعين الخ.

وينتهي هذا الجزء فجأة ، مما يدل على أن هذه الورقات أندمجت في مخطوط آخر .

---

١ ــ هذه التسمية من عندي ، لأنها مجموعة كثيرة وقصيرة لا عنوان لها أصلا ، فآثرت تجميعها وإعطائها عنواناً واحداً يشملها كلها تسهيلا على القارىء واختصاراً لكثرة العناوين .

٢ ــ الصفحة ٥٨٧ .

ب ــ الجزء الثالث من انتخابات « السلفي » :

وتوجد منه نسخة في مكتبة The Chester Beatty library تحت الرقم ٣٧٦٤ ، ويتكون من ٩ ورقات ، في كل صفحة ١٨ سطراً ومكتوب بخط نسخ رديء .

وهذا الجزء هو من انتخابات « السِّلفي » من أصول سماعات أبي الحسن علي بن المشرف بن المسلّم ، ويتحدث في بدايته عن اختلاف علماء القراءات في قراءاتهم لبعض الكلمات في القرآن الكريم ، ثم ينتقل إلى ذكر بعض الأحاديث والحكايات الهادفة ذات العبرة والموعظة .

يبدأ المخطوط بقول « السِّلفي » : « أخبرنا أبو الحسن علي بن المشرف المصري من أصول سماعاته بالإسكندرية ... الخ » .

وينتهي بقوله : « آخر الجزء والحمد لله حق حمده ، والصلاة على المصطفى محمد وآله وصحبه . نقلته من أصل السماع بالإسكندرية ، وبلغت من أوله قراءة وسماعاً ، وصح لنا ذلك في شعبان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة في منزلي بثغر الإسكندرية ».

ج ــ انتخابات من أصول أبي الحسين أحمد بن محمد الثقفي حاكم الكوفة :

وتوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم مجموع ١١٣ ، من الورقة ١٢ ــ ٢١ . ومكتوبة بخط الشيخ عبد الغني المقدسي ، ويوجد عليها سماعه من الشيخ الحافظ « السلفي » ،

وهذه الانتخابات عبارة عن جزء فيه فوائد اختارها الحافظ « السِّلفي »

من أصول سماعات أبي الحسين أحمد بن حمزة بن محمد بن الحسن بن عبد الله الثقفي حاكم الكوفة .

د – انتخابات من أصول كتب أبي عبد الله الطبري :

وتوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم مجموع ٥٥ ، من الورقة ٧٣ – ٨٠ .

وهذه الانتخابات عبارة عن أحاديث وحكايات انتخبها الحافظ « السِّلفي » من أصول كتب أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين الطبري بمكة ، أيام أدائه الحج في سنة ٤٩٧ هـ .

هـ – انتخابات من أصول ابن الفَرَّاء الموصلي :

مفقـــودة .

ذكرها ابن العماد في كتابه « شذرات الذهب » [١] ، أثناء ترجمته لحياة ابن الفراء وقال : « وانتخب عليه السلفي مائة جزء » . وذكرها أيضاً الحافظ الذهبي في كتابه « سير أعلام النبلاء » [٢] .

و – انتخابات من أصول ابن الطيوري (الطوريات) :

وتوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم ٣٢٩ حديث ، من الورقة ١–٢٨٦ . وتتكون من ١٧ جزءاً . وهي مكتوبة بخط نسخ معتاد .

وهذه « الطوريات » عبارة عن مجموعة من الأحاديث والحكايات التي انتخبها الحافظ « السِّلفي » من أصول كتب شيخه أبي الحسين المبارك ابن عبد الجبار الصيرفي الطيوري أيام كان في بغداد .

---

١ – « شذرات الذهب » : ٤ / ٥٩ .

٢ – المجلد ١٣ ، الورقة ٦ ب .

ز – انتخابات من أجزاء الشيخ أبي منصور الخوجاني المذكَّر :

يوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم مجموع ٢٦ ، من الورقة ١٢٨ – ١٣٩ . ومكتوبة بخط نسخ عادي . وفي نهايتها عدة سماعات .

وهي عبارة عن أحاديث وحكايات قصيرة هادفة من أجل العظـة والاعتبار .

ح – انتخابات من مسند ابن زيدان البجلي (ت : ٣١٣ هـ) :

يوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية ، بدمشق تحت الرقم مجموع ١١٣ ، من الورقة ١٦ – ٢٢ . وهي نسخة جيدة مكتوبة بخط الحافظ عبد الغني المقدسي .

وهي عبارة عن مجموعة أحاديث مختارة .

ط – انتخابات أخرى صغيرة :

كلها موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الأرقام التالية :

١ – حديث المصافحة : مجموع ٢ ، من الورقة ٧٩ – ٨٠ .

٢ – حديث لقيط بن عامر : حديث ٣٥٧ ، من الورقة ٥٨ – ٦٥ .

٣ – أحاديث منتقاة عوال : مجموع ٦٦ ، من الورقة ٢٣٢ – ٢٣٧ .

٤ – ثلاثة أحاديث مسلسلة : مجموع ٩٨ ، من الورقة ١٠٥ – ١٠٦ .

٥ – تضعيف حديث بطلان الوضوء بالقهقهة : مجموع ٣٤ من الورقة ١٧٤ – ١٨٧ .

٥ – مشيخة أبي عبد الله الرازي :

ويوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت الرقم ٥٢٧ حديث

ومكتوبة بخط نسخ رديء .

وهذه المشيخة عبارة عن ثبت لشيوخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي المعروف بابن الحطاب ، ومسموعاته منهم ، انتقاها وخرجها له تلميذه الشيخ الحافظ « السِّلفي » سنة ٥١٢ هـ ، أي بعد وصوله إلى الاسكندرية بسنة واحدة . وهي تحتوي على ستة وأربعين شيخاً ممن سمع عليهم الشيخ أبو عبد الله الرازي الحديث وقراءة القرآن الكريم تجويداً ، ومعظمهم من الشيوخ المصريين .

وهذه النسخة الموجدة هي رواية تلميذ « السِّلفي » أبي القاسم عبد الرحمن بن مكي بن حمزة الانصاري . وتاريخ كتابتها الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ٥٩٧ هـ .

ثالثاً : كتب رواها « السلفي » واشتهرت بأنها له :

هناك مجموعة من المؤلفات والكتب رواها « السِّلفي » عن أصحابها وحدث منها لتلاميذه ، فذاعت واشتهرت بين الناس لروايته لها ، وكاد الناس ينسبون مؤلفها الأصلي لأنه غير مشهور . نختار من بين تلك الكتب ما يلي :

١ — « فضائل مصر وبيت المقدس والشام » :

توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة كامبردج بانكلترا تحت الرقم ١٧٣٦ وهذا المخطوط في الحقيقة ليس « للسِّلفي » كما ذكر بعض المؤلفين ولكنه رواية « السِّلفي » عن محمد بن الحسين بن محمد الحنائي الدمشقي أثناء وجوده بدمشق ، عن عمر بن يوسف الكندي الذي يتحدث فيه عن فضائل مصر ويذكر الأحاديث التي وردت فيها والأنبياء والصالحين

والأشخاص العظماء الذين مروا بها أو كانوا فيها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس وبعض مدن فلسطين والشام وخاصة دمشق فيصفها كما وصف بلاد مصر .

٢ – « كتاب الأربعين فيما ينتمي إليه المتقون ، ويستعمله الموفقون وينتبه به الغافلون ويلازمه العاقلون » .

وتوجد منه نسخة في مكتبة باريس الأهلية تحت الرقم مجموع ٧٢٢ – ٦ ، من الورقة ٦٩ – ٩٦ .

وهذا المخطوط رواية « السِّلفي » عن المؤلف الرئيس أبي عبد الله القاسم بن الفضل بن أحمد الثقفي ، وهو عبارة عن أربعين حديثاً ، يرويها « السلفي » عنه ، ثم يرويها ابن الجميزي تلميذ « السِّلفي » في الإسكندرية عن « السِّلفي » .

٣ – « ما جاء في النظم المعجز للأولين والآخرين ، من كلام رب العالمين ، من لغات طوائف وقبائل العرب » :

توجد منه نسخة في مكتبة برلين تحت الرقم مجموع ٤٢٧ – ٢٣ من الورقة ١٢٥ – ١٣١ وهو ضمن مجموع كتاب « جوهرة الغواص وتحفة أهل الاختصاص » . لأبي عبد الله محمد بن علي بن عرّاق (ت ٩٣٣ هـ) .

وهذا الكتيب رواية « السِّلفي » عن أبي بكر يحيى بن إبراهيم بن شنبل المالكي بالإسكندرية . وهو عبارة عن تفسير لبعض كلمات وردت في بعض سور القرآن الكريم مع الإشارة إلى القبيلة التي كانت تستعملها في لغتها .

---

١ – انظر فهرس مخطوطات جامعة كامبردج .

وأما الكتب التي كان يدرِّسها « السِّلفي » لتلاميذه ، وبقيت محتفظة باسم مؤلفها فشيء كثير لا نرى لزوماً لذكره هنا ، من أراد الاستفادة فليراجع كتاب « معجم السفر » ليقف على الكثير منها .

* * *

الفصل الثامن

« مكانته العلمية وما قاله العلماء فيه »

لا شك أن حياة الحافظ « السلفي » الطويلة ، ومطالعته الواسعة ، ولقاءاته العديدة لعلماء الحديث ، واشتغاله بتدريس الحديث مدة تزيد على سبعين عاماً ، أكسبه مكانة علمية عالية ، وشهرة واسعة في ميدان عام الحديث ، لا في الإسكندرية وحدها ، بل في جميع الأقطار الإسلامية آنذاك . وقد أشار إلى هذه المكانة العلمية الكثير من تلاميذه الذين لزموا درسه وعاشوا معه ، والعديد من علماء الحديث الذين عاصروه والتقوا به أو سمعوا به ، وكذلك مؤرخو كتب التراجم الذين جاءوا بعده وأرخوا لحياته أو أشاروا إليه . وهؤلاء جميعاً – تلاميذ ومعاصرين ومؤرخين – يجمعون على أنه كان يتمتع بمكانة علمية عالية بين أبناء عصره ، لخّصها ابن خلكان بقوله : « ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله [1] .

ولعل من المفيد لتوضيح مكانة الحافظ « السِّلفي » العلمية ، وإبرازها في الصورة التي تستحقها أن أنقل هنا ما سجله علماء الحديث ، وأصحاب التراجم من عبارات وصفية أبانوا فيها عن تقديرهم لمكانته بين علماء الحديث .

قال أبو سعد السمعاني صاحب كتاب « الأنساب » : « أبو طاهر السلفي ثقة ورع متقن متثبت ، حافظ فَهِيم ، له حظ من العربية ، كثير الحديث ، حسن الفهم والبصيرة فيه [2] .

---

١ – « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢ .
٢ – نقلا عن « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ .

وقال الحافظ الذهبي : « كان « السلفي » جيد الضبط ، كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه في علم الحديث وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث ، جمع بين علوّ الإسناد وعلوّ الانتقاد ، وبذلك كان ينفرد عن أبناء جنسه [1] » .

وقال الحافظ ابن نقطة : « كان « السِّلفي » جوالاً في الآفاق ، حافظا ثقة ، متقناً ، سمع من أشياخه وأقرانه ، وسأل عن أحوال الرجال شجاعا الذهلي ، والمؤتمن الساجي ، وأبا علي البَرَداني ، وأبا الغنائم النَّرْسي ، وخميسا الحَوْزي سؤال ضابط متقن [2] » .

وقال تلميذه الشيخ عبد القادر الرهاوي : « كان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة مع مخالفته لهم في المذهب ... وما كنا ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء ، وقد سمعت بعض فضلاء همدان يقول : السِّلفي أحفظ الحفاظ[3] » .

وقال عنه الشيخ السبكي في « طبقات الشافعية » : « كان حافظاً جليلاً وإماماً كبيراً ، واسع الرحلة ، ديّناً ورعاً ، حجة ثبْتاً ، فقيهاً لغوياً ، انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان [4] » .

وأما ابن الأبار الأندلسي فقد وصفه بقوله : « بقية المسنين المعمرين المكثرين ، دخل العراق والشام وبلاد الجبل وخراسان والحجاز ومصر ، وسمع الحديث بهذه الآفاق وكتبه ، وروى العالي والنازل ، ولقي الكبار

---

١ — « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ ، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٦أ

٢ — نقلا عن « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠١ .

٣ — نفسه : ٤ / ١٣٠٢ .

٤ — « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٣ .

والصغار ، وعمّر حتى عادله النازل عالياً ، وحدث في الإسلام نيّفاً وسبعين سنة ، وفي شيوخه كثرة ، والنساء منهم عدة . وذكره شيخنا أبو عبد الله التجيبي في « معجم مشيخته » مصدّراً به ، ومبتدئاً لسنّه وفضله وعظم قدْره وعلو سنده ... وتفرد في الدنيا بالإمامة في علم الحديث وعلو الدرجة في الإسناد ، وأخذ عنه أهل الأرض – جيلاً بعد جيل [1] » .

وقال عنه العماد الأصفهاني في خريدته : « طوف « السِّلفي » بلاداً ، وشُدت إليه الرحال ، وتبرك به الملوك والأقيال [2] » .

وترجم ابن خلكان لحياته فقال : « أحد الحفاظ المكثرين ، رحل في طلب الحديث ولقي أعيان المشايخ ... وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا منه وانتفعوا به ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله [3] » .

وذكره ابن الجوزي في كتابه « غاية النهاية في طبقات القراء » فقال عنه : « حافظ الإسلام ، وأعلى أهل الأرض إسناداً في الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم [4] » .

وذكره سبط ابن الجوزي في وفيات سنة ٥٧٦ هـ فقال : « وطاف الدنيا ، ولقي الشيوخ ، وكان يمشي حافياً لطلب الحديث ... وألحق الصغار بالكبار ، وكان حافظاً متقناً صدوقاً ثقة ، سمع خلقاً كثيراً ، وحدّث عنهم [5] » .

---

١ – « المعجم » : ٥٠ – ٥١ .
٢ – « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٢ »
٣ – « وفيات الأعيان » : ١ / ٨٧ .
٤ – « غاية النهاية في طبقات القراء » : ١ / ١٠٣ .
٥ – « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » : ٨ / ٣٦١ .

وقال السيوطي : « كان إماماً حافظاً متقناً ثبْتاً ديّناً خيّراً ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ في حياته ، وله تصانيف ، وكان أوحد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية [1] » .

أما صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » فقد وصفه بقوله : « وكان إماماً مقرئاً مجوّداً ، محدّثاً ، محقّقاً ثقة ، حجة ثبتاً ، انتهى إليه علوّ الإسناد في البلاد ... وكان جيد الضبط ، ولم يزل أمره يعظم بالإسكندرية حتى صار له عند ملوك مصر الاسم والجاه العريض ، والكلمة النافذة ، مع مخالفته لهم في المذهب ، وقلة مبالاته بهم في أمر الدين لعقله ودينه وحسن مجالسته وأدب نفسه [2] » .

وقال الحافظ ابن حجر : « السِّلفي شيخ الإسلام وحجة الرواة [3] » .

وذكره ابن الدّبَيْثي صاحب كتاب « ذيل تاريخ بغداد » فقال عنه : « وعمّر وحدث بالكثير ، ورحل إليه من الآفاق ، وكان ثقة ورعاً ، روى عنه لنا جماعة [4] » .

وترجم لحياته اليافعي صاحب كتاب « مرآة الجنان » فقال : وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ، وانتفعوا به ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله » [5] .

وذكره من الكتاب المحدثين شكيب أرسلان في كتابه « الحلل السندسية

---

١ – « حسن المحاضرة » : ١ / ١٦٥ .
٢ – « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٢ ، ٣٥٤ .
٣ – « لسان الميزان » : ١ / ٢٩٩ .
٤ – « المختصر المحتاج إليه » (انتقاء الذهبي) : ١ / ٢٠٦ .
٥ – « مرآة الجنان » : ٣ / ٤٠٣ .

في الأخبار الأندلسية » فقال عنه : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على المطالعة والنسخ وإقراء الحديث ، وإذا قرأت تراجم الأندلسيين فلا نكاد نجد راحلا من الأندلسيين إلى الشرق إلا وقد قيل عنه أنه سمع من أبي طاهر « السِّلفي » في الإسكندرية ، ومما لا شك فيه أنه لم يوجد من قضى عمراً يساوي عمره في خدمة الحديث ، حتى كانوا يقولون عنه إنه مسند الدنيا »[1] .

هذه بعض العبارات التي وصف بها « السِّلفي » من رجال مؤلفين ثقات ، وهي عبارات تجمع على أنه كان ثقة في كل ما روى وحدّث ، وأنه كان صاحب ورع وتدين ، امتد به عمره حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسناداً في الحديث والقراءات ، فرحل الناس إليه من أماكن بعيدة وانتفعوا به ، وكان طوال حياته بحاثة محققاً لا يشغله عن القراءة والكتابة والبحث شيء ، فكان بحق أوحد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية .

وقد يسأل سائل فيقول : هذه العبارات التي قالها أصحاب التراجم والمؤرخون في الحافظ « السلفي » تمثل — كلها — جانب المديح والثناء فقط ، فهل هناك آراء أخرى مخالفة لها تعكس وجهة نظر أخرى ؟ وهل هناك من نقد وجه « للسِّلفي » ينتقص من علمه أو يجرحه أو يخالف رأياً له أو يشير إلى ضعف في روايته ؟ .

والجواب على تلك التساؤلات هو أنني وضعت في اعتباري أثناء البحث أن الحافظ « السِّلفي » رحمه الله إنسان كغيره من الناس ، ليس

---

١ — « الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية » : ٢ / ٤٦ .

معصوماً عن الخطأ ، وأن مكانته العلمية مهما عظمت ليست منزهة عن النقد ... ولهذا حرصت كل الحرص على أن أجد أي رأي ، أو نقد موجه لعلم الحافظ « السِّلفي » أو لشخصه ، اعتقاداً امنّي أن الآراء المخالفة المتعارضة حول شخص أو أمرٍ من الأمور أقدر وأجدى في تقويم حقيقته . وقديماً قال المتنبي بيته الذي جرى مجرى الحكمة والمثل [1] :

ونذيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَـــه وبضدِّهـا تتبيّنُ الأشيـــاءُ

وقد شجعني على الجري وراء هذا الاعتقاد ، وأفسح مجال الأمل أمامي في العثور على شيء مما أردت حادثة ابن المفضل ــ السالفة الذكر التي أراد أن يختبر بها قوة ذا كرة أستاذه ــ والتي أثارت في نفسي بعض الاحتمالات والافتراضات ، كان في مقدمتها ضعف ذاكرة الحافـظ « السِّلفي » في أواخر أيامه، وهو أمر محتمل الحدوث جداً لرجل عاش ما يزيد على مائة عام ، وكان منها أيضاً احتمال وجود حساد له يحسدونه على مكانته ، أو وجود رأي مخالف له في توثيق راوٍ وهو ضعيف ، أو تجريح آخر وهو ثقة ، او اعتماده على أصل ليس موثوقاً بمادته . ولكنني ــ بعد البحث الطويل والحرص الشديد ــ لم أحصل على شيء أكثر مما وصل إليه الحافظ الذهبي ، ومـــا نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني ، من هذه الحادثة التي قال فيها : « ما علمت أن أحداً تعرض له ــ أي للسلفي ــ حتى ظفرت بشاردة باردة ، أوردها على سبيل التعجب أبو جعفر بن الزبير في ترجمة محمد بن أحمد بن اليتيم الأندرشي أحد الضعفاء، فذكر فيها أنه أسند « جامع الترمذي » عن « السلفي » عن أبي الفتح الحداد ، عن ابن نيال ، ثم ان « السلفي » استدرك بأن ذلك إجازة ونبّه

١ ــ « ديوان المتنبي » : ١ / ٢٢ (تحقيق السقا وآخرين) .

عليه . قال : ومن هنا تكلم أبو جعفر علي بن الباذش في « السِّلفي » كلاماً لم يلتفت أحد له ، على جلالة ابن الباذش . قلت [1] : فالسِّلفي شيخ الإسلام وحجة الرواة [2] » .

هذه هي مكانة الحافظ « السِّلفي » رحمه الله تعالى في ميدان علم الحديث الذي كان فارسه المجلّي ، وهي مكانة لا شك عظيمة ، ظل محتفظاً بها ، ومحافظاً عليها منذ عرف واشتهر إلى آخر يوم في حياته ، رغم تقدم سنه وضعف جسمه .

ذكر تلميذه أبو الحسن علي بن المفضّل حادثة أراد بها أن يختبر ذاكرة شيخه « السِّلفي » وقدرته على الحفظ عندما تقدمت به سنه ، فقال : « حفظت أسماء وكُنى ، وجئت إلى « السِّلفي » وذاكرته بها ، فجعل يذكرها من حفظه — وما قال لي أحسنت — وقال : « ما هذا شيء مليح ، أنا شيخ كبير في هذه البلدة هذه السنين ، لا يذاكرني أحد وحفظي هكذا [3] » .

ولعل هذه الحادثة أغاظت « السِّلفي » رحمه الله وآلمت نفسه ، فرد على مختبريه بهذين البيتين من الشعر [4] :

ليس على الأرض في زماني   من شأنه في الحديث شاني
علماً ونقْداً ولا عُلُوا   فيه على رغم كلّ شاني

---

١ — أي قال ابن حجر .

٢ — انظر « ميزان الاعتدال » : ١ / ١٥٥ ، « لسان الميزان » : ١ / ٢٩٩ .

٣ — « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٧ أ .

٤ — « المعجم » : ٥٢ ، « أزهار الرياض » : ٣ / ١٧٠ ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٥٣ .

هذا هو السِّلفي في أواخر أيامه ، حاضر الذهن ، قوي الذاكرة ، لم يخْرف ولم يخلط ، بل ذكر الحافظ الذهبي والشيخ السبكي أنه « حدَّث في مساء الليلة التي توفي فيها ، ولم يزل يُقرأ عليه الحديث في ذاك المساء إلى أن غربت الشمس ، وهو يردُّ على القارىء اللّحن الخفيّ [1] » .

ولعمري ، لعل خير وصْفٍ وُصِف به - رحمه الله - في أواخر أيامه هو ما وَصَفَ به نفسه في هذين البيتين من الشعر [2] :

أنا إن بَانَ شبابي ومضى ... فلربي الحمد ذهني حاضرُ
ولَئِنْ خفّت وجفّتْ أعظُمي ... كِبَراً غُصْنُ علومي ناضِرُ

* * *

١ – « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٤ ، « طبقات الشافعية » : ٤ / ٤٦ .
٢ – « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٨٧ .

الفصل التاسع

شيوخه وتلاميذه

أولا : شيوخــــه :

لقد بلغ شيوخ « السلفي » من الكثرة عدداً كبيراً يصعب تحديده بالدقة والضبط ، وذلك لكثرة عددهم من ناحية ، ولتفرقهم في بلاد كثيرة متباعدة من ناحية أخرى . فهو – رحمه الله – عمر طويلا ، وطاف بلاداً كثيرة ، والتقى بشيوخ من الشرق والغرب كثيرين ، كان من بينهم العلماء المشهورون المعروفون ، والمجهولون المستورون .

ولكن – وعلى الرغم من صعوبة تحديد العدد – يمكن معرفة عدد تقريبي لهم إذا نحن تتبعنا كتب الحافظ « السلفي » التي ألفها أولا ، وطالعنا ما ذكره أصحاب التراجم الذين ذكروا بعض شيوخه ثانياً .

لقد ألف الحافظ « السلفي » لشيوخه ثلاثة معاجم ، وخرج عن بعضهم أحاديث في كتاب رابع ، وهي كما يلي :

١ – « معجم أصبهان » وقد ذكر فيه شيوخه الأصبهانيين الذين أخذ عنهم في بلده أصبهان ، وهو معجم ضخم رآه الحافظ الذهبي ورواه [١] ، وذكر أن الحافظ المنذري سمع شيخه الحافظ علي بن المفضل يقول : « عدة شيوخ « السلفي » بأصبهان تزيد على ستمائة نفس » [٢] .

٢ – « معجم بغداد ويسمى «المشيخة البغدادية » أو «السفينة البغدادية» وهو

١ – انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٥ أ .

٢ – نفسه ، و« تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٩٩ .

معجم كبير يتألف من خمسة وثلاثين جزءاً [1] ، ذكر فيه شيوخه البغداديين الذين أخذ عنهم في بغداد وحدها .

٣ ـ « معجم السفر » وقد ذكر فيه شيوخه الذين التقى بهم وأخذ عنهم في البلاد التي طاف بها عدا بغداد وأصبهان ، وقد وصفه الحافظ الذهبي بقوله : « قرأت بخط عمر بن الحاجب أن « معجم السفر » للسِّلفي يشتمل على ألفي شيخ [2] .

٤ ـ « كتاب الأربعين المستغني بتعيين ما فيه عن المعين » وهو المسمى « كتاب الأربعين البلدانية » وهو كتاب خرّج فيه أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً في أربعين بلدة [3] .

هذه الكتب الأربعة فيها ما يعطي صورة تقريبية عن ضخامة عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم الحافظ « السلفي » . وقد يطول بنا البحث إطالة تخرجه عن المنهج العلمي المألوف لو حاولت أن أذكر هنا جميع أولئك الشيوخ . ولهذا سوف أكتفي بذكر المشهورين منهم وبخاصة الذين نقل عنهم [4] .

فمن الشيوخ الأصبهانيين في الحديث والقراءات ما يلي :

ـ أبو عبد الله القاسم بن الفضل بن أحمد [5] رئيس أصبهان ومُسندها ، روى عن محمد بن إبراهيم الجرجاني ، وابن مَحْمِش وطبقتهما

١ ـ راجع فصل « كتبه وأعماله الأدبية » الصفحة ١٨٩ . وهذا المعجم عندي صورة عنه ، وقد حاولت أن أعد الشيوخ المذكورين فيه فوجدتهم يقاربون الألفين .

٢ ـ انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٥ ب . وهذا العدد الذي ذكره الذهبي يزيد كثيراً على ما هو موجود حالياً في « معجم السفر » . انظر « معجم السفر » بتحقيقنا.

٣ ـ انظر مقدمة الكتاب : الورقة ٨ ب .

٤ ـ سأتبع في ترتيب الشيوخ حسب سني وفاتهم ما أمكن .

٥ ـ انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٢٥ .

بأصبهان ونَيسابور وبغداد والحجاز . قيل : إن أول سماع « للسِّلفي» كان منه وتوفي في أصبهان سنة ٤٨٩ هـ ، عن اثنتين وتسعين سنة .

ــ محمد بن عبد الرحمن المديني [١] : أديب مقرىء متصدر ، أول شيخ كتب عنه « السِّلفي » ، توفي سنة ٤٨٩ هـ . روى القراءات من كتاب أبي عبيد سماعاً من علي بن عبد كويه ، ورواها عنه الحافظ « السِّلفي » بفوت من سورة « ق » .

ــ أبو بكر محمد بن عبد الواحد [٢] بن محمد ، الذي قال عنه « السِّلفي » : لم يمت أحد من شيوخي قبله ، ولا أنبأنا عن أبي منصور بن مهريزد صاحب أبي علي الصحاف سواه .

ــ الحافظ إسماعيل بن محمد [٣] بن الفضل التَّيمي ، صاحب كتاب «الترغيب والترهيب » رحل إلى بغداد في طلب الحديث ، فلقي أبا نصر الزَّينبي وطبقته ، ورحل وسمع ببلاد كثيرة ، وجاور في الحرم سنةً ، وأملى الحديث ، وتكلم في الرجال وأحوالهم ، وكان رجلا ثقة ، صاحب مؤلفات في التفسير . قال عنه أبو عمرو بن مَنده : ليس في وقته مثله . روى عنه كثير من الحفاظ الكبار أمثال ابن عساكر وابن السمعاني وابن ناصر والسلفي ، وتوفي سنة ٤٩١ هـ .

ــ أبو العباس أحمد بن عبد الغفار [٤] بن أَشْتـه الأصبهاني سُسْنِد

---

١ ــ انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٢ ب ، و« طبقات القراء » : ٢ / ٢٤١ .

٢ ــ نفس المصدر : الورقة ٢ ب .

٣ ــ له ترجمة وافية في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٧٧ .

٤ ــ ترجم له « السلفي » في « معجم السفر » (مخطوط المدينة) الورقة ١ ب . وانظر ترجمته أيضاً في « العبر » : ٣ / ٣٣١ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٥٤ .

أصبهان ، روى عن علي بن ميلة ، وأبي سعيد النقاش وطائفة ، وعاش اثنتين وثمانين سنة وتوفي سنة ٤٩١ هـ .

— أبو الحسن مكي بن منصور [١] بن محمد بن علاّن الكَرْجي نائب الكرج ومعتمدها ، رحل وسمع من الحِيْري والصَيْرفي وأبي الحسين ابن بِشران وجماعة ، وكان محمود السيرة وافر الحرمة ، وتوفي سنة ٤٩١ هـ .

— أبو مطيع محمد [٢] بن عبد الواحد المديني الصحّاف الذي انتهى إليه علوّ الإسناد بأصبهان . روى عن أبي بكر بن مَرْدَوَيْه والنقاش وابن عقيل الباوَرْدي وطائفة . توفي سنة ٤٩٧ هـ عن بضع وتسعين عاماً .

— أبو الفتح أحمد [٣] بن محمد بن سعيد الحداد ، كان شيخاً ورعاً صالحاً ومن أعلم الناس في المناظرة ، وروى عن أبي سعيد النقاش وغيره ، وتوفي عن اثنتين وتسعين سنة في ذي القعدة سنة ٥٠٠ هـ .

— أبو سعد محمد [٤] بن محمد المطرّز ، أكبر شيخ للحافظ أبي موسى المديني . كان عالماً بالقراءات ، سمع الحسين بن إبراهيم الجمال وأبا علي غلام محسن ، وغيرهما . قرأ عليه الحافظ « السلفي » القرآن بحرف عاصم . وتوفي سنة ٥٠٣ هـ ، عن نيف وتسعين سنة .

١ — انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٣١ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٥٤ .
٢ — انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٤٨ .
٣ — نفس المصدر : ٣ / ٣٥٥ ، «شذرات الذهب » : ٣ / ٤١٠ .
٤ — نفس المصدر : ٤ / ٧ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٧٣ ، « طبقات القراء » : ٢ / ٢٥٣ . وقد وردت كنيته في « طبقات القراء » أبو سعيد .

– الحافظ يحيى بن [1] عبد الوهاب بن مَنده صاحب « التاريخ » ، له سماع عن والده ، وروى عن ابن ريذه صاحب الطبراني ، وسعيد العيّار ، وأبي بكر البيهقي وطائفة ، دخل بغداد حاجاً وأملى بها الحديث ، وحدّث عنه عدد من الحفاظ أمثال ابن ناصر والسلفي ومحمود ابن اسماعيل والشيخ عبد القادر الجيلاني . قال عنه السمعاني « جليل القدر ، وافر الفضل ، واسع الرواية ، حافظ ثقة ، فاضل مكثر ، صدوق كثير التصانيف ، أوحد بيته في عصره » . توفي سنة ٥١١ هـ .

– الحافظ محمد [2] بن عبد الواحد الدقّاق ، رحل في طلب الحديث إلى كثير من البلاد ، وعني بهذا الفن ، وسمع من عبد الرحمن بن مَنده وأبي المظفر عبد الله بن شبيب وغيرهم ، وكتب عن أكثر من ألف شيخ بأصبهان . وكان محدثاً أثرياً فقيراً وصالحاً متعففاً . توفي سنة ٥١٦هـ

– الحافظ أبو نصر الحسن [3] بن محمد بن إبراهيم بن أحمد اليونارتي ، كان واسع الرحلة في طلب الحديث ، والتقى بمحدثين كثيرين أمثال أبي بكر بن خلف الشيرازي بنيسابور وأبي عامر محمود بن القاسم الأزدي بهراه ، وأبي عبد الله النعالي ، وأحمد بن عبد القادر اليوسفي ، والحسين ابن علي البُسري في بغداد . وقد أخذ « للسِّلفي » عدداً من الإجازات من حفاظ كثيرين ببغداد والبصرة وبلدان المشرق وقد حدّث وأملى وتوفي سنة ٥٢٧ هـ .

---

١ – انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٥٠ ، « العبر » : ٤ / ٢٥ .
٢ – ترجم له الذهبي في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٥٥ . وانظر أيضاً « العبر » : ٤ / ٧١ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ٢٢١ .
٣ – له ترجمة وافية في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٨٦ ، وله ترجمة في عدة كتب ، انظر « العبر » : ٤ / ٧١ ، « شذرات الذهب » : ٣/ ٨٠ ، « المنتظم » : ١٠/٣٢، وغيرها.

أما شيوخه البغداديون في الفقه واللغة والحديث والقراءات فقد كان فيهم الكثرة ، لأن بغداد آنذاك كانت عامرة بطلاب العلم والعلماء.

فمن شيوخه في الفقه نذكر :

– ألكيا الهرّاسي [1] أبو الحسن علي بن محمد بن علي شيخ شيوخ الشافعية في بغداد . تفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ثم قدم بغداد وتولى تدريس الفقه في المدرسة النظامية بها . وكان فصيحاً ، مهيباً . قال عنه ابن خلكان : « كان فصيح العبارة ، حلو الكلام جهوري الصوت » . توفي سنة ٥٠٤ هـ ، ودفن في مقبرة بجوار أبي إسحاق الشيرازي .

– أبو بكر محمد [2] بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري ، تفقه في أول أمره على يد محمد بن بيان الكازَروني ، ثم لزم ببغداد الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وقرأ عليه وأعاد عنده ، وقرأ كتاب «الشامل» في الفقه الشافعي على أبي نصر بن الصباغ . وصنف وأفتى وولي تدريس « النظامية » . وتوفي سنة ٥٠٧ هـ .

وأما أبرز شيوخه في اللغة فهم :

– أبو الكرم المبارك [3] بن فخر الدبّاس ، من كبار أئمة اللغة والنحو ببغداد ، وله مصنفات ، روى عن القاضي أبي الطيب الطبري ، وأخذ

---

١ – انظر ترجمته في « العبر » : ٤ / ٨ ، « وفيات الأعيان » : ٣ / ١٧٣ ، وألكيا كلمة فارسية معناها الكبير القدر ، المقدم بين الناس .

٢ – انظر ترجمته في « العبر » : ١٣/٤ ، « الكامل » : ١٠ / ١٧٦ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٩٤ .

٣ – انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٥٦ ، « شذرات الذهب » : ٤١٢/٣ ، و« مرآة الجنان » : ٣ / ١٦٢ .

اللغة العربية عن عبد الواحد بن برهان . وتوفي في ذي القعدة سنة ٥٠٠ هـ عن سبعين عاماً .

– أبو زكريا يحيى [١] بن علي التبريزي العالم اللغوي المشهور . أستاذ الأدب في النظامية ببغداد ، وصاحب التصانيف الكثيرة المفيدة ، أخذ اللغة عن أبي العلاء المعري ، وسمع الحديث من أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي . ومن مؤلفاته :

« شرح الحماسة » و « شرح ديوان المتنبي » و « شرح المعلقات السبع » و « شرح سقط الزند » للمعري ، وله « تهذيب إصلاح المنطق » ، وكتاب « الكافي في علم العروض والقوافي » ، و « الملخص » في إعراب القرآن في أربع مجلدات وغير ذلك . وكانت وفاته سنة ٥٠٢ هـ .

– علي [٢] بن محمد بن علي الفصيحي من أهل استرباذ في طبرستان ، قرأ النحو على عبد القاهر الجرجاني ،وأخذ عنه أبو نزار النحوي ،والحيص بيص الشاعر ، قدم بغداد واستوطنها ، ودرّس الأدب في « النظامية » بعد وفاة أبي زكريا التبريزي ،ولكنه اتهم بالتشيع وطرد من التدريس ، فكان المتعلمون يقصدون داره التي انتقل إليها للقراءة عليه . قال عنه الحافظ « السِّلفي» : « جالسته ببغداد ، وسألته عن أحرف من العربية ». كتب كثيراً من كتب الأدب ، وانتفع به خلق كثير . .

---

١ – انظر ترجمته في « وفيات الأعيان » : ٢ / ٢٣٣ ، « معجم الأدباء » : ٣ / ٤٤ ، « العبر » : ٤ / ٥ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٥ ، « الكامل » : ١٠ / ١٦٧ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٧٢ .

٢ – انظر ترجمته في « وفيات الأعيان » (طبعة بيروت) : ٣ / ٣٣٧ ، « معجم الأدباء » : ٥ / ٤١٤ ، « إنباه الرواة » : ٢ / ٣٠٦ .

ومن شيوخه في الحديث والقراءات ما يلي :

– أبو الخطاب نصر [1] بن أحمد بن البَطِر البغدادي أول شيخ لقيه « السِّلفي» وقرأ عليه في بغداد ، وآخر من روى عن عبد الله بن البيّع ، وابن بشران . وحدّث عنه أبو علي بن سكّره ، وأبو بكر الانصاري ، وأبو بكر ابن العربي وسعد الخير الأندلسي ومحمود الزمخشري صاحب « الكشاف » في التفسير وابن ناصر وخلق كثير غيرهم . وقد عمّر حتى صارت إليه الرحلة من الأطراف وتكاثرت عليه الطلبة ، وكان صادقاً صحيح السماع . توفي عن سنة ٤٩٤ هـ ، وله ست وتسعون سنة .

– أبو طاهر أحمد [2] بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار مقرىء العراق في وقته ، ومؤلف كتاب « المستنير » في القراءات ، كان ثقة مجوداً أقرأ خلقاً كثيراً ، وسمع الكثير ، وحدّث عن ابن غيلان وطبقته ، وتوفي سنة ٤٩٦ هـ .

– الحسين بن علي [3] بن أحمد بن البُسري . قال عنه « السِّلفي» : « لم يرو لنا عن عبد الله بن يحي السُّكّري سواه . توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٩٧ هـ وله ثمان وثمانون سنة .

---

١ – انظر ترجمته في « المشيخة البغدادية »(مخطوط)الورقة ١ أ،«المنتظم » : ١٢٩/٩، « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ١٠ أ ، « العبر » : ٣ / ٣٤٠ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٢ ، « الكامل » : ١٠ / ١١٤ .

٢ – انظر ترجمته في «غاية النهاية في طبقات القراء» : ٨٦/١، « المنتظم» : ١٣٥/٩، « معجم الأدباء » : ١ / ٤١٣ ، « العبر » : ٣ / ٣٤٣ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٦ .

٣ – انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٤٦ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٥ ، « المنتظم » : ٩ / ١٤٠ .

ـ أبو بكر أحمد [1] بن علي بن زكريا الطُّرَيْثِيثي الصوفي ، كان من أصحاب أبي سعيد الصوفي ، ويقيم عنده في رباطه ، سمع محمد بن محمد بن مخلد البزّاز ، وابن شاذان وغيرهما ، وكانت سماعاته صحيحة . توفي سنة ٤٩٧ هـ عن ست وثمانين سنة .

ـ أبو الخطاب علي [2] بن عبد الرحمن بن هارون بن الجرّاح المقرىء ، صاحب منظومتين في القراءات ، وكان أديباً لغوياً . روى عن عبد الملك بن بشران ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ وقد قارب التسعين عاماً .

ـ الحافظ أبو علي أحمد [3] بن محمد بن أحمد البَرَداني ، روى عن أبي الحسن القزويني وابن غيلان وطبقتهما ، وكان بصيراً بالحديث محققاً حجة . قال عنه أبو سعد السمعاني : « أحد المبرزين في صنعة الحديث » . توفي سنة ٤٩٨ هـ عن اثنتين وسبعين سنة .

ـ أبو المعالي ثابت [4] بن بُنْدار المحدث الثقة ، روى عن علي بن شاذان وطبقته ، وتوفي سنة ٤٩٨ هـ .

---

١ ـ له عدة ترجمات : انظر منها « طبقات الشافعية » للسبكي : ٤ / ٣٩ ، « العبر » ٣ / ٣٤٦ ، « المنتظم » : ٩ / ١٣٨ ، « الوافي بالوفيات » : ٧/ ٢٠٢ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٥ .

٢ ـ انظر ترجمته : « غاية النهاية » ١ / ٥٤٨ ، « المنتظم » ٩ / ١٤٠ ، « العبر » ٣ / ٣٤٨ .

٣ ـ انظر : « ذيل طبقات الحنابلة » : ١ / ١١٧ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٣٢ ، « المنتظم » : ٩ / ١٤٤ ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٣٢٢ ، « العبر » : ٣ / ٣٥٠ ، شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٨ .

٤ ـ « العبر » : ٣ / ٣٥١ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٨ .

ـ أبو منصور محمد [1] بن أحمد بن عبد الرزاق الخيّاط الشيرازي الأصل ، البغدادي الموطن ، المقرىء الزاهد . صنف كتاب « المهذب » في القراءات ، وروى الحديث الكثير ، وكان يُقرىء العميان القرآن الكريم بدون أجر ، وكان زاهداً صالحاً كثير الصيام . قال الحافظ « السلفي » : « ختم في ثاني جمعة من وفاته على قبره مائتان واحدى وعشرين ختمة » ، وكانت وفاته سنة ٤٩٩ هـ .

ـ أبو محمد جعفر [2] بن أحمد بن الحسين السراج المعروف بالقارىء ، كان حافظاً ثقة أديباً كثير الشعر ، وله تصانيف منها كتاب « مصارع العشاق » . أكثر الحافظ « السلفي » في الأخذ عنه ، وكان يفتخر في روايته عنه ، مع أنه لقي أعيان ذلك الزمان وأخذ عنهم ، وتوفي في سنة ٥٠٠ هـ .

ـ أبو الحسين المبارك [3] بن عبد الجبار بن قاسم الصيرفي المعروف بابن الطيوري ، صاحب « الطيوريات » التي اختار منها « السلفي » أكثر من مائة جزء ، سمع أبا علي ابن شاذان . قال ابن السمعاني عنه : « كان مكثراً صالحاً أميناً صدوقاً صحيح الأصول » . وقيل : كان عنده ألف جزء بخط الدارقطني . وتوفي سنة ٥٠٠ هـ عن تسع وثمانين سنة.

---

١ ـ « طبقات القراء » : ٢ / ٧٤ ، « العبر » : ٣ / ٣٥٣ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٦ ، « ذيل طبقات الحنابلة » : ١ / ١٢٠ .

٢ ـ انظر « وفيات الأعيان » : ١ / ٣٠٩ ، « العبر » : ٣ / ٣٥٥ ، « شذرات الذهب » ٣ / ٤١١ .

٣ ـ انظر « العبر » : ٣ / ٣٥٦ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤١٢ ، « الكامل » : ١٠ / ١٥٤ .

- الحافظ شجاع [1] بن فارس الذهلي السُّهْرَوَرْدي ، الذي قضى حياته في طلب الحديث . وقد اعتمد عليه « السلفي » كثيراً في معرفة بعض المحدثين السابقين ، وسأله عن أحوال الرجال فأجاب إجابات متقنة تدل على المعرفة والتثبت . نسخ ما لا يدخل تحت حصر من التفسير والحديث والفقه لنفسه وللناس . روى عن ابن غيلان وطبقته . وتوفي سنة ٥٠٧ هـ وله سبع وسبعون سنة .
- الحافظ المؤتمن [2] بن أحمد بن علي الربعي ويعرف بالسّاجي ، حافظ محقق ، واسع الرحلة ، كثير الكتابة ، متين الورع والديانة ، روى عن ابن النقور وأبي بكر الخطيب وطبقتهما وأبي نصر الزَّيْنبي وابن مَنده الأصبهاني . روى عنه ابن ناصر والسِّلفي وسعد الخير وغيرهم . قال عنه ابن ناصر : « كان حافظاً ثقة ورعاً مأموناً » . وتوفي سنة ٥٠٧ هـ وله اثنتان وستون سنة .
- الحافظ أبو عامر محمد [3] بن سعدون العبدري الأندلسي نزيل بغداد ، سمع أبا الفضل ابن خيرون وطراد بن محمد الزَّينبي وأبا عبد الله الحميدي وكان عالماً بالحديث والأنساب . قال عنه « السِّلفي » : « كان من أعيان علماء الإسلام متصرفاً في فنون العلوم » . وقال ابن عساكر : « كان فقيهاً على مذهب داود الظاهري ، وكان أحفظ شيخ لقيته » . توفي سنة ٥٢٤ هـ .

---

١ — انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٤٠ ، « العبر » : ٤ / ١٣ ، شذرات الذهب » : ٤ / ١٦ .
٢ — انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٤٦ ، « العبر » : ١٤ / ١٥ ، « شذرات الذهب » : ٤٠ / ٢٠ ، « الكامل » : ١٠ / ١٧٦ .
٣ — انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٧٢ ، « العبر » : ٤ / ٥٧ ، « نفح الطيب » (طبعة بيروت) : ٢ / ١٣٨ .

ومن شيوخه في البلدان الأخرى :

– أبو عبد الله الحسين [1] بن علي الطبري الشافعي (صاحب كتاب « العدّة » الموضوعة شرحاً على كتاب « الإبانة » للفوراني) إمام كبير ، تفقّه على القاضي أبي الطيب ببغداد صغيراً ، ثم لازم أبا إسحاق الشيرازي . درّس بالمدرسة النظامية ببغداد بعد أبي القاسم الدّبوسي ، ثم عزل ثم أعيد بعد أن ترك أبو حامد الغزالي التدريس بها سنة ٤٨٩ هـ . جاور بمكة ، وهناك التقى به « السلفي » وأخذ عنه . وتوفي سنة ٤٩٨ هـ .

– أبو البقاء المعمّر [2] بن محمد بن علي الحبّال المحدث الكوفي ، كان محدثاً ثقة ، روى عن جناح بن نذير المحاربي وجماعة . توفي سنة ٤٩٩ هـ .

– أبو محمد عبد الرحمن [3] بن حمد بن الحسن الدوني ، آخر من روى « سنن النسائي » بعلو عن أبي نصر الكسّار ، وإليه كانت الرحلة بسببه . وقد التقى به « السِّلفي » ببلده الدّون سنة ٥٠٠ هـ ، وقرأ عليه . وكان رجلا زاهدا صالحاً عابداً . وتوفي في سنة ٥٠١ هـ .

– أبو الفرج محمد [4] بن محمود بن حسن القزويني ، فقيه صالح ، التقى به « السِّلفي » في المدينة المنورة سنة ٤٩٧ هـ ، واستملى عليه مجلساً مشهوراً . توفي سنة ٥٠١ هـ .

---

١ – انظر ترجمته في «تبيين كذب المفتري»: ٢٨٧ ،« العبر » : ٣ / ٣٥١ ، «طبقات الشافعية» للسبكي : ٤ / ٣٤٩ ، « شذرات الذهب » : ٣ / ٤٠٨ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ١٦٠ .

٢ – انظر ترجمته في « العبر » : ٣ / ٣٥٤ ، شذرات الذهب »: ٣ /٤١٠ ، « طبقات الشافعية » للسبكي : ٤ / ٤٤ .

٣ – انظر ترجمته في « معجم السفر » : الورقة ٨٣ ب ، «العبر » : ٤ / ٢ .

٤ – انظر ترجمته في « العبر » : ٤ / ٢ .

– الحافظ أبو الفضل محمد بن [1] طاهر المقدسي ، ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق ، سمع من حفاظ كثيرين في بلاد عدة ، وكان من أسرع الناس كتابة وأذكاهم وأعرفهم بالحديث .

قال عنه الحافظ إسماعيل بن محمد الفضل : « أحفظ من رأيت محمد بن طاهر » . وقال « السِّلفي » : « سمعت ابن طاهر يقول : كتبت « البخاري » و « مسلم » ، و « سنن أبي داود » ، و « ابن ماجه » سبع مرات بالوراقة . توفي سنة ٥٠٧ هـ ببغداد .

– الحافظ أبو الغنائم محمد [2] بن علي بن ميمون الملقب بأبيّ النرسي المحدث الكوفي ، سمع بمكة كريمة المروزية . وروى عنه نصر المقدسي ، وأبو عبد الله الحميدي ، وابن الخاضبة ، والسِّلفي ، وابن ناصر . وكان حافظاً متقناً ، قال عنه ابن الأنماطي ، كانت له معرفة ثاقبة . وكان كثير التردد إلى بغداد ، يأتيها في رجب ويمكث فيها إلى بعد العيد . أثنى عليه أبو عامر العَبْدري فقال : خُتم هذا الشأن بأبيّ النرسي . وتوفي سنة ٥١٠ هـ .

– أبو طاهر محمد [3] بن الحسين بن محمد الحنّائي الدمشقي مسند الشام ، سمع أباه أبا القاسم الحنّائي ، وأبا الحسين محمد بن العفيف ، ومحمد وأحمد ابني عبد الرحمن بن أبي نصر ، وآخرين ، وكان ثقة صادقاً ،

---

١ – انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٤٢ .

٢ – نفس المصدر : ٤ / ١٢٦٠ ، وانظر أيضاً « طبقات الشافعية » (للسبكي) : ٤ / ٤٤ .

٣ – انظر ترجمته في « العبر » : ٤ / ٢١ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٢٩ ، « تبصير المنتبه » : ١ / ٢٩٢ .

ومن بيت الحديث . التقى به « السِّلفي » أثناء وجوده بدمشق ، فسمع منه وحدّث عنه . توفي سنة ٥١٠ هـ .

- الحافظ أبو الكرم خميس [1] بن علي أحمد الحَوزي محدث واسط ، سمع أبا نصر الزَّيْنبي وأبا القاسم ابن البُسري ، وعلي بن محمد النديم وطبقتهم . وكان له معرفة بالحديث والأدب ، وكتب وجمع وجرّح وعدل . كان « السلفي » يثني عليه ، ويقول : « كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفي شيوخه كثرة . وقد علقت عنه فوائد ، وسألته عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبته في جزء ضخم هو عندي . وتوفي (خميس) سنة ٥١٠ هـ .

- أبو القاسم عبد الرحمن [2] بن عتيق بن خلف المقرىء الصقلي المعروف بابن الفحّام صاحب كتاب « التجريد » في القراءات . انتهت إليه رئاسة الإقراء علواً ومعرفة في مدينة الإسكندرية . روى عنه « السِّلفي » كثيراً وقال : «وقد علّقت عنه فوائد ، وله تأليف حسن سماه«التجريد في بغية المريد » ، كتبت - أنا - منه أسانيد كل قراءة . وكان حافظاً للقراءات صدوقاً متقناً عالماً . وقد قال لي أبو الربيع سليمان بن عبد العزيز المقرىء الأندلسي : ما رأيت أحداً أعلم بالقراءات ووجوهها منه لا بالمشرق ولا بالمغرب ، وإنه ليحفظ القراءات كما نحفظ نحن القرآن » . وتوفي بالإسكندرية في ذي الحجة ٥١٦ هـ ، وله نيف

---

١ - انظر ترجمته في « معجم السفر » الورقة ٢٢ب ،و « تذكرة الحفاظ »: ٤ / ١٢٦٢. « معجم الادباء » : ٤/ ١٨٥ ، « شذرات الذهب»: ٤ / ٢٧ ، « إنباه الرواة » : ١ / ٣٥٨.

٢ - ترجم له « السلفي » في « معجم السفر » ، الورقة ٥٤ . وله ترجمات عدة . انظر « طبقات القراء » : ١ / ٣٧٤ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٢٥٧ ، « إنباه الرواة » : ٢ / ١٦٤ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٢٣٥ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٤٩ .

وتسعون عاماً .

– أبو صادق مرشد [1] بن يحيى بن القاسم المديني ثم المصري ، أسند من بقي بمصر مع الثقة والخير . وروى عن ابن حمّصة ، وأبي الحسن الطفّال ، وعلي بن محمد الفارسي .

سافر إليه « السِّلفي » من الإسكندرية وروى عنه معظم ما عنده . وقد تقدمت به سنه ، وتوفي سنة ٥١٧ ﻫ .

– أبو عبد الله محمد [2] بن أحمد بن إبراهيم الرازي الإسكندراني المعروف بابن الحطاب ، العالم المعمر الثقة ، صاحب « المشيخة » و « السداسيات » اللذين خرّجهما له « السِّلفي » . اعتنى به والده المحدث أبو العباس الرازي من صغره ، فأسمعه الحديث من كثيرين من المحدثين المشهورين أمثال محمد بن الحسين الطفّال ، وأحمد بن محمد بن الفتح الحكيمي وأبي الفضل السعدي وآخرين غيرهم . وروى عنه « السلفي » وكثيرون من أهل الإسكندرية . وكان محدث الإسكندرية الوحيد عند قدوم « السِّلفي » إليها فأخذ منه وتتلمذ عليه . وقد أثنى عليه « السلفي » فقال : « لم يكن في وقته من يدانيه في علو الإسناد » . وتوفي سنة ٥٢٥ ﻫ وله إحدى وتسعون سنة .

هؤلاء هم بعض مشاهير شيوخ الحافظ « السِّلفي » الذين أكثر من الأخذ عنهم ، ويصعب في هذا المقام أن نعرِّف بالجميع لكثرتهم ، ولهذا

---

١ – انظر ترجمته في « العبر » : ٤ / ٤١ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٧٥ ، « شذرات الذهب » : / ٤٥٧ ، « مرآة الجنان » : ٣ / ٢٢٢ .

٢ – انظر ترجمته في « العبر » : ٤ / ٦٥ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٧٦ ، « تبصير المنتبه » : ٢ / ٥٠٧ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٧٥ ، « الرسالة المستطرفة » : ٨٣ .

أكتفي بمن تقدم ذكرهم ، وأحيل مَن يريد التعرف على الباقي إلى كتب « السِّلفي » الأربعة الآنفة ، وإلى كتب التراجم والوفيات التي أرّخت للمحدثين ورجال الحديث في نهاية القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين .

ثانياً : تلاميـــذه :

إذا كنا قد واجهنا صعوبة ما في تحديد عدد شيوخ « السِّلفي » لكثرتهم وتفرقهم في بلاد عديدة ، فإن الصعوبة التي تواجهنا — هنا — في تحديد عدد تلاميذه أشد وأقوى ، ذلك لأن الحافظ السلفي — رحمه الله — قد امتد به عمره وطال حتى أصبح « أعلى أهل الأرض إسناداً »[1] ، ولأنه استقر في مدينة الإسكندرية يدرّس الحديث زهاء خمسة وستين عاماً ، تكونت له خلالها شهرة عالية في الحديث وعلومه ، جعلته قبلة أنظار طلاب الحديث الذين أخذوا يرحلون إليه من كل حدب وصوب ، مما أدى إلى زيادة عددهم زيادة يصعب جداً معها معرفة عددهم التقريبي أو على الأقل العثور على كتاب واحد يضمهم .

لهذا أجدني مضطراً إلى اتباع نفس النهج الذي اتبعته في التعريف بالشيوخ فسأقتصر على ذكر بعض المشهورين من تلاميذه الذين أكثروا من الرواية عنه ، وأعرّف بهم تعريفاً موجزاً أقصد من ورائه إعطاء فكرة عن نوعية هؤلاء التلاميذ .

وقبل أن أبدأ بذكر تلاميذ الحافظ « السِّلفي » أحب أن أشير إلى أن جماعة من شيوخه الحفاظ وأقرانه العلماء سمعوا منه وحدّثوا عنه ، وكان

---

١ — انظر « سير أعلام النبلاء » : المجلد ١٣ ، الورقة ٥ أ .

من بينهم حفاظ ثقات ومحدثون مشهورون ، وأذكر منهم على سبيل المثال شيخه المحدث أبا علي البَرَدَاني الذي تقدم ذكره مع شيوخه البغدادين ، وشيخه المحدث محمد بن طاهر المقدسي ، وشيخه الضياء بن هبة الله بن عساكر ، وشيخه يحيى بن سعدون ، وشيخه سعد الخير الأندلسي .

أما عن تلاميذه المشهورين الذين لزموه وأكثروا من النقل عنه أو السماع له ، فنختار من بينهم ما يلي :

– أبو عبد الله محمد [1] بن أحمد بن موسى بن وضاح المرسي القيسي ، فقيه حافظ ، رحل إلى المشرق ولقي الحافظ « السلفي » ، وكتب عنه المجالس « السَلَماسية » من إملائه ، وحمل إلى المغرب كثيراً من الفوائد . قال الحافظ « السِّلفي » عنه : « قدم المشرق حاجاً وطالباً للعلم ، وكان من أظرف الناس وأحسنهم أدباً ، وكتب عني كثيراً ، وسمع بقراءتي على شيوخ الإسكندرية جملة صالحة ، ورجع إلى الأندلس وانتفع به وبما رواه » . توفي سنة ٥٤٠ ه .

– سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن خلف الأزدي المالكي الإسكندراني . كان تلميذاً للفقيه أبي بكر الطرطوشي وجلس بعده بمدرسته لتدريس الفقه المالكي . روى عن الحافظ « السِّلفي » كثيراً ، وله كتاب « الطرّاز » شرح فيه « المدوّنه » للإمام مالك في نحو ثلاثين سفراً ، وتوفي قبل أن يتمه سنة ٥٤١ ه . وشهرته عند أهل الإسكندرية : « القاضي سند » .

---

١ – ترجم له « السلفي » في « معجم السفر » : الورقة ١٨١ ب .

ـ الحافظ أبو محمد عبد الغني[1] عبد الواحد بن علي بن سرور الجمّاعيلي المقدسي ، رحل في طلب الحديث إلى بلاد كثيرة ، وصنف كتباً عدة ، منها : « العمدة » جزءان ، و « الأحكام » ستة أجزاء ، « والكمال » عشر مجلدات وغير ذلك . قال عنه ابن النجار : « حدّث بالكثير ، وصنف في الحديث تصانيف حسنة ، وكان غزير الحفظ من أهل الإتقان والتجويد ، قَيِّماً بجميع فنون الحديث » . صحب أبا طاهر « السِّلفي » في الإسكندرية ثلاث سنوات ، وكتب الكثير عنه . قال الذهبي : « لعلّه كتب عنه ألف جزء » . كان إماماً في الحفظ والحديث. توفي سنة ٦٠٠ هـ .

ـ أبو الحسن علي[2] بن فاضل بن سعد الله بن الحسن بن صمدون الصوري الأصل ، ابن الشاعرة تقية بنت غيث بن علي الصوري التي امتدحت « السلفي » في قصائد كثيرة ، وقد أثنى عليها الحافظ « السِّلفي » وترجم لحياتها في « معجم السفر » . كان مقرئاً ونحوياً ، قال عنه الذهبي : « أكثر من الحديث عن « السلفي » ، ورأس في الحديث » . توفي في الإسكندرية في صفر سنة ٦٠٣ هـ .

ـ أبو الحجاج يوسف البلوي المالقي المعروف بابن الشيخ ، رحل إلى الإسكندرية وحج سنة ٥٦٠ هـ ، وسمع « السلفي » وتردّد عليه ، وأكثر من الأخذ عنه ، وكتب عنه كثيراً في كتابه المشهور « ألف باء» .

---

١ ـ انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» : ٤/١٣٧٢ ، «حسن المحاضرة» : ١/١٦٥ « العبر » : ٤ / ٣١٦ ، « تكملة وفيات النقلة » : الورقة ٥٢ ب ، « النجـوم الزاهرة »: ٦ / ١٨٥ ، « معجم البلدان » : ٣ / ١٣٤ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ٣٤٥ .

٢ ـ انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٦ ، « تكملة وفيات النقلة » : الورقة ٨٤ أ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٦٥ .

وكان عالماً باللغة والأدب والفقه والأصول . وكان صاحب معروف بنى ببلده خمسة وعشرين مسجداً كان يشارك في بنائها بيده . توفي بمالقة بالأندلس سنة ٦٠٤ هـ عن ٧٧ سنة .

- الحافظ أبو نزار ربيعة [١] بن الحسن الحضرمي اليمني الصنعاني الشافعي ، طاف بلاداً كثيرة ، وسمع من شيوخ كثيرين كان في مقدمتهم الحافظ « السِّلفي » في الاسكندرية . كان عالماً ثقة ، ومحدثاً وأديباً شاعراً . قال الحافظ المنذري : كتبت عنه قطعة صالحة ، وكانت أصوله أكثرها باليمن ، وهو أحد من لقيته ممن يفهم هذا الشأن . توفي سنة ٦٠٩ هـ ، عن اثنتين وثمانين سنة .

- أبو إسحاق إبراهيم [٢] بن محمد بن عبد العزيز بن حصن الحضرمي الإشبيلي الأندلسي ، صحب الحافظ ابن عات وأخذ عنه معظم ما عنده ، ورحل إلى المشرق فالتقى بالحافظ « السِّلفي » وأخذ الكثير عنه . يقول الرعيني في برنامج شيوخه : « لزمته كثيراً ، وأخذت عنه قراءة وسماعاً ، وسمعت عليه كتاب « الأربعين » « للسِّلفي » و « فهرسته » وحدثني بهما عنه قراءة عليه » . توفي سنة ٦١٠ هـ .

- الحافظ أبو الحسن علي [٣] بن المفضل بن علي بن مفرج بن حاتم اللخمي المقدسي الإسكندراني ، سمع من الحافظ « السِّلفي » فأكثر عنه ،

---

١ – أنظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٣١ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٢٠٧ ، « شذرات الذهب » : ٥ / ٢٧ .

٢ – انظر ترجمته في « برنامج شيوخ الرعيني » : ١١٧ .

٣ – انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٩٠ ، « العبر » : ٥ / ٣٨ ، « وفيات الاعيان» : ٢ / ٤٥٢ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٦٥ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٢١٢.

وانقطع إليه ، وتخرج به ، وهو الذي ولي التدريس في المدرسة « السِّلفية » بعد موت شيخه « السِّلفي » ، ثم انتقل بعد مدة إلى القاهرة للتدريس في مدرسة الوزير ابن شكر ، وبقي هناك إلى أن توفي سنة ٦١١ هـ . وقد صحبه أثناء وجوده في القاهرة الحافظ عبد العظيم المنذري ، وانتفع بصحبته والتتلمذ عليه ، وقال عنه : « كان جامعاً لفنون العلم » . وقال السيوطي عنه أيضاً : « كان من حفاظ الحديث وأئمة المذهب ــ المالكي ــ العارفين به ، وله تصانيف » .

ــ الحافظ أبو محمد عبد القادر [١] بن عبد الله الرُّهاوي الحنبلي . ولد بالرُّها ونشأ بالموصل . حُبِّب إليه فن الحديث فأقبل عليه ، وسمع منه الكثير ، وجمع وصنّف ، وله « الأربعون المتباينة الإسناد والبلاد » ، وهو أمر ما سبقه إليه أحد ولا يرجوه بعده ، محدث . أقام في الإسكندرية مدة ، سمع فيها من « السِّلفي » وكتب عنه . قال عنه الحافظ ابن نقطة : « كان عالماً مأموناً » . وقال عنه المؤرخ أبو شامة صاحب كتاب « الروضتين » : « كان صالحاً مهيباً زاهداً ، خشن العيش ورعاً » . توفي بحرّان في جمادى الأولى سنة ٦١٢ هـ .

ــ المظفر [٢] بن عبد الله بن علي بن الحسين ويعرف بابن المقترح ، الفقيه المتكلم ، تلقى الفقه الشافعي في المدرسة « السِّلفية » ، ثم تولى التدريس بها مدة ، وحدّث بعد وفاة شيخه « السِّلفي » وتخرج به الكثيرون . ثم انتقل إلى مصر وأقرأ القرآن الكريم بجامع مصر واجتمع عليه جماعة

---

١ ــ انظر ترجمته في « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٨٧ ، « العبر » : ٥ / ٤١ ، « معجم البلدان » : ٤ / ٣٤٠ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٢١٤ ، « الرسالة المستطرفة » : ٨٧ .

٢ ــ انظر ترجمته في « طبقات الشافعية» للسبكي ، تحقيق الحلو والطناحي : ٨ / ٣٧٢ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٤٠٩ ، « كشف الظنون » : ١٧٩٣ .

كثيرة ، وتوفي سنة ٦١٢ هـ عن ٨٣ سنة . له كتاب « شرح المقترح في المصطلح » .

– أبو عبد الله محمد [1] بن خَلَف بن راجح المقدسي الحنبلي ، الفقيه المناظر ، رحل إلى الإسكندرية فسمع الحافظ «السِّلفي» ، وأكثر في النقل عنه ، ورحل إلى المحدثة شهدة وطبقتها فأكثر عنهم . وكان باحثاً مفحماً للخصوم ، ذا حظ من صلاح وأوراد . وتوفي سنة ٦١٧ هـ عن ثمان وستين سنة .

– أبو علي الحسن [2] بن أحمد بن يوسف الأوَقي الزاهد ، نزيل بيت المقدس ، أكثر عن الحافظ « السلِّفي» بالإسكندرية وغيره ، وكان عبداً صالحاً زاهداً ، سمع منه ياقوت الحموي بالقدس ، وله « أجزاء » يحدث منها . وتوفي سنة ٦٣٠ هـ .

– أبو محمد عبد الرحمن [3] بن عبد الجبار العثماني الإسكندراني المحدث ، أكثر عن « السِّلفي» ، وتوفي سنة ٦١٤ هـ عن سبعين سنة .

– أبو طالب أحمد [4] بن عبدالله بن الحسين بن حديد الكناني الإسكندراني ، روى عن « السِّلفي» وأكثر من السماع عليه ، وكان قاضي المدينة ، وهو من بيت قضاء وحشمة . توفي سنة ٦١٩ هـ .

---

١ – « العبر » : ٥/ ٧٥ ، «شذرات الذهب» ٥ / ٨٢ ، « المختصر » لابن الدبيثي : ١ / ٤٤ .

٢ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ١١٩ ، « معجم البلدان » : ١ / ٣٧٨ ، « تكملة وفيات النقلة » : الورقة ١٠٠ أ .

٣ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٥٠ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٧٦ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٢٥١ .

٤ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٧٦ .

ـ أبو عبد الله محمد [1] بن أحمد بن محمد الانصاري الأنْدَرَشي [2] المعروف بابن اليتيم ، خطيب « المريّة » بالأندلس . رحل في طلب الحديث إلى المشرق ، وسمع بالإسكندرية من الحافظ « السِّلفي » ، وببغداد من « شهدة » ، وبدمشق من الحافظ ابن عساكر . وتوفي سنة ٦٢١ هـ .

ـ أبو عبد الله محمد [3] بن إبراهيم الفارسي . روى الكثير عن الحافظ « السِّلفي » ، وصنّف التصانيف في التصوف والمحبة . وتوفي سنة ٦٢٢ هـ .

ـ عيسى [4] بن المحدث عبد العزيز بن عيسى اللخمي الشّريشي ثم الإسكندراني المقرىء ، لزم الحافظ « السلفي » وسمع منه الكثير ، وكان مقرئه في المدرسة « السِّلفية» . قرأ القراءات على أبي الطيِّب عبد المنعم ابن الخلوف وغيره ، جمع فأوعى ولكنه ادعى بالأخذ عن شيوخ لا تعرف فضعف واتُّهم . له مصنف في القراءات اسمه « الجامع الأكبر والبحر الأزخر » . توفي سنة ٦٢٩ هـ .

ـ أبو الحسن مرتضى [5] بن أبي الجود حاتم بن المسلم الحارثي الحوفي المقرىء ، قرأ القراءات ، وسمع الكثير من الحافظ « السِّلفي» وجماعة، وكان عالماً عاملا كبير القدر قانعاً متعففاً ، يختم في الشهر ثلاثين ختمة ؛

---

١ ـ نفس المصدر : ٥ / ٨٤ .

٢ ـ نسبة إلى مدينة أندرش بالأندلس من أعمال المرية (الروض المعطار : ٣١) .

٣ ـ انظر « العبر » : ٥ / ٩١ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٠ .

٤ ـ انظر « طبقات القراء » : ١ / ٦٠٩ ، « العبر » : ٥ / ١١٦ .

٥ ـ انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ١٤٠ ، « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٠ .

توفي في شوال سنة ٦٣٤ هـ ، عن خمس وثمانين سنة .

– أبو الفضل جعفر [١] بن علي بن هبة الله الهمذاني الإسكندراني المقرىء المحدّث ، قرأ القراءات على عبد الرحمن بن خلف صاحب ابن الفحّام . وأكثر في رواياته عن الحافظ « السِّلفي » وطائفة . وكتب الكثير وحصّل ، وتصدر الإقراء ، ثم رحل في آخر عمره ، فروى الكثير بالقاهرة ودمشق ، وتوفي سنة ٦٣٦ هـ ، وله تسعون سنة .

– أبو القاسم عبد الرحمن [٢] بن عبد المجيد بن إسماعيل بن عثمان بن يوسف بن حسين بن حفص المعروف بابن الصفراوي ، الفقيه المالكي المقرىء . قرأ القراءات على ابن خلف الله ، وأحمد بن جعفر الغافقي وأليسع بن حزم ، وتفقه على أبي طالب صالح بن بنت معافى . لزم « السِّلفي » وسمع منه الكثير . انتهت إليه رئاسة الإقراء والإفتاء في بلده ، وطال عمره وبَعُد صيته ، وله كتاب « زهر الرياض » . وتوفي في ربيع الآخر سنة ٦٣٦ هـ عن اثنتين وتسعين سنة .

مدح الحافظ « السِّلفي » بقصيدة طويلة مطلعها :

لولاك مـــا بسط المقال لساني ولـمّا تهذّب خاطري وجناني

ومنهـــــا :

وألبَسْتَني من عزّ فضلك حلّةً فأنا أتيه بهـــا على الأقـــران

– أبو القاسم عبد الرحيم [٣] بن يوسف بن هبة الله بن الطّفيل الدمشقي

---

١ – انظر ترجمته في « حسن المحاضرة » : ١ / ٢١٥ ، « العبر » : ٥ / ١٤٩ ، « شذرات الذهب » : ٥ / ١٨٠ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٣١٤ .

٢ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ١٥٠ ، « طبقات القراء» : ١ / ٣٧٣ ، « حسن المحاضرة» : ١ / ٢١٥ ، « شذرات الذهب» : ٥ / ١٨٠ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٣١٤ ، « معجم الألقاب » : ٤ / ٦٥٩ .

٣ – انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٠ ، « العبر » : ٥ / ١٥٣ .

المقيم بمصر . روى عن « السِّلفي » كثيراً ، ومات سنة ٦٣٧ هـ .

– أبو الحسن عليّ [١] بن محمود بن أحمد المحمودي الصابوني ، والد الجمال بن الصابوني المحدث ، أجاز له أبو المطهر الصيدلاني وابن البطّي وطائفة ، وسمع من الحافظ « السِّلفي » ، وكان عدلا جليلا وافر الحرمة . توفي سنة ٦٤٠ هـ ، عن أربع وثمانين سنة .

– أبو الفضل يوسف [٢] بن عبد المعطي بن منصور بن نجا الغساني الإسكندراني المالكي ، روى عن « السِّلفي » وجماعة ، وكان من أكابر بلده . توفي سنة ٦٤٢ هـ .

– علم الدين أبو الحسن علي [٣] بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد السخاوي المقرىء النحوي ، سمع من « السِّلفي » وجماعة . وقرأ القراءات على الشاطبي والغَزْنَوي وأبي الجود ، وانتهت إليه رئاسة الإقراء والأدب في زمانه بدمشق .

قال عنه الذهبي : « وما علمت أحداً في الإسلام حُمل عنه القراءات أكثر مما حُمل عنه ، وله تصانيف سائرة متقنة » . له « التفسير » ، و « شرح المفصل » ، و « شرح الشاطبية » . توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٤٣ هـ .

– عز الدين أبو القاسم عبد الله [٤] بن الحسين بن عبد الله بن رَوَاحة الأنصاري الحموي ، ولد بصقلية وأبواه في الأسر سنة ٥٦٠ هـ .

---

١ – العبر » : ٥ / ١٦٦ .
٢ – نفس المصدر : ٥ / ١٧٣ .
٣ – « معجم الألقاب » : ٤ / ٦٠٥ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٩٣ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ٣٥٤ ، « طبقات المفسرين » : ٢٥ ، « العبر » : ٥ / ١٧٨ .
٤ – انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٠ ، « العبر » : ٥ / ١٨٩ .

وسمّعه أبوه بالإسكندرية من « السِّلفي » والكثير . توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٤٦ هـ ، وله خمس وثمانون سنة .

– أبو علي منصور [١] بن سند بن الدباغ الإسكندراني ، روى عن « السِّلفي » وتوفي سنة ٦٤٦ هـ .

– أبو يعقوب يوسف [٢] بن محمود الساوي المصري الصوفي ، روى عن « السِّلفي » وعبد الله بن برّى ، وتوفي سنة ٦٤٧ هـ .

– المحدث رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب [٣] بن ظافر بن علي بن فتوح المعروف بابن رَوَّاج الإسكندراني المالكي ، ولد سنة ٥٥٤ هـ ، وسمع من « السِّلفي » كثيراً ، ونسخ الكثير ، وخرج « الأربعين » ، وكان ذا دين وفقه وتواضع . توفي في ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

– بهاء الدين أبو الحسن علي [٤] بن هبة الله بن سلامة اللخمي الشافعي المصري المقرىء ، المعروف بابن الجميّزي ، حفظ القرآن وعمره عشر سنوات ، ورحل به أبوه فسمّعه بدمشق من الحافظ ابن عساكر ، وببغداد من شهدة وجماعة ، وبالإسكندرية من الحافظ « السِّلفي » . وكان فقيهاً مقرئاً ومحدثاً ، قال عنه الذهبي : « تفرّد في زمانه ، ورحل إليه الطلبة ، ودرس وأفتى ، وانتهت إليه مشيخة العلم بالديار المصرية».

---

١ – انظر « تذكرة الحفاظ » : ٤ / ١٣٠٠ ، « العبر » : ٥ / ١٩١ .

٢ – انظر « العبر » : ٥ / ١٩٥ .

٣ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٢٠٠ ، « تبصير المنتبه » : ٢ / ٦٣٤ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ١٩٢ . في الأصل « ابن رواح »(بالحاء المهملة) والتصويب من « تاريخ الإسلام » للذهبي .

٤ – انظر ترجمته في « العبر » : ٥ / ٢٠٣ ، «حسن المحاضرة » : ١ / ١٩٣ ، « معجم الألقاب » : ٤ / ٢٣٢ ، « تكملة إكمال الإكمال » : ٢٩٩ .

وتوفي في سنة ٦٤٩ هـ في ذي الحجة .

- سبط الحافظ « السِّلفي » جَمال الدين أبو قاسم عبد الرحمن [1] بن مكي بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي ثم الإسكندراني ، سمع من جده الحافظ « السلفي » الكثير ، وسمع من عبد الحميد بن دُليـل وجماعة . وأجاز له عبد الحق وشهدة وخلق ، وانتهى إليه علوُّ الإسناد في القراءات في الديار المصرية . وتوفي بمصر في شوال سنة ٦٥١ هـ .

- أبو محمد القاسم [2] بن فِيـرُّهْ بن خلف بن أحمد الرُّعَيْني الشاطبي المقرىء الضرير أحد المقرئين الأعلام ، قرأ القرآن الكريم على شيوخ الأندلس ، ثم ارتحل إلى المشرق للحج ، فسمع بالإسكندرية من الحافظ « السِّلفي » ، ثم رحل إلى مصر وأقام بها ، واشتهر اسمه وبعد صيته ، وله قصيدة « الشاطبية » المشهورة في القراءات . تصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية . قال عنه السيوطي : « كان إماماً علاّمةً كثير الفنون ، منقطع النظير ، رأساً في القراءات ، حافظاً للحديث ، بصيراً بالعربية ، واسع العلم » .

- جَهْوَر [3] بن خلف بن أبي عمر قاسم بن ثابت المعافري الأندلسي ، رحل حاجاً إلى المشرق وأدى الفريضة ، وسمع بالإسكندرية من الحافظ « السِّلفي » سنة ٥٣٩ هـ ، وطال مكثه عنده . وقد سمّاه التجيبي في

---

١ - « حسن المحاضرة » : ١ / ١٧٧ ، « العبر » : ٥ / ٢٠٨ ، « تكملة إكمال الإكمال » : ١٩٣ .

٢ - انظر ترجمته في « حسن المحاضرة » : ١ / ٢٣٦ ، « النجوم الزاهرة » : ٦ / ١٣٦ « نكت الهميان » : ٢٢٨ ، « طبقات القراء » : ٢ / ٢٠ .

٣ - انظر « التكملة لكتاب الصلة » : ١ / ٢٥٤ .

أعيان السامعين من « السِّلفي » .

- أبو عبد الله محمد [1] بن عبد الرحمن التجيبي نزيل تلمسان ، كتب الحديث عن جماعة كثيرة من العلماء ، كان من أعيانهم أبو الطاهر « السلفي » . يقول صاحب « نفح الطيب » : « وقد صحبه واختص به وأكثر عنه » . وقد ذكر أبو عبد الله هذا أن « السِّلفي » سأله عندما ودّعه في قفوله إلى المغرب عما كتب عنه ، فأخبره أنه كتب كثيراً من الأسفار ، ومئين من الأجزاء . فسرّ بذلك « السلفي » وقال له : « تكون محدث المغرب إن شاء الله » . وكان مما كتبه عنه كتاب : « مشيخته » . يقول ابن الأبار في كتابه « المعجم » : « وذكر شيخنا أبو عبد الله التجيبي في « معجم مشيخته » شيخه « السِّلفي » مصدراً به ومبتدياً لسنّه وفضله وعظم قدره وعلوّ سنه » [2] .

- أبو الحسن علي [3] بن محمد بن فَيْد القرطبي ، قدم الإسكندرية في طريقه إلى الحجاز ، ولازم « السّلفي » وكتب عنه كثيراً قبل أن يحج ، ثم عندما عاد من الحج . وقد ذكر الحافظ « السِّلفي » عنه في « معجم السفر » أنه كان يقول : « كتبت عنك ألف ورقة وسمعتها » . وكان من جملة ما كتبه عن « السلفي » : « سيرة ابن هشام » ، و كتاب « المجالسة » لابن مروان المالكي ، وكتاب « مشكل القرآن » لابن قتيبة الدينوري . يقول الحافظ « السِّلفي » : « وتوجّه من عندي سنة ٥٣٠ ه إلى الأندلس ، وروى ما سمع ، وانتفع به هناك » .

---

١ – انظر ترجمته في « نفح الطيب » : ٢ / ١٦٠ ، « التكملة » : ٥٨٨ ، « الذيل والتكملة » : ٦ / ١٣٩ .

٢ – « المعجم : » ٥٠ .

٣ – انظر « معجم السفر » : الورقة ب ١٤٧ ، ١٤٨ أ .

ـ القاضي أبو الحسين أحمد[1] بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأسواني ناظر دواوين الإسكندرية . قال عنه « السِّلفي » : « وكان يحضر عندي ، وقرأ عليّ كثيراً ، وكان يقول : قد هان علَيّ ما أنا فيه من التشاغل بالمكوس في مقابلة ما آخذه عنك من الحديث بعد فراغك من الدروس » . له تواليف ونظم . قتله الوزير الفاطمي « شاور » ظلماً في المحرّم سنة ٥٦٣ هـ ، وذلك لمساندته صلاح الدين الأيوبي أثناء محاصرة «شاور » له في الإسكندرية .

ـ أبو عبد الله محمد[2] بن الحسن بن محمد بن سعد المقرىء الدّاني ، المعروف بابن غلام الفرس ، مقرىء مشهور في الأندلس بالمعرفة ، قرأ القرآن على شيوخ الأندلس في القراءات كابي الحسن ين البيّاز القرطبي ، وأبي الحسن بن الدّش الشاطبي ، وأبي داود المؤيدي وآخرين وقرأ اللغة والآداب على مالك العتبي وابن العوّاد بقرطبة. قال «السِّلفي» : « وسمع عليّ الحديث الكثير وكتب ، ومن جملة ذلك كتاب «المحتسب» لابن جني وكتبه » . توفي سنة ٥٤٧ هـ .

* * *

وبعد ، فأكتفي بذكر هذا العدد اليسير جـــداً من تلاميذ الحافـــظ

---

١ ـ انظر « معجم السفر » : الورقة ٢٢ ب ، « معجم الأدباء » : ١ / ٤١٦ » الخريدة (قسم شعراء مصر) : ١/ ٢٠٠ ، « بغية الدعاة » : ١ / ٣٣٧ ، « وفيات الأعيان » : ١/ ١٤٤ ، « الطالع السعيد » : ٥٢ ، « الوافي بالوفيات » : ٧ / ٢٢٠ – ٢٢٥ ، « حسن المحاضرة » : ١ / ٥٤٠ ، « شذرات الذهب » : ٤ / ١٩٧ .

٢ ـ انظر ترجمته في « معجم السفر » : الورقة ١٨١ أ ، « إنباه الرواه » : ٣ / ١٠٥ « طبقات القراء » : ٢ / ١٢١ ، « المعجم » (لابن الأبار) : ١٥٩ ، « تكملة الصلة » ١ / ١٩٣ ، « تلخيص ابن مكتوم » : ٢٠١ .

« السِّلفي » الذين زاد عددهم عن عشرات الألوف ، وذلك خشية الإطالة ، وأُحيل من أراد معرفة المزيد منهم إلى كتاب الحافظ السِّلفي « معجــم السفر »[1] وإلى كتب التراجم المشهورة مثل : « سير أعلام النبلاء » ، « تذكرة الحفاظ » ، « تاريخ الإسلام » ، « العبر » ، « المشتبه » وجميعها للحافظ الذهبي ، و « لسان الميزان » ، « وتبصير المنتبه في تحرير المشتبه » للحافظ ابن حجر العسقلاني ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و « طبقات الشافعية » للسبكي ، و « تكملة وفيات النقلة » للحافظ المنذري ، و « معجم الألقاب » لابن الفوطي ، و « الوافي بالوفيات » لخليل الصفدي ، و « شذرات الذهب » لابن العماد ، و « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزي ، و « طبقات المحدثين » ، و « حسن المحاضرة » ، و « بغية الوعاة » للحافظ السيوطي ، و « إنباه الرواة » للقفطي ، و « تكملة اكمال الإكمال » لابن الصابوني ، و « معجم الأدباء » و « ومعجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « التكملة » ، و « المعجم » لابن الأبار ، و « الصلة » لابن بشكوال ، و « نفح الطيب » للمقري ، و « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي و « فهرست شيوخ ابن خير » ، و « الخريدة » للعماد الأصفهاني ، و « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » لشمس الدين السخاوي ... وغير ذلك من كتب المشارقة والمغاربة .

* * *

١ – انتهيت من تحقيق هذا الكتاب القيم لم يسلم لنا بعد ورحم الله المؤلف استعجل الأمر وسيظهر قريباً في مجلدين كبيرين ، إن شاء الله .

الفصل العاشر

وفاتـــه

وأخيراً ، وفي صباح يوم الجمعة – وقيل ليلة الجمعة – الخامس من ربيع الثاني سنة ٥٧٦ هـ غربت شمس حياة « السلفي » من الوجود ، وأفل نجمه من سماء الإسكندرية إلى الأبد ، فانتهت بذلك حياة طويلة عامرة ، دامت قرناً من الزمن ، قضاها صاحبها في رحاب العلم والتدريس ، والمطالعة والكتابة والتحصيل والإفادة ، لم يتوقف عن ذلك يوماً من الأيام ولم يمنعه مانع ، وإنما ظل يتابع ويفيد حتى آخر أمسية من أمسيات حياته ، روى الذهبي عن وجيه الدين عبد العزيز بن عيسى اللخمي – قارىء الحافظ « السلفي » – قال : « توفي الحافظ في صبيحة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ ، ولم يزل يُقرأ عليه الحديث يوم الخميس إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته ، وهو يرد على القارىء اللحن الخفي ، وصلى يوم الجمعة عند انفجار الفجر ، وتوفي بعدها فجأة »[1] .

وصلى عليه صاحبه أبو طاهر بن عوف[2] فقيه الإسكندرية المالكي ، بعد ظهر الجمعة بجامع عبد الله بن عمرو بن العاص ، ودفن في مقبرة « وعلة » التي ذكرها ابن خلكان بقوله : « وهي مقبرة داخل السور عند

---

١ – الذهبي « سير أعلام النبلاء » مخطوط الظاهرية : ١٣ الورقة : ١ أ ، ويتابع الذهبي على هذا الرأي السبكي في « طبقاته » : ٤ / ٤٦ . وانظر أيضاً ابن خلكان في « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢١ ، والسيوطي في « حسن المحاضرة » : ١ /١٦٥ ، والأسنوي في « طبقات الشافعية » مخطوط الورقة ٩٩ أ . وابن الأبار في « المعجم » والمقريزي في « السلوك » .
٢ – ابن الأبار « المعجم » : ص ٥١ .

الباب الأخضر [1] فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره »[2].

وقد زار قبره من المؤرخين المشهورين أبو شامة صاحب كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين » وذكر ذلك في أحداث سنة ٥٧٦ هـ فقال : وفيها توفي الحافظ « السِّلفي » ، وقد زرت قبره داخل الباب الأخضر »[3].

والمؤسف حقاً أننا لا نعرف بالتحديد – هذه الأيام – أين يقع قبر هذا العالم الكبير ، فقد أبلى معالمه كرُّ الجديدَيْن ، وطمست آثاره عاديات الزمن ، فلم يبق أي علامة تدل عليه * ، يقول الدكتور جمال الدين الشيّال – وهو أحد المهتمين بتاريخ الإسكندرية وطبغرافيتها : « وبعض أهالي الإسكندرية يرجحون أن « السِّلفي » مدفون داخل مسجد القاضي « سند بن عنان أمام القبلة ، وهو قول يحتاج إلى بحث للتأكد من صحته »[4].

ولعمري إن هذا لنكران من أهل الإسكندرية لعالم من علمائهم الكبار ، أكسب مدينتهم شهرة عالمية في علم الحديث والقراءات طوال القرن

---

١ – أحد أبواب الإسكندرية القديمة ، كان يقع في الناحية الغربية منها .

٢ – ابن خلكان « وفيات الأعيان » : ١ / ٢٢١ ، الأسنوي : «طبقات الشافعية» مخطوط كامبردج الورقة ٩٩ أ .

٣ – « كتاب الروضتين » : ١٦/٢ .

* لقد كان المؤلف الاستاذ حسن عبد الحميد – رحمه الله – من المجهود لهم بسلامة العقيدة واتباع السنة . ولا يفهم من كلامه أنه يريد رفع القبور ! ! وان تحديد المكان وعدم العدوان على القبور من مقاصد الشريعة ، وانظر كتاب « تحذير الساجد » للمحدث الالباني لتعرف الحكم الشرعي من كل ذلك . زهـير

٤ – أعلام الإسكندرية : ص ١٥٨

السادس الهجري ، ولا يعرفون بالتحديد مكان قبره الذي دفن فيه ، وكان الأولى بهم أن يردوا له الجميل فيعرّفوا الأجيال بمكانته أو يعيدوا للأذهان اسمه بإطلاقه على أحد المعاهد أو المدارس ، أو أن ينشروا تراثه ، وذلك أضعف الإيمان . والأمل كبير أن تتدارك بلدية الإسكندرية تقصيرها فتتلافاه، وأن تتخذ من وسائل التكريم ما تحيي لعالمها الجليل: «الحافظ أبي طاهر السلفي » ذكراه .

فهرس

الأعلام والمراجع العربية

ابن الأبّار : محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) .
« المعجم في شيوخ أبي علي الصدفي » ، مجريط ، ١٨٨٥ م .
« التكملة لكتاب الصلة » : جزءان ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .

ابن الأثير : عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .
« الكامل في التاريخ » : ١٢ مجلداً ، القاهرة ، ١٣٠٣ هـ .
« اللباب في تهذيب الأنساب » : ٣ أجزاء ، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة ، ١٣٥٧ هـ .

ابن جبير : أبو الحسن محمد (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .
« رحلة ابن جبير » ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٠٧ م تحقيق لجنة جب التذكارية .

ابن الجزري : شمس الدين محمد بن محمد بن الجزري ، (ت ٨٢٣ هـ) .
« غاية النهاية في طبقات القراء » ، جزءان ، اعتناء ج . برجشتراسر ، مطبعة السعادة بمصر ٣٢ ـــ ١٩٣٣ م .

ابن الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) .
« المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ، (٥ — ١٠) ، حيدر آباد بالهند ١٣٥٧ — ١٣٥٨ هـ .

ابن حجر : أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ) .
« تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » ، ٤ أجزاء ، تحقيق علي البجاوي ، دار القومية العربية ٦٤ — ١٩٦٧ م .
« لسان الميزان » ، ٦ أجزاء ، المطبعة العثمانية بحيدر آباد بالهند ١٣٢٩ هـ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) .
« المقدمة » ، ٤ أجزاء : تحقيق : علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ — ١٩٦٨ م .

ابن خلكان : القاضي شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ هـ) .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، تحقيق إحسان عباس ، (١ — ٨) ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٢ .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، عناية الشيخ محيي الدين عبد الحميد ، النهضة بمصر ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

ابن خير : أبو بكر محمد بن خير الأشبيلي (ت ٥٧٥ هـ) .
« فهرسة » ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ، وقف على طبعه فرنسشكه قداره زيدين وتلميذه .

ابن الدبيثي : أبو عبدالله محمد بن سعيد الواسطي (ت ٦٣٧ هـ) .
« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي » ، جزءان ، انتقاء الحافظ الذهبي ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٩٥١ م — ١٩٦٣ م .

ابن رجب : أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (ت ٧٩٥ هـ) .
« الذيل على طبقات الحنابلة » ، جزءان في مجلد ، القاهرة ، ١٩٥٢ – ١٩٥٣ م .

ابن سناء الملك: القاضي السعيد هبة الله بن جعفر بن محمد (ت ٦٠٨ هـ ١٢١٢ م) .
« الديوان » ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

ابن شداد : القاضي بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ) .
« السيرة اليوسفية » الطبعة الأولى ، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ، ١٩٦٢ م .
« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧ هـ .

ابن الصابوني : جمال الدين محمد بن علي المحمودي (ت ٦٨٠ هـ) .
« تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب » ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٧هـ ١٩٥٧ م .

ابن الصلاح: الحافظ أبو عمرو عثمان الشهرزوري (ت ٦٤٢ هـ) .
« مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث » ، دار الحكمة ، دمشق ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧ هـ) .
« فتوح مصر وأخبارها » ، تحقيق شارل توري ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٢ م .

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ) .
« تهذيب تاريخ ابن عساكر » ، هذّبه ابن بدران ، مطبعة روضة دمشق ١٣٣٠ هـ .
« تبيين كذب المفتري » ، طبعة القدسي بالقاهرة .

ابن العماد : عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) .
« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » ، مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .

ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت ٧٩٩ هـ) .
« الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب » ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٩ هـ .

ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ) .
« مجمع الآداب في معجم الألقاب » ، الجزء الرابع ، ٤ مجلدات ، تحقيق مصطفى جواد ، دمشق ٦٢ ــ ١٩٦٥ م .

ابن قلاقس : أبو الفتوح نصر الله بن عبدالله (ت ٥٦٣ هـ) :
« الديوان » ، عناية خليل مطران ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٩٠٥ م .

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) .
« البداية والنهاية » ، ١٢ جزءاً ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ ــ ١٣٥٨ هـ .

ابن المستوفي: أبو البركات المبارك بن أحمد (ت ٦٣٧ هـ) .
« تاريخ إربل » ، مخطوط مكتبة Ghester Beatty بدبلن ، رقم ٤٠٩٨ .

ابن مماتي : أسعد بن المهذب بن أبي مليح (ت ٦٠٦ هـ) .
« قوانين الدواوين » ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر ١٩٤٣ م .

ابن النديم : محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ) .
« الفهرست » ، المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، الطبعة ١٣٤٨ هـ.

ابن واصل : جمال الدين (ت ٦٩٧ هـ) .
« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، جزءان ، القاهرة ٥٣ — ١٩٥٧ م .

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ)
« كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ، جزءان ، مطبعة دار النيل ١٢٨٧ هـ — ١٢٨٨ هـ .

أبو الصلت : أمية بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٥٢٨ هـ) .
« الرسالة المصرية » ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ) .
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، ٩ أجزاء ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٣٠ — ١٩٤٠ م .

أرسلان : الأمير شكيب .
« الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » ، المطبعة الرحمانية ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

الأسنوي : جمال الدين عبد الرحيم بن حسن (ت ٧٧٢ هـ) .
« طبقات الشافعية » ، مخطوط جامعة كامبردج رقم or 842

الأصفهاني : العماد الكاتب محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) .
« خريدة القصر وجريدة العصر » (قسم شعراء مصر) ، جزءان ، تحقيق شوقي وآخرين ، القاهرة (٥١ – ١٩٥٢ م.

البغدادي : عبد اللطيف بن يوسف (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) .
« مختصر تاريخ مصر » ، تحقيق ج . وايت ، أكسفورد ١٨٠٠ م .

البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت ٦٠٤ هـ) .
« ألف با » ، جزءان ، المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٧ هـ .

حسن : حسن إبرهيم حسن .
« تاريخ الدولة الفاطمية » ، الطبعة الثانية ، مصر ١٩٥٨ م .
« تاريخ الإسلام السياسي » ، ج ٤ ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، نشر مكتبة النهضة المصرية .

حمزة : عبد اللطيف .
« الحركة الفكرية في مصر » ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثامنة ١٩٦٨ م .

الخطيب البغدادي : الحافظ أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ) .
« كتاب الكفاية في علم الرواية » ، تقديم محمد التيجاني ، مراجعة عبد الحليم محمد عبد الحليم وعبد الرحمن حسن محمود ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى .

خليفة : كاتب جلبي مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧ هـ) .
« كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » ، طبع وكالة المعارف ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .

الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) .
« تذكرة الحفاظ » ، ٤ أجزاء ، طبع دائرة المعارف بحيدر آباد ، الطبعة الرابعة ، مطبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .
« سير أعلام النبلاء » ، المجلد ١٣ ، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٣٩١٠ / ١٣ .
« العبر في خبر من غبر » الجزء الرابع ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٣ م .
« ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، تحقيق علي البجاوي ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

الرُّعيني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرُّعَيْني الإشبيلي ، (ت ٦٦٦ هـ) .
« برنامج شيوخ الرعيني » ، تحقيق إبراهيم شلوح ، دمشق ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

ريزيتانو : أمبرتو .
« حوليات كلية الآداب » بجامعة عين شمس بالقاهرة ، المجلد الثالث ، عدد يناير ١٩٥٥ م .

الزبيدي : محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) .
« تاج العروس من جواهر القاموس » ، القاهرة ١٣٠٦ — ١٣٠٧ هـ .

الزركلي : خير الدين .
« الأعلام » ، ١٠ أجزاء ، الطبعة الثانية .

سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤ هـ) .

« مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، الطبعة الأولى ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

السبكي : عبد الوهاب بن تقي الدين علي (ت ٧٧١ هـ) .
« طبقات الشافعية الكبرى » ، ٦ أجزاء ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٤ هـ .
« طبقات الشافعية الكبرى » ، ٨ أجزاء ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ) .
« الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ » ، تحقيق فرانز روزنثال ، مطبعة العاني ببغداد ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

السلفي : أبو الطاهر (ت ٥٧٦ هـ) .
« معجم السفر » ، مخطوط مكتبة Chester Beatty رقم ٣٨٨٠ .
« المشيخة البغدادية » ، مخطوط مكتبة الأسكوريال باسبانيا رقم ١٧٨٣ .
« الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » مخطوط مكتبة Chester Beatty رقم ٤٨٧٤ .
« الأربعون البلدانية » مخطوط ، عدة نسخ .
« المجالس السلماسية » مخطوط .
« مقدمة كتاب الاستذكار لابن عبد البر » ، مخطوط .
« مقدمة كتاب معالم السنن للخطابي » .

السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) .
« الأنساب » ، سلسلة جب التذكارية ، لندن ١٩١٢ م .

سيد : فؤاد .
« فهرس دار الكتب للمخطوطات » ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .

السيوطي : عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .
« بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ / ١٩٧٢ م .
« تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي » ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٢ م .
« حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، جزءان ، مطبعة الموسوعات بمصر ١٣٢١ هـ .

الشيال : جمال الدين .
« أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي » ، القاهرة ١٩٦٥ م .
« تاريخ مدينة الإسكندرية » ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م .

الصالح : صبحي .
« علوم الحديث ومصطلحه » ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

الصفدي : خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ م) .
« نكت الهميان في نكت العميان » ، طبعة مصر ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م .
« الوافي بالوفيات » ، الجزء السابع ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

طلس محمد أسعد
« الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف » ، مطبعة العاني ببغداد ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

عباس : إحسان
« العرب في صقلية » ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

عبد الوهاب : حسن
« تاريخ المساجد الأثرية » ، جزءان ، القاهرة ١٩٤٦ م

العش : يوسف
« فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية » ، مطبعة دمشق ١٣٦٦ ه / ١٩٤٧ م .

الفيروزبادي : محمد بن يعقوب .
« القاموس المحيط » ، الطبعة الثانية ، المطبعة الحسينية بمصر ١٣٤٤ ه .

القفطي : جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ ه) .
« إنباه الرواة على أنباه النحاة » ، ٤ أجزاء ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب ١٣٦٩ ه ١٩٥٠ م ، والجزء الرابع ١٩٧٣ .

القلقشندي : شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٢١ ه) .
« صبح الأعشى » ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٣ ـ ١٩١٩م

الكتاني : محمد بن جعفر (ت ١٣٤٥ ه) .
« الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة » طبعة ١٣٧٩ ه ١٩٦٠ م .

كحالة : عمر رضا
« معجم المؤلفين » ، الجزء الثاني ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٦ ه / ١٩٥٧ م .

كواتشكوفسكي : أ. يو.
« تاريخ الأدب الجغرافي العربي » ، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٣ م.

المراكشي : محمد بن محمد الأنصاري
« الذيل والتكملة » لكتابي الموصول والصلة » ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ م.

المقدسي : شمس الدين أبو عبدالله البشاري (القرن الرابع الهجري
« أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، ليدن ، ١٨٧٦م

المَقّري : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ).
« أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، طبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م.
« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، (١ — ١٠) ، بعناية محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ م.

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ).
« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » ، تصحيح محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م.
« المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » ٤ أجزاء ، طبعة مصر ١٣٢٥ هـ.

المنذري : زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ).
« التكملة لوفيات النقلة » ، تحقيق بشار معروف ، مطبعة الآداب النجف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

الهروي : أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١ هـ) .
« الإشارات إلى معرفة الزيارات » ، تحقيق جانين سورديل – طومين ، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٣ م .

اليافعي : أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ) .
« مرآة الجنان وعبرة اليقظان » ، (١ – ٤) ، الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣٣٨ هـ .

ياقوت : الحموي (ت ٦٢٦ هـ) .
« إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » (معجم الأدباء) ، ٧ أجزاء ، سلسلة جب التذكارية ، تحقيق مرجليوت ١٩٠٧ – ١٩١١ م .
« معجم البلدان » ، ٨ أجزاء ، طبعة الخانجي ١٩٠٦ م .

المراجـع الأجنبية

- Arberry (A. J) :
  A handlist of the Arabic Manuscripts of the Chester Beatty Library , Dublin 1962 .

- Brokelman (K.):
  Verzeichniss Der Arabischen handschriften Der Kôniglchen Bibliothek zu Berlin .

- Browne (E. G.) :
  Literary history of Persia , London 1906 .

- Butler (Alfred) :
  The Arab Conquest of Egypt, Oxford 1902

- Lana Pool :
  Saladin (and the fall of the kingdom of Jerusalem) : London 1898 ,

- The Library of the University of Cambridge .
  A Handlist of the Muhammdan manuscripts .

- Voothoeve (P.)
  Handlist of Arabic manuscripts in the library of the University of Lieden.

فهرست الكتاب